WITH NO MERCY



بيت عراقي مختوم بالشمع الأحمر 1980

د. هناء سلمان

مسارات
MCMD
مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية
www.masratiraq.org / info@masratiraq.org

دار الرافدين

بلا رحمة

بيت عراقي مختوم بالشمع الأحمر 1980

سلسلة (مائة عام من الإبادة الجماعية : من إبادة الأرمن الى إبادة الإيزيديين: 3)

صدر منها:

1 ـ علاء الشريف وفكرت البغدادي، مائة عام على الإبادة الأرمنية، 2015.

2 ـ حسو هورمي، الفرمان الأخير ـ داعش والإبادة الجماعية للإيزيديين،2016.

د. هناء سلمان

حرّره وقدّم اليه: علي عبد الأمير عجام

الطبعة الأولى: بيروت/ لبنان، 2017

First Edition: Beirut/Lebanon, 2017

لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com

dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati



مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية MCMD

بيروت ـ بغداد

009647814140760/009647901421677

www.masratiraq.orq

info@masaratiraq.org

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 214 - 1

(100 عام من الإبادة الجماعية:
من إبادة الأرمن الى أبادة الإيزيديين)

د. هناء سلمان

بلا رحمة

بيت عراقي مختوم بالشمع الأحمر 1980

حرّره وقدّم اليه: علي عبد الأمير عجام


www.masratiraq.org


www.daralrafidain.com

كلمة شكر

أتقدم بوافر الشكر والتقدير والامتنان والاحترام إلى أستاذي واخي وصديقي وزميلي الفاضل، صاحب القلم الحر الاعلامي الدكتور علي عبد الامير عجام، الذي شجعني على مواصلة الكتابة ووجهني وساعدني على إنجاز هذا العمل وتحمل العناء لتصحيح واخراج الكتاب بالشكل اللائق وايجاد طريقة لنشره.

كما أقدم شكري الجزيل وامتناني لمؤسسة مسارات في بغداد لتحملها عناء النشر والدعم في سلسلة مائة عام من الإبادة الجماعية.

واتقدم بوافر الشكر الى الدول الانسانية المانيا وهولندا التي احتضنتني وانتشلتني من الضياع ومنحتني الهوية.

الإهداء

أهدي هذا الكتاب المتواضع إلى روح والدتي ووالدي رحمهما الله لتحملهما عناء التشرد وقسوة البعاد.

إلى أختي الكبيرة وأخي كاظم وأختي دكتورة سجواء الذين رحلوا عن دنيانا قبل الأوان ليضم تراب الغربة أجسادهم ولكن أرواحهم لا تزال تحوم حول بغداد والوطن.

إلى أخوتي وأخواتي الاحبة المتبقين وابنتي سارا.

إلى كل العراقيين المهجرين الأحياء منهم والأموات الذين عانوا العذاب ويعانون حتى يومنا هذا.

الى كل من شجعني من أهل وأحبة وأصدقاء على مواصلة الكتابة.

الى كل عراقي لا يزال مؤمنا بحب الوطن.

المقدمة

لا يبدو أمرا متاحا، الحصول على وثيقة إنسانية تسجل مصائر عراقيين ممن وجدوا أنفسهم، وعلى حين غرة، بلا وطن، ممن انتزعوا، فجأة وبلا مقدمات، من دفء البيوت وفسحة الحياة والآمال الى مجهول فسيح تغيب فيه الملامح، وترتعش الأرواح خوفا ورعبا وغربة.

لا شيء تقريبا، غير الرواية «الرسمية» المخادعة المسمومة، وهي تضفي عبارات «الوطنية» على قرار سيكون عنوانا لمرحلة من الكراهية والقسوة والرعب اجتماعيا وأخلاقيا، وتهيئة لحرب تلو الأخرى، تطعن فيها البلاد طعنة تلو الأخرى بما يجعلها أقرب الى حتفها، فيما هي ضاجة بالحياة وطاقاتها الخلاقة.

من الجهة الأخرى، لا شيء تقريبا، غير الرواية «المباشرة» والخطابية من قوى ومؤسسات قومية وطائفية وسياسية معارضة لنظام الرئيس صدام حسين، سعت الى رفع الصوت عن جريمة ترتكب في العلن، لكن ضمير العالم كان حينها يغط في نوم عميق، مثلما قادته «الكبار» كانوا مأسورين بـ«قصة نجاح» لسلطة في بغداد كانت تشتري الضمائر بالمال والنفوذ مقابل السكون عن جرائمها، مثلما كانوا يعدون لنار الحرب العراقية الإيرانية.

وكي تضرم نار تحتاج شررا، جاء قرار بتهجير عشرات الآلاف من العراقيين بذريعة «أصولهم الإيرانية» في نيسان (أبريل) وأيار (مايو) 1980، بمثابة الشرر لحرب ليس غريبا انها ما تزال مستعرة حتى اليوم، بل ان المصائر الفجائعية التي لقيها ضحايا التهجير القسري، ستتكرر وعلى نحو أكثر مأساوية وسعة منذ ذلك التاريخ الرهيب حتى اليوم.

من هنا تأتي الحاجة الى نص إنساني يوثق تلك الحظة المصيرية والفارقة عبر كتابة بالشهقة، والدمعة والسخرية، بالإنكسار والصرخة، بأغنية وبسملة وغضب، ومن هنا جاءت مذكرات الزميلة والصديقة السيدة هناء جعفر سلمان، لتفتح ممرا الى مرحلة ظلت علامة صريحة على «القسوة والصمت» كما يقول الكاتب كنعان مكية، قسوة الإبعاد من البيوت والثياب والشوارع والوجوه والأدعية والأغنيات، وتحت تهديد البنادق والاعتقال والتعذيب، الى مجهول رهيب وسط صمت داخل البلاد وخارجها، هو أقرب الى القبول بالجريمة ثم القبول بدور «شهود الزور» والوصول لاحقا الى مرحلة مديح المجرم وطمر نبع أسمه الضمير الإنساني.

وفي مذكرات السيدة جعفر، محاولة رائدة وقد تبدو مستحيلة، هي في العودة الى ذلك النبع والثناء عليه، بل والحنو البالغ على ما فيه من ماء، كان أساسيا في تكوينها الفكري والأخلاقي وحتى الفسيولوجي، حد انك كقارئ، قد تستغرب، إن مكانا وتكوينا بشريا كان قاسيا على شابة على وشك ان تنهي دراستها في الطب والجراحة البيطرية، يقذف بها وبعائلتها الى مجهول فسيح، لكنها لا تقابله إلا بالوفاء واللهفة والأشواق. انك لا تجد نبرة جارحة تجاه الوطن ولا حتى عتابا قاسيا، بل نشيد محبة متواصلا ومنسوجا بحنايا الذكريات والآمال، دون ان يكون ذلك أسير «رومانسية»، بل موقفا فكريا وأخلاقيا واعيا ومقصودا، فالحنايا مشبعة باليقين، يقين الوطن لا السلطة، ومن هنا يأتي التميز الواعي بين البلاد والطاغية، وهي في سردها الغني لفصول تشردها مع الآلاف، كانت تحقق معادلة فريدة، فهي كلما استحضرت الوطن بوفاء وطيب، كانت تصيب الطغيان وسلطته وآلته الحزبية والفكرية بما يستحق.

هذا كتاب نادر في صدقه، مثلما هو نادر في تعقب مرحلة فتحت العراق على أبواب جهنم أرضية هذه المرة، وهو وثيقة ترقى الى مقاربة بلاد بدت في لحظة ما وقد «اختفت خلف الكون»، مثلما هي حاضرة بين «شباب ينشدون موطني بأعمق ما عندهم من عشق وقوة ارتباط «حتى وهم يركبون حافلة لا يعرفون أي مكان ستأخذهم اليه.

صحيح إننا هنا نتعقب مصائر شخصية، ولكننا وبدون أي قصد سنكتشف ذواتنا

وهي تتابع مسارات البلاد وهي تتأرجح بين الموت والرجاء، منذ ذلك الخريف الذي دوت فيه صفارات الإنذار في مدن البلدين الجارين، حتى تكاد تصل كقارئ الى حقيقة تقارب النص بوصفه وثيقة حية على كل ما يعنيه الطغيان، وما تعنيه الذرائع لا لارتكاب جريمة وحسب، بل وتأطيرها فكريا وسياسيا. انه نص يكشف ان من يرتكب قسوته المطلقة بحق جماعة إنسانية «أقلية» ويستصغر شأنها، لن يتردد عن ارتكاب القسوة ذاتها صعودا الى «غالبية» الأمة، وهو لعمري درس بليغ، لم يجد بلاغته القصوى مثلما وجدها في ديكتاتورية رهيبة كانت تفتك بالرقاب «الضعيفة» كي ترتعش خوفا «القوية»، وصولا الى شعب في لحظة خنوع تام.

هذا نص كتبته هناء سلمان بالحنو واللطف والإيثار على مكان بدا في لحظة وكأنه يد جبار قاس على من أحبه وأخلص اليه. هذا نوع نادر من الشغف بالعراق فكرة ومعنى، وهذا نشيد محبة لا تكتبه وتصوغ ألحانه الا قلوب رحيمة مصطفاة، ومنها قلب الدكتورة سلمان والذي ظل يهفو للوطن ـ البيت، وإن كان مسورا بحقول ألغام، وأسيجة من خوف وأعمدة من قسوة وليس مجرد كونه مختوما بالشمع الأحمر.

هذا ليس مجرد نص مكتوب بالمحبة لوطن، حتى وإن بدا قاسيا، انه يرقى الى مرتبة النبع، مرتبة الضمير الإنساني.

الرحيل عن بلد الحبّ والرعب

1

1980-5-14

الذين عاصروا الفترة بين 1979 و1980 يتذكّرون جيدا كيف كان الوضع السياسي في العراق يمضي الى تردٍ مستمر، وكيف كانت حوادث الاختطاف والاعتقال والقتل تجري في وضح النهار. ما زلت أذكر كيف بدأت مخالب النظام البعثي تنهش بالسكان المسالمين دون رحمة. كان الخوف وعدم الثقة واليأس منتشرا بين الناس، والغالبية يحاولون أن يتفادوا نقمة النظام الجائر عليهم وعلى عوائلهم.

من بين تلك الظواهر التعسفيّة كان التهجير القسري الذي خطط له النظام بدقة، وكان أكثر دقة من التهجير الذي حصل في بداية السبعينات، للتخلص من فئات معينة من الشعب لم تكنْ تتماشى مع أفكار النظام الحاكم، وبذريعة كونهم من «أصول ايرانية».

إنّ المهجرين الذين أخرجوا من ديارهم ووطنهم، بعد سلب هويتهم وملكيتهم، لم يكونوا فقط ممن هم من أصل إيرانيّ (وهؤلاء الناس قد عاشوا قروناً في البلد)، ولكن كان كل من لم ترغب به الدولة، فهناك عرب من الجنوب، أكراد، فئات وديانات مختلفة، وأيضاً تجار هم ابرز أعضاء «غرفة تجارة بغداد» ولأهداف معروفة لا أريد الخوض بها.

لقد سمعنا بقصص التهجير المرعبة من مصادر مختلفة، ولكن والدي، والعائلة كلها، استبعد حدوث ذلك معنا، لأن بوادرها لم تؤخذ على محمل الجد لعدم حدوثها على مرأى أعيننا، ولأن الحياة البسيطة التي كانت تعيشها العائلة لا زالت تسير كعادتها. الوالد في عمله، الأولاد منشغلون بدراستهم، الوالدة منهمكة في

أعمالها المنزلية وفي الحديث مع الجيران. ولم تكن فكرة التهجير تشغلنا، وغالبا ما نُبعد كابوسها بالعمل وبممارسة حياتنا اليومية. في الشهر الخامس (1980) كان أغلب أفراد عائلتي يتهيؤون للامتحانات، ومنها الجامعية، وجميعنا مشغول بالتحضير الجاد للامتحانات النهائية من أجل بناء المستقبل الذي نصبو الى تحقيقه. ثم وقعت النكبة التي لم يتوقعها أحد منا، وبالتحديد يوم 14-5-1980 حوالي الساعة الثانية بعد الظهر حيث وصلنا الخبر عن طريق الجيران، مفاده إنّ بيت عمتي «ام جواد» سيسفّرون، ثم ذهب بعض أفراد عائلتي للتأكد من صحة الخبر. وكان التهجير واقعاً وبشكل عنيف ومسلح، وبعد ساعتين أو اكثر من ذلك وصلنا خبر آخر، وهو أن بيت عمي الآخر «صادق» سيسفّرون أيضا، فكان وقع الخبريّن علينا فاجعة مؤلمة لم تخطر ببالنا، ولم نكن مهيئين نفسياً لحصولها. كانت عوائلنا تسكن قريبا من بعضها في «مدينة الحرية»، وديارهم لم تكن تبعد عن ديارنا سوى مسافة بسيطة، لذلك فتهجيرهم وبفترة قصيرة كان مفاجئا وصدمة عنيفة، وردود الفعل كانت متباينة حول ما سيحدث لنا. أدركت عائلتي أن مصيرها قد أصبح على كف عفريت ظالم، وأملنا في البقاء في الوطن بدأ يضمحل. كان الحزن على فراق الأحبة رهيبا، أبكانا وأبكى كل إنسان ذي قلب من الذين حضروا وقت التسفير لعوائلنا المسالمة البسيطة. لم يكن هناك وداع حقيقيّ، ولكنه كان ألما وحزناً عميقيّن لما حدث. وبدأ الخوف يدخل قلوبنا، وسؤال محير أصبح يشغلنا، هل سيكون تهجيرنا هو الخطوة التالية؟

في ذلك اليوم الكئيب، الرهيب والمخيف، حاول الجميع أن لا يتحدث بالموضوع، وفضلّنا انتظار رجوع والدي من عمله، وإخباره بما حدث. وكنْا خائفين من وقع الخبر على والدي، ومن أن تصل باصات التهجير في أي لحظة. رجع والدي من عمله كالمعتاد، وأخبرته والدتي بما حدث لبيت عمتي وعمي، وكانت صدمة شديدة عليه، رأيت على وجهه الحزن على عائلته التي هُجّرت، وألما كبيرا احاط به حزنا على المبعدين وخوفاً علينا مما سيحدث. حاول والدي قدر الإمكان إخفاء مشاعره الحقيقية كي لا يخيفنا.

تلك الليلة لا أستطيع وصفها، كأنها انتظار حكم الإعدام لناس بسطاء، أحبوا بلدهم. يومها أخبرنا والدي إنّ علينا الخلودِ للنوم مبكراً، وترك الدراسة. أطفئت

أضواء المنزل البشوش الدافئ بالحب مبكراً، على غير المعتاد، وساد هدوء مخيف في البيت بعد إن كان صاخباً بالحياة. كلّ منّا ذهب ليخلد للتفكير والقلق، وكان النوم بعيداً عن عيوننا الخائفة والمتعبة. كلّما سمعنا صوت عربة في الطريق فزع الجميع متصوراً أن الوقت قد حان، وهكذا مرّ ليلنا الى أن أشرقت الشمس. بدأ اليوم التالي بصلاة الوالدة ودعائها، وبدأنا نحن البنات بمساعدتها في تحضير الفطور، والجميع يتعامل بهدوء لم نعتد عليه. بعد تناول الفطور ذهب والدي الى عمله، ولا زال عنده أمل أن يُكمل أولاده وبناته امتحانات السنة الجامعيّة الأخيرة. بعد ذهابه للعمل، بدأت الوالدة بتحضير وجبة الغداء مبكراً في محاولة منها لأن يكون اليوم عادياً، وأن تختلي لنفسها. كانت تبكي، بين الحين والآخر، بصمت. يومها لم نغادر البيت خوفاً من تهجيرنا المباغت، وساد جو مشحون في البيت. كل منّا، وبدون وعي، يودع بيت العز ومرتع الطفولة والشباب بطقوسه الخاصة. لم ننتظر طويلاً إذ رنَّ جرس البيت بطريقة همجيّة، عرفنا من خلالها إنّ ساعة الصفر والنفي أصبحت أمرا لا مناص منه. فتح أخي الكبير الباب، ودخل مسلحان اثنان، بصورة همجية، وأخبرانا تحت ضغط السلاح بأن نتجمع وسط الصالة، وأن نهيأ أنفسنا لمغادرة البلاد. صرخت والدتي وبدون وعي «الله واكبر الله واكبر» فاتجه احدهم نحوها يريد ضربها، فأسرع أخي الكبير «كاظم» لمنعه، ثم هدأ الموقف. عند دخول أزلام النظام الى بيتنا وانتهاك حرمته بقوة السلاح، كأي جبان في العالم ليس له ضمير، طلبت والدتي من أحد أخوتي بقولها «يمه روح للمحل صيح ابوك». توجه أخي «احمد»، وهو قلق علينا، الى الشارع حيث استقل أحد باصات المصلحة التي أوصلته الى دكان والدي. وعلى حد قول أخي «احمد» (دخلت الى المحل حيث كان هناك زبون في المحل، وانتظرت حتى ذهب، وأخبرت الوالد بما حصل، وأن رجال الأمن في البيت، وعلينا التوجه الى البيت. أنزلت الكبنك (باب المحل) وقفلته مع الوالد، عبرنا الشارع الى موقف تاكسي المنصور، حيث أجر والدي أحد التكسيات للذهاب الى البيت المفجوع، وكان وجهه مهموماً ومحتقناً. في الطريق ضمني أبي الى صدره وقال لي «لا تخف يا ابني «فقلت له «لست بخائف». في الطريق ساد صمت عميق بيننا، فكلانا قليل الكلام في مثل

هذه المواقف. ناهيك عن أن الحالة التي نمر بها لا تسمح بالكثير من الكلام).

بارتباك كبير جمعنا بعض الأشياء البسيطة، مع البكاء. دخل الجيران لتوديعنا، وكذلك أناس لم نعرفهم، وطلب أخي «كاظم» من أحد الهمجيّين أن يسمح لي بمكالمة أختيّ هاتفياً، المتزوجة، وطبيبة الأسنان، لعدم وجود هاتف في بيتنا، وإخبارهما برحيلنا. سمح لي بالخروج الى الشارع، باكية مصدومة مما يحدث، متوجهة الى بيت جيراننا أبو حسام الذين لم يصدقوا الحدث. تكلمت بالتلفون مع أختيّ، وكان الجميع يبكي. عندما رجعت وجدت البيت يعج بالناس، بينهم من يودع، والآخر يبكي، وبعضهم يتفرجون على مسرحية قد شاهدوها سابقاً وهي تحصل في منازل أخرى. لا أعرف كم مضى من الوقت، والدتي تبكي وتردّد «انهجم بيتي» وفجأة وبين تلك الضجة الكبيرة رأيت والدي وأخي «احمد» قد وصلا. وكان والدي يبدو عليه الهدوء نوعا ما. بعد وصول والدي وأخي واكتمال عددنا، أمرونا بترك بيتنا الحبيب وسط هرج ومرج وبكاء. أُخرجنا قسراً من بيتنا. اخذنا معنا بعض الحاجيات ودخلنا باص التسفير الذي كان بانتظارنا أمام الباب. وهنا طلبت أمي من أحد المسلحين أن تأخذ عباءتها الجديدة، لأنها نستها وسط الزحام، ولكنه منعها بحجة (أنها أصبحت من ممتلكات الدولة). أخذوا مفتاح البيت، وأغلقوا الباب وختموه بالشمع الاحمر.

2

15 ـ 5 ـ 1980: في الطريق الى «خسروي»

لقد صادر رجال الأمن كلّ أوراقنا الشخصيّة، وأصبحت عائلتي دون هوية. كنت الوحيدة، من بينهم، التي احتفظت بهويتها بسبب خروجي المؤقت من البيت. تركنا بيت العز البسيط، الذي كان هو الوطن ونحن أبناؤه، إذ أصبح من غنائم النظام. محل والدي المنكوب أغلق وختم بالشمع الأحمر، لأنه كذلك أصبح من غنائم الدولة، وجلسنا كلنا داخل الباص الصغير (الفورت الأبيض) تحت وطأة الخوف والرهبة. آخر محطة مرور لنا كانت في المكان المفزع لكل العراقيين، وهو مديرية الأمن العامة. المكان الرهيب الذي دخلته قبل عام بتهمة حبّ الوطن. لا زالت ذاكرتي تحتفظ بتفاصيل مخيفة عن المكان بسبب تعرضي لإهانات واذى من قبل ازلام النظام، تَرَكت بداخلي مزيجا من مشاعر الغضب والخوف على عائلتي، فأحسست يومها بتسارع نبض قلبي وبعرقٍ باردٍ يتصبب فوق جبيني. ساعتئذ توقفت العائلة عن البكاء وحلّ محله الرعب والخوف على إخوتي، إذ سمعنا بأنّ الشباب يُعتقلون، ويتم ترحيل النساء فقط الى ايران.

ترك المسلحان الباص وبقينا نحن مع السائق، وهنا سألت والدتي بعفوية وطيبة كعادتها سائق الباص وبصوت باكي «انت شلون يعطيك قلبك ان تأخذ الناس بسيارتك للحدود» فأجابها السائق باكياً «اني اتمنى الموت ولا أعمل هذا العمل بس والله غصبن عليه جابونا من الكراجات وليس لي من الامر شيء»، وكان رجلا كبيرا في العمر، وتحس الصدق والطيبة في كلامه. بعد إجابة سائق الباص أشرنا لوالدتي بالسكوت لخطورة الموقف، فسكتت. بعد مغادرة المسلحين أصبحنا فريسة للخوف والهواجس القلقة على مصير اخوتي. كنا نخاف أن نكلّم بعضنا البعض خوفا من

وجود أجهزة تنصت يستمعون لما نقوله لذلك كانت لغة العيون هي البديل، وندعو الله في صمتنا أن تمر الأمور على خير. الانتظار كان ساعة أو أكثر، ولكن بدت لنا دهرا طويلا، ونحن ننتظر الحكم الأخير الذي سيحدد ما سيجري لإخوتي الشباب، وكان وجه والدي شاحباً ويداه ترتجفان. بعد ذلك الموت البطيء رجع المسلحون من مديرية التعذيب العامة، وقال رجل الأمن لوالدي إنّ عائلتنا ناقصة شخصا، وهي أختي طبيبة الاسنان التي كانت تعمل في أحد نواحي العراق. أومأ والدي بالإيجاب، دون أن يتكلم. وهكذا سمح المسلح لسائق الباص بالرحيل. خرجنا من دائرة «الموت العامة» وبدا الاطمئنان يعود الينا وقلوبنا تشكر الله على سلامة اخوتنا الشباب. ولكن بدأ خوفنا على أختي طبيبة الأسنان التي لا نعرف ردود فعلها، ولا مصيرها بين هؤلاء الأوغاد. سارت السيارة في بغداد الغالية التي لا تعرف بما يجري لأولادها البسطاء. الباص يسير، وعيوننا تحاول أن تكون كاميرات لتلتقط صورا لوداعنا البغيض القسري لوطننا الغالي. وبعد مسير أكثر من ساعتين، ونحن بين البكاء والصمت وتوديع البلد الذي كبرنا فيه وأحببناه، والخوف مما سيحل بنا، وصلنا الى الخط والنقطة (كما تُرسم في كتب الجغرافية) أي الحدود بين العراق الحبيب وايران. هناك أنزلونا في العراء، في الساعة الرابعة والنصف عصراً، ثم عاد الباص تاركاً راكبيه ضحايا الظلم والاستبداد، دون أي كلمة أو تنويه بما يحدث لهم، وحتّى دون كلمة وداع. لقد ساد الارتياح بعد مغادرة المسلحين وشعرنا بتنفسنا الطبيعي والتخلص من الاختناق والاحتقان الذي كان مسيطرا علينا. كان على الحدود كشكاً صغير جدا، يحرسه جندي مسلح، وقد أمرنا الجندي أن نبتعد متراً او اكثر عن الحدود، وفي سرّنا نقول له «حتى أنت يا برعي». خضعنا لرغبته كي لا نزعجه، فهو قوي بسلاحه، ونحن ضعفاء بإنسانيتنا. بعد قليل وصلت سيارة ثانية تحمل عائلة أخرى كبيرة العدد، وأيضاً تُركوا في العراء مع أوامر الجندي بالابتعاد عن الحدود، ورضخوا هم أيضاً لأمر الجندي المسلح.

تعرفنا على المنفيّن الجدد، عائلة كردية فيلية «بيت أم رضا». وكان أفراد عائلتهم شباب وشابات مقاربين لأعمارنا، وكان ذلك اليوم موعدا لبدء صداقة لا زالت قائمة. تحدثنا مع عائلة أبي رضا، والسؤال هو الى أين نتوجه؟ حيث كانت أمامنا جبال

وسهول خضراء خالية من الناس، وخلفنا الجندي وسلاحه. الرجوع الى الوراء كان غير ممكن، لذا اتفقت العائلتان على إرسال شاب من كل عائلة للبحث والاستطلاع، وهذا كان مرتبطا أيضاً بالخوف مما سيواجهون. توجه أخي الكبير «كاظم» مع الأخ «رضا» وسارا الى الأمام، وبعد دقائق غابا عن الأنظار وبدأت وساوس الأمهات. لم يكن انتظارنا طويلا، إذ فجأة لاحت سيارتا جيب عسكرية ووصلتا الينا. كان إخوتنا يجلسان فيها. لم نفهم ما قاله المسلحان الايرانيان «خوش اومديد» وكانت كلمات ترحيب فهمناها بعد ذلك. على ما يبدو كانت هناك مراصد ترصد قدوم المهجّرين من العراق وثم نقلهم الى برِّ الأمان. كلّ عائلة منّا استقلت سيارة، وودعنا حدود الوطن بكلمات أغنية فيروز: «سنرجع يوماً الى حيّنا».

بعد تحرك السيارة، كان شعورنا إننا نبتعد عن مركز الأرض، لأن العراق كان محور عالمنا، فكان الشعور بالألم والضياع كبير جدا. بعد رحلة قصيرة وصلنا الى قرية حدودية اسمها «خسروي». نزلنا في مسجدها المنعزل نسبياً عن القرية، بعد أن سجلت أسماؤنا وأعمارنا من قبل الطرف الايراني. في باحة المسجد التقينا بعوائل مهجّرة ومنكوبة مثلنا. كنْا آخر وجبة مهجّرين وصلت ذلك اليوم الى مسجد «خسروي»، استقبلتنا العوائل المهجّرة التي سبقتنا بالبكاء وبالأسئلة عن ما حدث لنا، ثم قدموا لنا الشاي والمواساة. قيل لنا ان المسجد يستقبل كل يوم عشر عوائل من العراقيين المهجّرين تقريباً. بمعنى أن المسجد كان أشبه بمحطة مرور للوافدين، يتم بعد ذلك توزيعهم على المخيمات. وهي مخيمات كثيرة ومتباعدة مثل مخيم «الزينبية» في اصفهان، حيث كانت العوائل تسكن في غرف، يتوسطها قبر، وتحت الأرض قبور أيضاً. وهناك مخيم ازنى، مخيم جهرم، مخيمات الأهواز وعبادان التي هدمت خلال الحرب، فأصبح سكانها مشردين أيضاً، ومخيمات أخرى لا تخطر في ذاكرتي الآن. توزيع العوائل المهجّرة كان يتم حسب قاعدة

first in--- first out ويعني به قانون الاولوية، وكل يومين تأتي باصات لنقل المهجّرين العراقيين الى الخيام في انحاء البلاد.

وهكذا كانت «خسروي» الحكاية الأولى في محطات المنفى.

3

15-5-1980: **مسجد «خسروي»**

عندما وصلنا المسجد كان التعب قد اضنانا، والعيون لا زالت تهمي دمعاً. فمن شدة التعب النفسيّ والجسديّ وزيادة هرمونِ الخوف، الذي كان في تصاعد خلال الـ(24) ساعة الأخيرة، أصبحنا شبيهين بالأموات، وليس لنا رغبة بأي شيء سوى أن نُتْرك لوهلة مع أنفسنا. جلسنا على الأرض في باحة المسجد، منفصلين، الرجال في جهة والنساء في الجهة الاخرى، دون أوامر من أحد. كان المسجد مكونا من ساحة ليس لها جدران، ولكنها مسورة بأسلاك شائكة يمكننا النظر من خلالها الى الخارج، والقسم الآخر منه صالة مفروشة بالسجاد الايرانيّ، شَغل النساء والاطفال مساحتها الأكبر، في حين توزع الرجال في الجزء المتبقي من الصالة. لم يكنْ المسجد واسعا كي يضم كلّ تلك الأعداد من العوائل، فالمعروف أن عوائلنا كبيرة، لذلك كان الازدحام يوم وصلنا على أشدّه، ولكن في اليوم التالي جاءت الباصات السياحيّة لتنقل عددا من الموجودين الى الخيام كي يحل محلهم مهجّرون جدد.

والدي كان قد اعتصم عن الكلام والشرب والغذاء منذ خروجنا من دائرة الأمن العامة. نحن، أبناؤه، نعرف أن المصير المجهول لأختي طبيبة الاسنان «سجواء» هو السبب. كانت سيناريوهات المصائر سوداوية كالواقع الذي تعوّد العراقيون عليه خلال حكم الطاغية. من الجهة الاخرى كانت والدتي تبكي بصمت على حالنا وحال أخواتي، وعيناها مرفوعتان الى السماء كأنها تنتظر أن تحدث أعجوبة ما. بعد اخراجنا من بيتنا بدقائق وصلت أختي المتزوجة بالتكسي، كما أخبرونا بعد ذلك، وبأنها كانت ترج باب البيت المختومة بالشمع الاحمر، وهي تبكي وتنوح. تجمهر من حولها الجيران والغرباء، إلى أنّ أجبرتها الشرطة على ترك باب الدار، المسلوب من ساكنيه.

أما أنا فلقد كنت أنظر الى أخي الكبير كاظم (أبو علي) وهو يجهش بالبكاء، وأخوتي من حوله، بسبب فراقه لزوجته وابنه الرضيع، فلقد كان عمر ابنه «علي» حينذاك أسابيع قليلة. زوجته وابنه بقيا بالعراق، لأن أهل زوجته نصحوا بذلك خوفاً على الرضيع من متاعب السفر والمجهول، وأملاً بالعودة السريعة. لا استطيع، بعد كلّ هذه الأعوام، نسيان النظرة الأخيرة وداع أخي لولده الرضيع، حيث رفع اخي ابنه بيديه الى السماء باكياً وسط صراخ وبكاء من حوله. كان المنظر مأساوياً جداً.

بعد ساعتين من وصولنا قدّم لنا أصحاب المسجد وجبة العشاء، مكوّنة من الخبز والجبن وبعض الخضرة، ذكّرتني حينها بالنذور وبـ«خبز العباس». أجبرنا أنفسنا على ابتلاع الّلقيمات على الرغم من أن طعم أفواهنا كان مراً. بقينا في باحة المسجد الى الساعة التاسعة مساء رغم أن حراس المسجد أخبرونا بأننا آخر قافلة وصلت لهذا اليوم، لكن الامل بقي يحدونا في ان تأتي حافلة أخرى فيها أختي. بعد ذلك دخلنا نحن البنات مع والدتي الى داخل الصالة النسائية للراحة والنوم قليلاً، ففوجئنا باكتظاظ المكان بالنساء والاطفال والهواء الخانق نتيجة الزحمة، مما يعني أن النوم في مثل هذه الحالات سيكون جلوساَ. في الصالة ساعدتنا بعض النسوة على إيجاد مكان لنا كي نجلس فيه، بعد أن جمعوا الحاجيات الموجودة، وهكذا وتمكنا من الجلوس في مكان ضيق جداً.

مِن مكاني رأيت وجوه نساء متعبة أو باكية وأطفالا ورضعا نائمين على الأرض، الجميع يعاني من الزحمة وضيق المكان، كان منظراً مأساوياَ ومروعا. لفت نظري امرأة عمرها يناهز الـ(60) سنة، بيضاء الوجنة، تلبس السواد وعلى رأسها فوطة بيضاء، وهي تبكي وتتمتم شيئاً باللغة الكردية. لم أكنْ أفهم ما تقول، كانت دموعها تتساقط على فوطتها البيضاء أو على ضفائرها البيض. كان صوتها خافتاً، ولكنه حزين جداً. في اليوم الثاني سألت عن قصتها فقيل لي بأن ولديها قد أُعدما قبل مدة، وكان ممنوعا عليها إقامة العزاء أو زيارة الناس لها، وانها أُخرجت مع ابنتها وواحدة من زوجات الأبناء ومع ثلاثة اطفال، فتقطّع قلبي حزناً عليها. ثم رأيت امرأة شابّة في منتصف العشرينات من عمرها، تضع عباءتها على كتفها وتنام الى جانبها طفلة صغيرة. كانت المرأة تبكي بصمت وترضع طفلها، فتسقط قطرات من الدمع على

ثديها وتمتزج بالحليب. كانت صورة مرعبة، بالنسبة لي، أن يرضع أطفالنا الحليب الممزوج بالدمع. ما أفظع هذا المنظر؟

المكان كان مزدحما وخانقا لكثرة الناس، وكئيبا لكثرة المآسي. كنْا جالسين بجانب والدتي، وبدأت سكرات النوم تأخذ طريقها لعيوننا المتعبة، وبدون إرادة مال رأسي إلى حضن والدتي التي نشرت عباءتها القديمة (الجديدة أصبحت من أملاك الدولة) علينا كأننا أطفال تحمينا بصَلاتها ودعائها. لم تمر ساعتان على دخولنا وبعد أن بدأ خدر النوم يأخذ طريقه، فجأة استيقظنا بفزع، اذ قالت احدى النساء «بدأت رحمة الله» حيث كان صوت الطلقات النارية من الطرفين العراقي والايراني. استيقظ الأطفال وبدأ صراخهم من شدة الفزع. أما النساء اللواتي كنّ قد هُجّرن قبل يومين او ثلاثة فكنّ هادئات نوعا ما، وقالت أحداهن «ان هذه المناوشات تحدث دائما بعد منتصف الّليل الى ما قبل طلوع الفجر بساعة». ثم سمعنا ركض الشباب الذين ناموا في ساحة المسجد هرباً الى صالة الرجال المزدحمة. أصوات النيران المتقطعة كانت قريبة جدا، لم تكن الحرب قد بدأت، واستمر إطلاق الرصاص الى الساعة الرابعة صباحاً، وكان الجميع قد استيقظ نتيجة الاصوات المفزعة. وبعد إن هدأت الأوضاع حاول الجميع أن يأخذ قسطاً من النوم. خلدت أنا الى النوم جالسة جنب والدتي حتى الساعة التاسعة صباحاً، وأيقظتني والدتي بصوتها الحنون. وهكذا بدأ نهار مشمس جديد، ربما ستكون أحداثه خيراً مما كانت البارحة.

4

مسجد خسروي... وفريد الأطرش

في اليوم التالي استيقظت من نومي، وكان تحت رأسي شيء، صنعته والدتي بديلا عن الوسادة، حين بدأت يومها بالصلاة والدعاء. عندما فتحت عيني ظننت أني كنت أحلم بكابوس، ولكن عند رؤيتي المسجد أيقنت أنه كابوس الحقيقة. وأنا لم أزل تحت خدر النعاس والشعور البغيض بما يجري سمعت هرجا ومرجا لنساء يجمعن ما سمح به رجال الأمن لهن بأخذه من بيوتهن. وسط صراخ الأطفال وتأهب النساء للرحيل الى المنازل الجديدة «المخيمات»، نهضت من مكاني وثمة إحساس يثقل في عينيّ وجسدي، فتوجهت الى خارج الصالة لرؤية عوائل جديدة قد وصلت من العراق. كان الشباب، ومن ضمنهم إخوتي وعائلة أصدقائنا (بيت أم رضا)، يساعدون الوافدين والراحلين. الصورة لم تكنْ تختلف بمآسيها كثيراً عن الأمس.

توجهت الى حنفيات المياه كي أغسل وجهي محاولة مني لإزالة ثقل الكابوس. شققت طريقي بصعوبة بين جمهرة العوائل المتجمعة في باحة المسجد، وأترك لكم تخيل ما رأيت في دورة المياه النسائية، ولكن كما يقول العراقيّين «شلّه واعبر». غسلت وجهي في وسط الضجة، وبدأت أراقب عوائل المنكوبين المغلوبين على امرهم، ووداعهم لأصدقاء المصير. رأيت من خلال أسوار المسجد باصين سياحيّين واقفيّن لنقل العوائل المتعبة الى مصيرها الجديد. بقيت واقفة في مكاني أرقب حركة النساء بعباءات سود والرجال المكسورين متوجهين نحو الباص. ودّعت وجوهاً لا أعرفها، وبعضها تعرفت عليه فقط ليلة البارحة. صعد المسافرون وأُغلقت الأبواب كي يرحل المنفيون الى مكان مجهول، تاركين خلفهم ذكرى أليمة لمحطة المرور «خسروي».

رأيت والدتي تجلس مع النساء الباكيات، يتبادلن الحزن السماوي الذي هبط عليهن دون سابق إنذار. بدا لي حزن والدتي أزلياً. كانت تحلم بحياة بسيطة بعيدة عن الجاه والثروة، تحلم بوجودها الإنساني وعائلتها التي تحمْلت الكثير من أجل أن ترى حلمها يتحقق، ولكن تحوّل كل ذلك إلى كابوس أسود يلتهم كل ما بنته. سرعان ما صار الدمع رفيقا لأمي، وهي تنتظر المعجزات بقلب أتعبه الزمن والحزن. أحياناً كنت احاول التقليل من حزنها على أختي المتزوجة، ولكنها كانت متعلقة جدا بأختي بأطفالها، فلقد كانت أمي تفرح كثيرا عندما ينادونها بكلمة «بيبي». كانت من عادة أختي المتزوجة أن تترك أطفالها في رعاية والدتي، كي تذهب لعملها في كلية العلوم. وفي يوم التهجير كان الأطفال في دارنا، كانوا يحسون بشيء من التغيير إذ كان البيت هادئا على غير عادته، ولم يجدوا الضحك واللعب معهم، الذي تعودوه. الأطفال لم يفهموا ما يحدث، ولكن عيونهم البريئة شاهدت صوراً أليمة في بيت جدهم. عند قدوم باص التسفير كان الأطفال يبكون لبكائنا. وفي زحمة البيت ومن كثرة الناس الذين توافدوا، كانت خالة أبي، وهي صديقة الوالدة تسكن قريباً منا، من المودعين الباكين، فأخذت مسؤولية رعاية الأطفال على عاتقها وسط صراخ وبكاء لوداع الأحبة الصغار، وهذه كانت آخر مرة ترى والدتي أحفادها.

تناولت الفطور الصباحي على مضض وبإلحاح من والدتي، وتحدثت قليلاً مع اخواتي المتعبات وشعور الخيبة والالم كان يلازمنا، إذ ما زلن تحت وطأة صدمة ما حدث في الامس. كانت هناك امرأة في الأربعينات من عمرها من مدينة كربلاء على ما أظن، قد وصلت قبلنا في نفس يوم تهجيرنا. كانت في الليلة الماضية تضع «الفوطة» العراقية على رأسها، متفادية الضوء الذي أطفئ في الصالة قبل منتصف الليل. بعد رحيل القافلة وزّعت علينا الحجية، كما أسميتها حينذاك «الكليجة» وهي تقول» حلّوا حلكّم (أفواهكم)» وكان الشاي مرافقا للكليجة، ياه كم هو كريم شعبنا حتى في أقسى الأوقات!

المكان بدا بعد رحيل شركائنا في المنفى أوسع من قبل، ولكنه ليس نظيفا، بعد ذلك جاءت (الحجية)، وتحدثت مع الموجودين بأدب، إن علينا أن نأخذ جزءا من المسؤولية بتنظيف وترتيب المكان حتى المرافق الصحية، فوافقنا على ما قالته. وفي

أقل من ساعة كان المكان نظيفا. هذه المرأة الرائعة التي انتشلتنا جميعا من أحزاننا وكآبتنا وضياعنا، وحّدت صفوفنا وأعطتنا شعورا بالمسؤولية، كي نحوّل هذا الكم الكبير من الأحزان الى عمل. يومها أدركت دور المرأة العظيم ابتداء من التفاصيل الصغيرة اليومية وصولا الى الأحداث المفصلية في التاريخ.

بعد حملة التنظيف التي بادرت الحجية الرائعة بتنظيمها، جاءت عربتا جيب عسكريتان محملتان بضيوف جدد. رأيت والدي يثب كالأسد، ومعه الشباب، للتعرف على القادمين الجدد، والكل يمني نفسه بأن يكون القادمون جزءُ من أهله او معارفه. ولكن هيهات. كنْا مع أصدقائنا (بيت أم رضا) نتكلم أو نبكي على حالنا، وأحياناً أخرى نضحك رغم المأساة. مِن القادمين الجدد أتذكر، عائلة من الجنوب مكونة من امرأة ناهزت الخمسين من عمرها، مع زوجها وعائلة ابنها. المرأة كانت ممتلئة وتغطي جسدها بعباءة وتحتها «الفوطة والجرغد». لم تكن تبكي، وكانت بلكنتها الجنوبية تكرر لي بأنهم ليسوا ايرانيين، وجنسياتهم الرسمية تثبت ذلك. كانت بسيطة جداً وطيبة مثل كل نسائنا. كانت تطلب مساعدتي بأن ترجع ثانية الى بيتها، معتقدة أن لي تأثيرا في ذلك، فأفهمتها بأني مثلها، وقد يبدو الرجوع محالا، فتمتمت بكلام يعبر عن عدم قناعتها بقولها «جا شنهي المصيبة».

عند الغداء أكل الجميع خبزا وجبنا وخيارا، ما عدا والدي الذي بقى مستمرا على إضرابه عن كل شيء. بعد الغداء ذهبنا نحن النساء الى الصالة، وحصلنا على قسط قليلاً من الراحة ولربما النوم على همسات حديث الزائرين الجدد. وعند الساعة الرابعة تقريبا جاءت عربتا جيب عسكريتين محملتان بـ«البضائع البشرية غير الصالحة للاستهلاك» من العراق. مرة أخرى ركض الجميع للاستقبال الإنساني، ومثل المرة الأولى رجع والدي خائبا، الأمر الذي زاد من حزنه. غادرت عربتا الجيب، وبعد حوالي نصف ساعة عادت واحدة من العربات، وكانت أختي «سجواء» أول النازلين منها. غمرتنا الفرحة جميعاً، وأحطْناها بالحبِّ وبالأسئلة عما جرى لها. كانت أختي قوية، وقالت أنها لم تخف من رجال الأمن لأنهم جبناء، وقوتهم في سلاحهم فقط. كانت لحظات جميلة بالتحام العائلة ثانية، لتشاركنا أختي وجبة العشاء، متحدثة عن قصة خروجها من بلد الحب والرعب، ونحن لها منصتين ونحمد الله على سلامتها.

بعد العشاء فتح أحد الشباب الراديو الذي كان معه، وكان يبث أغنية «حكاية غرامي» للمطرب فريد الأطرش، ليبدأ الشباب والشابات بالتجمع حول الراديو، ولنذرف دموعنا بشكل هادئ. كان هناك رجل ايراني من حراس المسجد، ينظر لنا باستغراب. كنا جميعا نعبّر عن أشجاننا، وفجأة رأينا الرجل ينخرط معنا في البكاء عندما وصلت الأغنية الى المقطع الاخير «ما تفرئيش بقلوب بتحب» الى «يا تعوديني على الحرمان يا ترجعيلي ليالي زمان»، ليصبح البكاء بصوت أعلى، والرجل الايراني بدأ يضرب على رأسه، وبعيون باكية كنا ننظر اليه باستغراب. بعد ذلك فهمنا أن الرجل قد سأل أحد الشباب، باللّغة الفارسيّة، لماذا يبكون؟ ولصعوبة التعبير عن اللحظة وعدم معرفته اللغة، قال للحارس أن سبب البكاء إمام حسين... إمام حسين»، ففهمنا لماذا بكى الرجل وضرب رأسه بيديه. ضحكنا على الموقف، وليس على الرجل الطيب، فبسبب اختلاف اللغة حدث ذلك الموقف، وفيه دخل الفنان فريد الأطرش عالم المنفى من أوسع أبوابه.

5

17–5–1980: مسجد خسروي و«يابسة على تمن»

كانت أختي «سجواء» والعائلة المهجّرة التي وصلت معها آخر الوافدين من الوطن. بعد وصول «سجواء» عم الهدوء النسبيّ بين افراد العائلة، وخصوصاً الوالد الذي توقف عن العصبية المفرطة، ورغم حزنه لتلك النكسة التي زُج بها أبناؤه، وشعوره بالمسؤولية وقلة حيلته. بدأ يتكلم معنا ويحاول أن يضحك، ولكن حزنه عميق جدا، وكنّا نلمس ذلك ونتفهمه. بعد سماعنا أغنية الفنان فريد الاطرش بدأت الشابات والشباب بالتعرف على بعضهم البعض بشكل أكبر، وكان الحديث، رغم الوضع المأساوي، جميلا. وتفتحت الحرية المخنوقة في بلدي أشعاراً وانتقادا صريحا للنظام. البعض التزم الصمت خوفاً على نفسه أو عائلته، وكان هناك تفهم كبير لتلك الحالة لأن بلدنا الحبيب أصبح بلد رعب وخوف حتى من أقرب الناس، وانعدام الثقة كان أكبر ظواهر الخوف وتداعياتها. في المساء دخلنا الى الصالة ثانية لغرض الاستراحة، تاركين الرجال يتحدثون، وكان الشاي والسجاير والحديث عن الوطن متاعهم الّليلي.

احسست أن الجميع لديهم أمل بالرجوع الى الوطن، لذلك كانت متابعة الأخبار من جهاز الراديو، الضعيف القدرة على البث، وطرح الأسئلة على القادمين الجدد مهمة جداً، ولكن للأسف لم تكن هناك أية أخبار، الأمر الذي جعل الشعور بالضياع أكبر والشعور بفقدان الهوية أعمق. عندما دخلنا الصالة أخبرونا بما سيكون من إطلاق النار ليلا، كي لا نفزع منه. يومها علّقت المرأة القادمة من الجنوب والتي ذكرتها سابقاً «جا ليش تخافون احنة متعودين عليه»، وبهذا التعليق أدركنا أننا مغيبون عما يحدث في البلد. كانت الصالة في تلك الّليلة أقل ازدحاماً مما كانت

عليه ليلة البارحة. جلسنا مع أصدقائنا (بيت أم رضا)، كانت افكارنا متقاربة جداً، خصوصا نحن الشباب، صار ذلك سببا في توطيد اواصر الصداقة فيما بيننا منذ البداية. تحدثنا نحن الفتيات عن الماضي القريب وعن ما تركنا خلفنا من احبة في الوطن وعن خوفنا عليهم من قسوة النظام التي كانت معروفة لدى الجميع. افترشنا الأرض قريبين من بعضنا البعض، واطفئت أضواء المسجد إعلانا للنوم ولكوابيس جديدة. كان هناك حديث هامس بين الموجودين في الصالة واحياناً بكاء مرير من بعض النسوة، او بكاء الاطفال، ولكن مع مرور الوقت يجيء ملاك النوم لينشر ظله على تلك النفوس المتعبة. بعد ساعتين أو أقل بدأت رحمة الله ثانية وكانت (الصعادات) النارية كما أسميناها، هذه المرة كان اطلاق الرصاص من قبل الطرفين أكثر حدة، وكان الصدى قد أفزع الصغار وهز جدران المسجد، وكانت النساء والأمهات يرددن سورا قرآنية وأدعية كي يسلم الله الجميع من الأذى. بعد انتهاء «الاحتفال اللّيلي» المخيف وتوقف اصوات المناوشات، خلدنا جميعا للنوم الذي تخللته الكوابيس المرعبة.

استيقظنا في الصباح على أصوات وهرج في صالة المسجد، اذ كالمعتاد وصل «ضحايا» جدد من العراق ومعهم قصص جديدة مؤلمة عن الذي جرى لهم وقت التسفير وقسوة النظام عليهم. البعض من هذه العوائل أُعدم او سُجن اولادهم من قِبل النظام، والاسباب كانت لانهم يساريون او اسلاميون او بحجج اخرى، وكان البكاء هو المتنفس الوحيد للجميع. بعد تناول الفطور قمنا نحن الشباب والشابات بتنظيف البيت بنفس الأسلوب السابق في اليوم المنصرم، وبهذا رأينا ابتسامة الرضى على وجه (الحجية) الطيبة. بعد السؤال عرفت أن الحجية من بيت الجواهري، وأن زوجها قد سُفّر مع زملائه التجار في غرفة تجارة بغداد. لقد كنت أكثر صحواً هذا الصباح، فانتبهت الى وجود الأسلاك حول المسجد. لم تكن أسلاكا وإنما سياج ذو أعمدة حديدية يفصل المسجد عن خارجه، وكانت هناك حديقة صغيرة في المسجد، فيها ثلاث أشجار تعطي ظلالاً كان الشباب يجلسون تحتها، كذلك كانت هناك حنفية للماء مع حوض صغير قريبة من الاشجار. لاحظت أن الشباب راحوا يقايضون تصريف الدينار العراقي بالتومان (العملة الايرانية). بعض الشباب كانوا

يسبّون «صدام» من داخل السياج، والجانب الاخر خارج السياج يسبّون الخميني زعيم ثورتهم (الثورة كانت في بدايتها)، كان هذا المشهد مضحكا حينها وشر البلية ما يضحك. كان أخي الكبير كثير البكاء والحزن على ولده الذي حُرم من احتضان طفولته، فكان إخوتي والوالدة يحاولون التخفيف عنه، وخصوصا الوالدة التي كانت تعطيه الأمل في رؤية وليده، وإذا اختلت لنفسها تبكي لبكائه، وتستنجد بالخالق أن يجمع الطفل مع أبيه.

توافد المهجّرون العراقيون المتعبون من عناء السفر القسري والمطرودون من بيوتهم ومن وطنهم العراق الحبيب، والشباب يساعدونهم في نقل امتعتهم ومساعدة كبار السن، وكذلك يحاولون تخفيف المصيبة عنهم والترحيب بهم بتقديمهم الشاي. كان المهجّرون الجدد يتحدثون عن همجية التهجير التي اصبحت تتشابه بعصابات مجرمة، وتعامل رجال الامن التعسفي معهم وتهديدهم بالسلاح وكذلك سرقة اموالهم وذهبهم ومنعهم من اخذ ما يحتاجونه من بيوتهم. البعض منهم قد فُصل عن عائلته وتركها لمصير مجهول. كان من ضمن المهجّرين شابات وشباب مع عوائلهم، تعرفنا على البعض منهم (عائلة ام قاسم) الذين تصادقنا معهم. الجميع كان يبكي، الجميع يحاول مواساة بعضه البعض. لم يكن ممنوعاً علينا أن نخرج خارج المسجد، وهذا لم نكن نعرفه سابقًا، وربما لم نسأل لعدم وجود الرغبة للخروج من مسجد الأحزان. لذا قررنا هذا اليوم أن نخرج مع إخوتي وأصدقائنا بيت ام رضا، كي نروّح عن أنفسنا ونبتعد قليلاً عن البكاء والصور المؤلمة والجو الخانق الذي يفتقد لأبسط افاق المستقبل. ذهبنا مشياً الي مركز القرية الصغيرة للتعرف على بعض مظاهر الحياة في البلد المنقذ، وهنا شاهدنا جزءا من القرية التي كانت شوارعها معبدة وعريضة ومشجّرة بشكل جميل، وكانت فيها ظواهر التقدم مثل التلفون العمومي والاسواق العصرية وأشياء أخرى لم نرها سابقا في بلدنا، بلد البترول، الفقير بكل شيء حتى بالإنسانية.

تجوّلنا في سوق خسروي محاولين الهروب من النقاش فيما بيننا. رأينا أسعار البضائع ثم قارناها بأسعار العراق لمجرد قضاء الوقت ومعرفة مستوى المعيشة. اشترى أخي الكبير «أبو علي» حقيبة زرقاء داكنة ذات جيوب كثيرة، ستكون لها

قصة خاصة، وبعد جولة متواضعة في سوق قرية خسروي الصغيرة رجعنا الى بيت العبادة وملجأ المظلومين. رأينا عند رجوعنا الى المسجد إنّ (الحجية) مشغولة، وأدركنا من خلال ما شاهدناه، أنها تحاول الطبخ للجميع، ويساعدها بذلك اغلب الموجودين في باحة المسجد، وأصبحنا عند دخولنا جزءا من المساعدين. رأيت الحجية قد لفْت عباءتها على خصرها، و«الفوطة» العراقية على رأسها فذكّرتنا بالمجالس الحسينية. تم طبخ الفاصوليا اليابسة والرز بالقدور الحسينية المتوفرة في المسجد. كانت أمي والنساء الأخريات يساعدن في الطهي، ولكن القيادة كانت للـ(الحجية). المنظر ذكّرنا بأيام عاشوراء، لذلك كان اليوم يوماً عاشورائياً بامتياز. بدأت رائحة الفاصوليا التي طُبخت بدون لحم، وبعدها رائحة الرز، بتحريك شهيتنا والابتعاد قليلاً عن الجبن والخبز (الوجبة الدائمة). كان العشاء فعلاً عاشورائياً لذيذاَ، أكله الجميع بشهية كبيرة رغم التعب النفسي. من المضحك أنه في المراحل الأخيرة من الطبخ بدأ أطفال القرية يجلبون طاساتهم أو قدورهم معهم متصورين أن الطبخ كان نذراً حسينيا، ولكن نساءنا لم يرجعوهم خائبين، حين أعطوهم القليل من الأكل المطبوخ مع الخبز.

وهكذا دخلت «اليابسة على التمن» لتكون من أطيب أطباق المنفى.

6

17/18‏-5-1980: وداع خسروي و... «عبود يغني»

بعد العشاء بدأ الشباب بغسل القدور والصواني التابعة للمسجد، وبتنظيف الأرض مما سقط عليها من بقايا الطعام، بعد إطعام الأطفال. وكانت تسود حالة رضا بسيطة بين المتواجدين، وخصوصاً عند الأطفال الذين تمتعوا كثيراً بتلك الوجبة الحسينية. هذا اليوم كان تعداد الوافدين من العراق كبيرا. بعد وجبة العشاء بدأنا بالتعرف على قصص جديدة مؤلمة من الوطن الذي يُهجّر أبناؤه بدون ذنب، ويضعهم أمام هاوية التشرد والضياع. كانت اغلب العوائل الواصلة من البسطاء، وبعضهم مفجوع لتسفيره لأنه ليس له عِرق ايراني أو عائلة في ايران. تكلمت مع إحدى الشابات فذكرت لي أن والدها معتقل منذ ستة أشهر، وأن حالتهم مزرية لأن الناس، ومنهم الأهل والأقارب، كانوا يخافون على أنفسهم من زيارتهم أو مساعدتهم كي لا يصبحوا موضع شك. كانت تبكي وتقول حتى في المدرسة انفض عني أصدقائي، والمدرسات يعاملنني بقسوة، إضافة إلى أبي الذي نجهل مكانه ولا نعرف مصيره. كانت تحكي بلوعة عن أبيها المسجون ولربما المدفون في مكان مجهول، ولكن رغم بكائها كانت تعطيني إحساساً كبيراً بأنها كفء لتحمل مسؤولية عائلتها. واسيتها، وفي قلبي دعاء صميمي للخالق أن ينوّر طريق تلك الفتاة المظلومة، وأن تنجو عائلتها من الضياع، ووالدها من غياهب سجن الكافرين.

بعد الأكل والتنظيف والحديث مع العوائل الجديدة المشردة، دخلنا مع مجموعة من النساء إلى الصالة للاستراحة. في هذه الأثناء سمعنا لغواً وكذلك تكبيرا وصلوات وأهازيج، لا أتذكرها، خارج الصالة. تسابق البعض منّا، يدفعه الخوف أو الفضول، لمعرفة ما يجري. وهنا رأيت شبابا كثيرين في ساحة المسجد، الذي كان يغص بهم وسط التكبير. رأيت باصاً واقفا أمام المسجد، ولم تكن سيارة الجيب العسكرية

موجودة. بعد هدوء الوضع نسبياً حدثنا أحد إخوتي بالحكاية. ملخصها إن هؤلاء الشباب كانوا محتجزين في سجن أبي غريب، بعد أن تم تسفير عوائلهم، إذ كان النظام لا يسمح للشباب والرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الـ16 سنة ولغاية الـ50 سنة بالتسفير مع عوائلهم، بل يحتجزون في السجون. هؤلاء الشباب كانوا محتجزين ضمن مجموعة تقدر بحوالي300 شخص، في ثلاثة عنابر في سجن أبي غريب، حوالي الشهرين، تحت أقسى الظروف المعيشية والنفسية. هؤلاء الشباب كانوا يطالبون بإلحاقهم بأهاليهم، ولكن سلطة الدولة لم تسمع نداءهم. وفي يوم 12/ 5/ 1980 قام هؤلاء الشباب بإضراب عام، وكسروا أبواب السجن، بعد إثارتهم من أحد جلاوزة السجن بهتك أعراضهم. وكان إضراب الشباب كبيرا لأنهم خرجوا الى ساحة السجن، مطالبين بحريتهم وإخراجهم من جحيم السجن. اتفق الشباب فيما بينهم «إما الموت وإما الحياة، ولا تراجع». أخاف إضراب الشباب حينذاك النظام، وهذا يدلل على عجزه عن مواجهة الشعب، ومحاولته كسر إرادة الإنسان فيه. الخوف كان يكمن بانتقال الإضراب من سجن أبي غريب الى سجون أخرى. لذلك قرر النظام ترحيلهم الى ايران في أيام مختلفة، 14و17و18 من الشهر الخامس، على شكل وجبات وأعطوا لكل شاب (25) دينارا. كان عدد الشباب الذين وصلوا خسروي يتراوح بين ثلاثين وأربعين شاباً على حسب تقديري، أغلبهم أكراد فيلية. وكان لهؤلاء الشباب الفضل الكبير بتسفير العوائل بكاملها، وحسب ما قيل لي من تاريخ 14 الى تاريخ 18 من الشهر الخامس1980 كان التهجير دون احتجاز الرجال، وهذا فضل من الله ومن الشباب أن يكون إخوتي خارج سجون القتلة. لقد فرحنا جميعاَ لهؤلاء الأبطال بنجاتهم من أيدي أزلام الطاغية ومن سجون الإرهاب. هذا الإضراب سجله شباب أحرار، ولكنه للأسف لم يؤرخ في تاريخ أعمى ينسى تلك الأحداث. تلك الليلة كان فرحنا بنجاة الشباب كبيرا، وكأن عشاءنا هو ايفاء نذر من أمهاتهم المعذبات على مصائر أولادهن. تلك الليلة كان المكان ضيقا للجميع، لذلك فضل البعض من الشباب الوقوف أمام المسجد لفسح المجال ولتداول قصة كسر سجن أبي غريب المخيف.

في الصالة كانت فتاة صغيرة تبكي، ووالدتها تحاول أن تخفف عنها، وبعد السؤال

عرفنا أن الطفلة تشكو من ألم بأسنانها. وهنا جاء دور أختي طبيبة الأسنان، وبدأت بفحص فم الطفلة على مرأى من الحاضرين. أختي كانت تحمل بعض الأدوية معها، من ضمنها المسكنات والمضادات الحيوية (صيدلية يدوية). بعد الفحص أعطت للطفلة المسكن ودورة المضادات الحيوية. وبعد ساعة كان الألم قد خفّ، وبدأت والدة الطفلة بالشكر والامتنان. ومنذ تلك اللحظة أصبحت أختي دكتورة مسجد خسروي، كل من عنده (وجع راس) أو غيره كان يستشير الدكتورة.

كانت في الصالة أيضاً امرأة كردية فيلية في بداية الثلاثينات من عمرها، تلبس العباءة، ومعها ثلاثة أطفال أصغرهم عمرا يبلغ أربع سنوات. كانت المرأة نحيفة جداً وتلبس الأسود، سألتها عن رحلتها فقالت: «أني فرحت، وعندما جاءوا لتسفيري هلهلت»، فقرأتْ المرأة علامات التعجب على وجوهنا، ثم أضافت بأن زوجها قد أعدم قبل ثلاث سنوات لأنه شيوعي، وكان هو معيلهم الوحيد، لذلك انتقلت من بيتها السابق الى غرفة للإيجار، وحاليا كانت تسكن على حد قولها في» سرداب نزيزة والناس تتعطف علينا، والأمن ما عايفتنا الحمد خلصنه من النزيزة والظلم». كلامها كان مؤلماً ومؤثراً. تفهمنا (هلهولتها) وفرحها بالخروج، ولكني تألمت عليها لأنها دُفعت الى المجهول مع حلمها في أن تعيش حياة حرة هنيئة، وتمنيت من قلبي أن لا يكون مصيرها «نزيزة «أكبر.

كانت الصالة مزدحمة هذه الليلة، ورجعنا للنوم جلوساً. قررنا، نحن البنات، أن لا ننام إلا بعد انتهاء المناوشات النارية. جلست بجانب أختي، وقلت لها ملاطفة بقدرتي كطبيبة بيطرية على معالجة الناس، فجاوبت بمزح أنت بيطرية، اختصاصك البقر والحمير، فذكرتها بمهرجان جامعة بغداد السنوي عام 1976 عندما لعب فريقنا معهم في كلية طب الأسنان وربحنا، ولكن عندما حضروا للعب في كلية الطب البيطري، كان مشجعو فريقهم ينشدون «لا تذبحون البقرة الا بأمر البيطرة...» فما كان من مشجعي الفريق البيطري إلا الجواب السريع» طب الاسنان اهلا بيكم داوونا ونداويكم». ضحكنا قليلا على الذكريات القديمة مع أصدقائنا للتخفيف من حالة الضجر، وأطفئت الأنوار. كان الأطفال قد أخلدوا الى النوم بعد يوم متعب لتلك الزهور الرقيقة التي زجت أمام هاوية التشرد التام. مرّت تلك

الّليلة شبيهة بالليلة الأولى نتيجة الازدحام وبكاء بعض النساء والجو الخانق وعرق الأجساد الآدمية. تلك الليلة كان النوم صعباً، وكان الاشتياق الى النوم في أسرّتنا يبدو حلماً بعيد المنال. ثمّ ساد ذعر كبير بسبب الإطلاقات النارية. وبعد انتهاء المسرحية المعتادة خلد بعضنا الى النوم قليلا، واستيقظنا مبكرين لأنهم أخبرونا أن الباصات ستأتي في الصباح، فجمعنا حاجياتنا ووضعناها وسط المسجد تأهباً للرحيل. كان الشاي والخبز مع الجبن قد وُزع على الحاضرين، وكانت أرواحنا وأجسادنا مرهقة للغاية.

عند مجيئنا الى مسجد خسروي كان هناك رجل ايراني في مطلع الثلاثينات من عمره من مديري المسجد، طويل القامة معتدل البنية ذو لحية سوداء. كان انساناً رائعاً بما قدمه للمشرّدين من مساعدة. كثير العمل قليل الكلام، يبكي لبكائنا، يرفع يديه إلى السماء أن يفك كربتنا ويقلل من أحزاننا. كان يقف مع الشباب يمازحهم بمفردات عراقية قد تعلّمها من الوافدين، وكانت لهجته الجميلة ووجهه السمح يشعران الشباب بأنه واحد منهم، وعلى ما أذكر كان اسمه «رمضان». كان الرجل الطيب موجودا معنا لاستقبال الوافدين وتوديع المغادرين، تاركاً عائلته من أجل مساعدتنا. كان يشتري الحليب للأطفال من ماله الخاص، حيث كان له دكان يذهب اليه في حالة الضرورة، وفي الغالب يترك دكانه لصانعه (العامل) وهذا كان إثباتاً على أن الإنسانيّة غير مرتبطة بقومية أو ديانة أو فكر معين.

وصَلت أوّل قافلة تتكون من عائلتين كبيرتين، لذا حاولنا أن نفسح مجالاً للضحايا الجدد بالابتعاد عن الصالة، وأن نترك ساحة المسجد لهم. كانت الوجوه مليئة بالحزن كسابقتها، وعدد الاطفال كبير جدا. أخي الكبير كان يلاعب الأطفال، وكأنه يعوض حنان أبوته لابنه. كان أخي متيماً من الصغر بحب الأطفال، وها هو يحرم من التمتع بأول وليد له. ننظر اليه بإشفاق، ودعاؤنا أن يلهمه الله الصبر على فراق ضناه وأن يلتقيه ثانية بأسرع وقت.

الموعد قد تأخر والازدحام قد كثر والصبر قد نفذ. التعب قد هدّنا، وقدرتنا قلّت، والأمل بالرجوع قد اضمحل، فهذا اليوم سيكون الفراق الحقيقي عن وطن أحبيناه،

وتركنا طفولتنا وأحلامنا رهينة بيده، وبيد القدر الذي بدا لنا قاسيا على المشردين. أكلنا وجبة الغداء الأخيرة في مسجد خسروي دون شهية. فجأة، لاحظنا وصول باص سياحي الى باب المسجد، ولا ندري من سيكون راكبوه فمن المفروض أن يصل باصان لنقل ضحايا التشريد القسريّ.

كان الجميع ينتظر أن تُقرأ أسماء العوائل التي سترحّل الى مناطق أخرى أكثر أماناً. كان اقتراب الرحيل كسيف ذي حدين، من جهة هو فراق خسروي باعتبارها المحطة الأقرب للوطن والسفر الى أمكنة لا نعرفها ومصيرنا مجهول، ومن جهة أخرى هو أننا نريد بعضا من الهدوء والاستقرار في دنيا الله الواسعة، لأننا تعبنا من الزحمة والبكاء، ورغبنا أن نجتمع كعائلة تحت سقف واحد، ولو كان خيمة. بعد قليل من الانتظار بدأوا بقراءة أسماء العوائل التي ستركب الباص الأوّل، فكانت عائلتنا وعائلة أصدقائنا، وأربع عوائل اخرى أيضاً، أغلبهم من الشباب. كانت ضمن هذه العوائل عائلة من مدينة الثورة (بيت أم قاسم) التي أقام أبناؤها الشباب صداقة مع إخوتنا. الشابات والشباب قرروا أن نجلس معاً في آخر الباص وأن يجلس الكبار والأطفال في بداية الباص. في تلك الاثناء وصل الباص الثاني لنقل العوائل الأخرى، لأن المسجد بدأ يختنق بزائريه. وهنا بدأ الوداع الحزين مع الآخرين، وكان أيضاً فراقاً صعباً. عائلة (الحجية) العزيزة وصديقتي الحبيبة من الجنوب كانوا في الباص الثاني. بكينا لوداع (الحجية) التي علمنا لاحقا أن وجبة «اليابسة على التمن» كانت تبرعاً منها، وباقي الوجبات الغذائية من الحكومة الايرانية. عندما انتهينا من توديع الموجودين والقادمين الجدد وأصحاب المسجد، أخذنا أمكنتنا في الباص وسط البكاء وكلمات الوداع والدعاء لنا بالسلامة، مثلما ودّع الشباب الأخ الإنساني الطيب رمضان بمحبة وامتنان. وهنا حدث شيء مزعج في البداية، ومضحك في النهاية. فبعد ان وضعنا ممتلكاتنا وجلسنا في الباص، منتظرين مسيرته أنزلونا من الباص وأنزلت حاجياتنا منه، وبعد دقائق أشاروا لنا ثانية بالصعود، ومرة أخرى أشير الينا بالنزول، وعلى هذا المنوال أنزلونا سبع مرات. ثم بدأت تعليقات الشباب الساخرة مثل(ديطلّعون حيف الجبن) تذكرت حينها تمثيلية «عبود يغني» التي مثّل فيها الفنان القدير يوسف العاني، وعلى غرار

قول عبود سائق الربل «عمي عغبنجي صعد السقف، عمي عغبنجي نزل السقف»، فبقينا نصعد وننزل، دون معرفة السبب، ولكن في النهاية عرفناه. وأخيراً جلسنا وتحرك الباص، وبذلك دخل عبود العربنجي ليكون من أطرف حكايات المنفى.

7

18/19-5-1980: الطريق إلى مخيمات أصفهان

بعد أن جلسنا في الباص، وبعد عناء ليلة طويلة، وتعب الصعود والنزول من باص الأحزان، ودّعت عيوننا وقلوبنا مسجد «خسروي» لنبدأ رحلة المنفى الحقيقية. لقد عرفنا سبب صعودنا ونزولنا من الباص، وهو أن الإتفاق مع شركة النقل ومنظمي رحلات المهجّرين، هو أن يتوجه الباص الأوّل الى مدينة «جهرم» ويتوجه الثاني الى مدينة «اصفهان» وكان هناك اختلاف في الأمر بين شركة النقل ومنظمي رحلات المهجّرين، كانت نتيجتها أننا توجهنا الى «اصفهان» عوضاً عن مخيم «جهرم» البعيد، فكان هذا المخيم من حصة العوائل الاخرى.

كان الباص السياحيّ واسعاً ونظيفا، ومريحا نوعا ما. جلسنا نحن الشباب في النصف الاخير من الباص فيما جلس كبار السنْ والاطفال في المقدمة. كانت عيناي تنظران الى اليمين والى اليسار، محاولة توديع وطني الحبيب الذي أصبح سجناً كبيرا لشعبنا المنكوب والمسلوب الارادة نتيجة بطش النظام الاجرامي، وصار غصة لمن أُبعد عنه. لطاما كنّا نحن المهجّرين جزءاً لا يتجزأ من هذا الشعب، حاولت سلطة الدولة القمعية بتره بطريقة غبية. وللأسف لم تكن المأساة مقتصرة على المهجّرين فقط، بل كانت مأساة الشعب العراقي بأسره، وبهذا يصبح الحزن والدموع والخوف القاسم المشترك للذين هُجّروا، وللذين بقوا فيه. كنت جالسة بجانب احدى اخواتي، قريبة من زجاج النافذة المطل على الطريق، ابكي فراق الوطن والاحبة والاصدقاء. تركت لروحي العنان أن تتخيل ما حدث بعد رحيلنا لأختي واطفالها. في يوم التسفير كان لدي امتحان عملي في مادة الجراحة على ما اذكر، كنت يومها طالبة في كلية الطب البيطري ببغداد في المرحلة النهائية للامتحانات، تخيلت زملائي الثلاثة

في مجموعة الامتحان ينتظرون مجيئي، فهل وصلهم خبر تسفيري أنا وعائلتي؟ ما كان رد فعلهم؟ هل يعرفون بما امرّ به الان؟. كان احساسي بالاشمئزاز والغضب لما حدث لنا يزيد من تعبي النفسي. وان رفض فكرة التهجير في قرارة روحي تكبر واسئلتي ومحاوراتي الذاتية تكبر معها. لا ادري بمن استعين في ظل هذه الكارثة!!

آه يا خسروي، جئناك على مضض، يدفعنا الخوف، ثم أصبحت نقطة الابتداء لعوالم مجهولة. فالخوف في بلادنا لا ينتقل بالعدوى وحسب، بل بالجينات، يولد معنا ليكبر ويترعرع ليصبح أكبر منا، نغدو ظله، ونصبح كائنات مسيرة، مسلوبة الإرادة. كم مِن أحقاب مظلمة مرّت تحت ظلال الخوف؟. الخوف في بلادي جعلنا نختبئ من أنفسنا، نخافها، نخاف أن نراها في مرآة ذاتنا، لأننا نخاف. نخاف من الظلام، من الكلاب، من الضحك، من الكلام، ومن كل شيء. لأننا نخاف الحياة. عندما تخيلنا أن الخوف ينتقل بالجينات كان علينا اكتشاف دواء للشفاء منه، ولكننا على العكس حاولنا تبرير وجوده وحافظنا عليه كما تحافظ الأم على وليدها.

آه يا «خسروي» أتينا اليك مهزومين بدون قناع، لأنك أصبحت المرآة، أصبحت الحقيقة. هل تربينا على أكاذيب اسمها الحب، الأخلاق، الإنسانية، الوطن، أم أن الظلم جعل منها مفردات فارغة المعنى؟. في «خسروي» بدأت محاكمات كثيرة للظلم، للزمن الأجرب الذي ولدنا فيه، لأبوينا اللذين أتوا بنا للدنيا دون أن نُسأل أو أن يكون لنا الاختيار، للخالق الذي أزاح وجهه وتخلى عنا، لأنفسنا التي لم تتعلم أن تكون شجاعة وتترك الخوف؟

آه يا «خسروي» ها نحن نفارقك تاركين خلفنا أسئلة كثيرة، أولها من نحن؟ والى أين تسير بنا عربة الزمن المعطوبة؟

سار بنا باص الأحـزان، الجالسون فيه نصف أحياء يتشبثون بقشة النجاة من الضياع، ولربما ينجون من الهوة التي أصبحت بداية الطريق، ولربما يكون الاندثار. كنا متعبين من تلك الأيام السود التي مرت علينا مليئة بالكوابيس وبالخوف من ضياع الامل. لكن ورغم كل المحاورات الذاتية المتشائمة أثبت زائرو «خسروي» بأن لهم القدرة على مجابهة المصاعب بالمحبة وبالمساعدة. وبالرجوع الى إنسانيتنا، تحررنا

جزئياً من الخوف الذي كان يجثم على صدورنا تحت هيمنة الظلم، وهذا كان انتصارا كبيرا بحد ذاته. في خسروي رأيت أهلي، الذين كانوا مغيبين تحت حكم الطاغية، يواسون بعضهم، يحبون بعضهم، يثقون ببعضهم، وتتكسر الحواجز بينهم، ليصبحوا كتلة متجانسة. رأيت طيبة الفقراء ونكران الذات، ورأيت جزءا من شعبي دون قناع أو حارس بغيض.

يسير الباص، فيما كان البعض منا ينظر من النافذة الى شوارع لا نعرفها، والبعض الآخر دخل في عوالم الصمت، وآخرون اختاروا الحديث كي يهربون من كوابيسهم. فيما نحن على هذا الحال وضع السائق كاسيت القرآن الكريم ليبعث فينا الخشوع. كانت التراتيل جميلة، أعطت لبعضنا الهدوء والأمل بأن حقوقنا لن تضيع، وأن هناك زمنا سيعاقب فيه الظالم على ظلمه، والساكت عن الحق على جبنه. آه يا وطني لقد كان الله عز وجل معابد في قلوبنا، وفي الوعي واللاوعي، كان هو الحد الفاصل بين الظالم والمظلوم، بين المرض والشفاء، بين الحب والكره، بين النجاح والفشل. كان دائمَاً معنا ندعوه في كل صغيرة أو كبيرة. في السنة الأخيرة صار الناس يخافون المساجد ويخافون ذكر الله، وأصبح على خطباء وأئمة المساجد التزلف والمديح للنظام، وبدأت الخطب الدينية تأخذ مجرىً آخر، مسيساً لرغبة الحاكم، وهكذا أصبح بيت عبادة الله هو بيت عبادة الصنم.

في هذا الباص المسافر الهارب من القيود، وعلى صحوة للخشوع والأمل، وكأن الله يضمنا بعطفه الكريم ويكفكف دموعنا. استمر مسير الباص براكبيه في الطريق الطويلة، فيما تلاوة القران هدّأت القليل من غضبنا، بل بعثت الهدوء الى أنفسنا، ونام الكثير منا على حلم قد يتحقق، وهو الوطن ولقاؤه ثانية. بعد أربع ساعات توقفنا للمرة الاولى لغرض الاستراحة. الكثير منا أخذ قسطاً ولو بسيطاً من النوم خلال الرحلة، وبهذا تجددت حيويتنا. خلال فترة الاستراحة غسلنا وجوهنا وانتعشت أرواحنا بنسمات عذبة. كان الجميع قد غيّر بعض نقوده للعملة الجديدة، ولكنهم ينفقونها بحذر شديد. السائق ومعاونه وزعا علينا العصائر والكعك، فكنا لهما شاكرين. بعد فترة الاستراحة صعدنا الباص ثانية وفي داخلنا، نحن الشباب، نشاط جميل وإحساس كأننا في رحلة جامعية. الكل منا كان مشغولاً بشيء ما،

حتى جاءنا صوت شجي يغني أغنية «يكولون غني بفرح» للمطرب قحطان العطار. الصوت كان جميلا وقويا، صمت الجميع وانهمرت دموعهم. بهذه الأغنية توحدت أحزاننا، فالبعض يبكي والآخر يغني بصوت خنقته العبرات مع صوت المغني الشاب، وهو أحد أفراد (عائلة أبو قاسم) من سكنة مدينة الثورة على ما اذكر. كان أهالينا يبكون لبكائنا، فكان هذا الغناء الحزين وما تلاه غسيلا للروح المتكدرة. وبعد ذلك انفتحت قريحة الشباب بأغان جميلة مرحة، مثل أغاني فواد سالم، وخصوصاً أغنية» يا عشكنه»، التي بعثت فينا حماس الشباب. وهنا بدأت الأغاني تأخذ محورا آخر مثل أغنية «مكبعة» وأغنية «شدة يا ورد شدة»، باستبدال كلمة «جبهتنه» (الجبهة الوطنية التي جمعت البعثيين والشيوعيين) الى كلمة «جمعتنه»، وأغنية» يا أبو علي»، وعندما كنا نصل الى كلمة «يا أبو علي» تبدأ الأيادي بالإشارة الى أخي، الذي يبادلنا الابتسامة بعين دامعة، شاكراً التفاتة الشباب. الجميع يغني من أعماق روحه وكأنه يريد أن يثبت، رغم سير الباص بالاتجاه المعاكس، أن حب الوطن لا زال فاعلا، وأن الهوية حاضرة ومؤثرة ولن تتبدل. كنت أنهض من مكاني وأرى والدي عليه علامات الرضى من تلك الكلمات والمشاعر الجياشة. السائق ومعاونه كانا مندمجين معنا، فبكيا لبكاء الشباب وضحكا لضحكهم. وختم هذا الفصل الغنائي، لشباب وحّدها الفكر والاحزان، بنشيد «موطني» وقد أنشده الجميع بأعمق ما عندهم من عشق وقوة ارتباط بالوطن الحبيب.

وهكذا دخل نشيد موطني ليكون من أجمل ألحان المنفى..

19-5-1980: مخيم اصفهان.. وشعب «إيراق»

بعد الفصل الغنائي، التلقائي والمعبر عما نكنه من ارتباط وحب للوطن رغم ابعادنا عنه قسراً، ساد صمت حزين بيننا، لندخل في عالم الألم والضياع ثانية. وزّع علينا السائق ومعاونه خلال رحلة العذاب تلك العصائر وبعض سندويشات الجبن، وبعد وجبة العشاء نام الكثير من راكبي الباص على حلم مجهول الهوية. دخل الليل علينا ونحن في الطريق الى المخيمات. وبعد رحلة طويلة، توقفنا خلالها مرتين، وصلنا منفانا الجديد في حوالي الثانية والنصف صباحاً. عندما دخل الباص الى المخيم المظلم نوعاً ما، لأن الوقت كان متأخراً، كان الجو شديد البرودة، وكنْا نرتدي الملابس الصيفيّة، فالجو في بلدنا كان صيفاَ، وكانت الحقائب والأغراض التي أُنزلت من الباص مرمية واحدة فوق الأخرى، لذا كان صعبا أن نصل الى الملابس. كان جسد أخي الصغير، منصور، يرتجف من شدة البرد، فأسرع والدي وأخذه الى صدره كي يمنحه بعضاً من الدفء، وعيونه تدمع على أخي المدلل لأنه كان «آخر العنقود» كما يقال.

استلمت العائلات بطانيات على العدد، ورافقونا الى خيامنا التي ستكون سكننا الجديد. عند مشاهدة الخيام بدأ شعور الخوف من البرد والمستقبل الذي من بدايته يبدو حالكاً داكناً كلون الخيام والليل. أوّل معلومة أراد الجميع معرفتها هي وجود الحمامات لغرض الاستحمام، وكان الجواب بالإيجاب، لأن مسجد «خسروي» لم يكن فيه حمامات، فالاحتياج للماء وغسل الجسد المتعب والتخلص من أملاحه وخلاياه الميتة كان ضروريا. هناك في المسجد كان غير ممكن أن نلبس رداء للنوم، فكنْا ننام بملابسنا، مثلنا مثل الجميع، وتذكرنا حينها حياة البادية

القاسية وتحمّل الناس لظروف المناخ الصعبة. في المسجد بدلنا ملابسنا مرة واحدة، وغسلناها بالماء ونشرنا بعضا منها تحت الشمس، والأخرى في صالة المسجد، وذلك كان نوعا من الترف مقارنة بالآخرين. هذه الأشياء التي كانت عادية في بيوتنا أصبحت امُنية وحاجة ضرورية، لذا عزم الجميع على الاغتسال بعد الوصول واستلام الخيام ورؤية واقعنا الجديد.

بعد استلام الخيام والبطانيات وفانوس نفطي صغير وقوري (ابريق الشاي) واقداح بلاستيكية لشرب السوائل، بدأنا نحن البنات بدخول الخيمة محاولة منا لتهيئة المكان وفرش البطانيات على الأرض الباردة، حيث كانت الأحجار الصغيرة مؤذية عند النوم أو الجلوس. كانت الخيمة صغيرة لضم عائلتنا الكبيرة، ولكنها أحسن من النوم في العراء، وهنا افتقدنا صالة المسجد لدفئها وعدم قسوة الأرض فيها، ناهيك عن افتقادنا لمنازلنا التي كان حنيننا وفقدانها اليها يزداد مع ازدياد عذاب التشرد.

قسّمنا الخيمة الصغيرة الى نصفين: نصف للشباب والوالد، والنصف الآخر كان لنا مع الوالدة، ووضعنا بعض ملابسنا تحت رؤوسنا عوضاً عن الوسادة. كانت البطانيات قليلة رغم أنها وزعت على عدد الأشخاص، لأننا فرشنا نصفها على الأرض الباردة والنصف الآخر تغطينا به. وكنْا ندفئ بعضنا بعض، كل اثنين أو ثلاثة تحت بطانية واحدة. استخدمنا البطانيتين اللتين اخذناهما معنا من البيت لتدفئة اخي الصغير ووالدي. بعضنا حاول ان ينام، في حين خرج الشباب لتفقد المخيم ومعرفة الأمور الضرورية. نمنا بشكل سيئ بسبب صعوبة النوم على الأرض الصلدة والباردة. نسمع أصوات المهجّرين يتمشون في شارع المخيم، ونحن بانتظار الصبح كي نستحم. استيقظنا مبكرين بعد النوم غير المريح لغرض الاستحمام، وقد نصحونا بالذهاب مبكراً لأن الماء يبرد لكثرة استخدام الجمع الغفير من الناس. المشكلة كانت في عدم وجود المناشف بكمية كافية، لذلك قررنا استخدام ملابسنا المستعملة، واستعمال الجزء النظيف منها كمناشف، ونعطي المناشف للوالد وللشباب، وأخذنا معنا شامبو ايرانيا جاء به أخوتي مع البطانيات. استحممنا بعد مرور خمسة ايام، فكانت كما سميناها حينها» غسلة العيد»، وهكذا ارتاح الجسد من الكم الهائل من الأعباء، وغسلنا ملابسنا بقليل من الشامبو ونشرناها فوق سطح

بيتنا لتجف. أخوتي وأبي استحموا ايضاً في حمامات الرجال. وبعد «غسلة العيد» في الحمامات النظيفة بدأ نهارنا نظيفاً. أخذنا جولة للتعرف على المخيم والأمكنة المهمة، مثل دورة المياه، وللأسف كانت بعيدة عن دارنا، وكانت على عكس الحمامات، سيئة وقذرة لكثرة الاستعمال لهذا الجمع الغفير من الناس، ولضرورتها للبشر فقد كانت شرا لا بد منه.

عند وصولنا المخيم سألنا في الاستعلامات عن بيت عمي وعمتي، وللأسف كان الجواب بالنفي، فحزنا كثيرا، وكنا قلقين عليهم بسبب مصيرهم المجهول. تجوّلت مع اخواتي في المخيم، وعيوننا تنظر لهذا الكم البشري ومتاعبه التي لا أستطيع حصرها، فالأوضاع كانت سيئة من كل النواحي بسبب كثرة الوافدين. خيام تُنصب، أطفال متعبون وبوجوه متربة. الخيم الرمادية الكئيبة، حالة الضياع المروعة وانتظار المستحيل. لا يعرف حياة الخيام إلا ساكنوها الذين أخرجوا من بيوتهم ومن محيطهم بكل همجية وقسوة. ترى العوائل نصفها تعيش أوضاع المخيم، ونصفها الآخر، الرجال والشباب يعيشون في زنزانات لا يعرف مكانها الا الله في عراق الإرهاب. ترى الأمهات يبكين أولادهن الذين حجز عليهم او أعدموا، إذ أن المأساة لم تقتصر على التهجير ولكنها كانت اكثر سعة وعمقاً.

أثناء تجوالنا في المخيم ومشاهدة المناظر المروعة لما يعيشه المشردون تذكرت قسوة مخيمات اشقائنا الفلسطينيّين المشرّدين، وكيف أن الطاغية قد استغل قضيتهم بالوعود الرنانة بعودة الناس الى ديارها، ولكنه لم يفِ بوعده، وها هو يشرّد شعبه بقسوة لم تستعملها سوى نازية هتلر، وزج شعبه بدوامة جوع وقتل وتشريد ليصبح مثل اشقائنا الفلسطينيين في محنتهم، ولكن الفرق بين المهجّرين العراقيّين والمهجرّين الفلسطينيّين هو أن إخوتنا الفلسطينيّين لهم هوية واسم وطن يطالبون العالم به، أما نحن فأُبعدنا واعتبرنا غير عراقيّين؛ بمعنى أنه لا وطن لنا نستطيع المطالبة به، وليس هناك من يسمع مأساتنا ومعاناة جزء من الشعب العراقي التي تشهد هذا الانتهاك الخارق لحقوق الإنسان.

من خلال جولتنا القصيرة للمخيم، رأينا عوائل كثيرة وخياما أكثر، وعرفنا أن هذا

المخيم جديد قد نُصب من عدة شهور لكثرة الوافدين من مناطق متعددة من حدود العراق مع ايران، وكانت بعض الانشاءات لم تكتمل بعد، مثل أنابيب المياه النظيفة والمجاري. عُدنا من رحلتنا الى بيتنا لنرى طابور استلام الفطور الصباحي. في الخيمة وجدنا فطورنا، ينتظرنا، وهو كالمعتاد الخبز والشاي والجبن الأبيض وكان الجبن هنا على شكل قوالب، وكان ذا ملوحة عالية.

الثورة الايرانية كانت في بداياتها، وتعاطف الناس مع المهجرين كان كبيراً جداً، وهذا ما رأيته من خلال التبرعات العينية للمخيمات، فلقد كانت تأتي شاحنات تزوّد المخيم بالبطانيات والمدافئ والغذاء وعلب حليب الأطفال، إضافة إلى الكثير من المتطوعين الذين يعملون لمساعدة المهجرين.

إنّ ما شهدناه من عذابات التهجير القسري جعلنا متشابهين في المعاناة والمأساة، واصبحنا نحن المهجّرين شعبا جديدا ولكن ليس له وطن وأسم. في مسجد خسروي كان بعض الشباب يتناقشون كي يجدو اسماً للشعب المهجر، في البداية سموه» شعب الحدود»، «الشعب المنسي»، «شعب التهجير» وفي النهاية سموه «شعب ايراق» اسم مركب بين ايران والعراق، وعلى غرار القول للقبوط (المعطف) المتوسط الطول «ستوط.. لاسترة ولا قبوط».

وهكذا دخل شعب «ايراق» ليكون شعبا جديدا بين شعوب المنافي والهجرات.

9

19-5-1980: «باغ ابرشيم»... والتراب المقدس

كان ليلا باردا جداً على المنفيين عن الوطن، عند وصولهم الى مخيم اصفهان واسمه «باغ ابرشيم»، ومعناه بستان الحرير. كانت الخيم المنصوبة تنتظر ساكنيها الجدد المتعبين من عناء السفر القسري والتغرب والبكاء وألم الفراق. وزعت الخيام علينا، خيمة لكل عائلة حسب عدد أفرادها. كان منظمو المخيم يحاولون ما بإمكانهم أن يساعدوا المنفيين، ويقللون من آلامهم بقولهم الدائم» خوش اومديد» وتعني أهلا وسهلاً. وزعت بعض الحاجيات المنزلية الصغيرة والبطانيات والصوبات للقادمين الجدد الذين تعودوا على حرارة الصيف في العراق، كي تبعث في أجسادهم الدفء البسيط. خلد تلك الليلة البعض منا للنوم على الأرض الباردة نتيجة الإرهاق والتعب، والبعض الآخر فضل السهر مع التفكير والالم. كان المكان الجديد فيه نوع من الهدوء النسبي. ليلا لم تكن هناك أصوت العيارات النارية الرهيبة التي كانت تُسمع في مسجد خسروي.

أشرقت الشمس مبكرة في صباح اليوم الجديد في البلد الجديد الذي لا نعرفه، ولا نعرف لغته، عاداته، أجوائه ولا ساكنيه. وهكذا بدأ القادمون الجدد يتفحصون المكان بحذر وخوف من المستقبل، الذي سيبدأ هنا في مخيم «باغ ابرشيم». بدأ اليوم التشردي الجديد برؤية الخيام، فقد كانت كثيرة جداً تدل على عمق المأساة. الخيام كانت منظمة على شكل شوارع، وكل خيمة عليها لوحة فيها رقم وحرف الخيمة، وكأن المنطقة (البستان) مقسمة الى أزقة، وهناك أيضاً كانت دورات المياه، وهي قذرة جدا، ولم تكن تكفي لهذا لعدد الهائل من العوائل. في الصباح بدأ المنفيون استلام فطورهم بالوقوف بالطابور، وكل عائلة يقف منها شخص مسؤول واحد

يحمل بطاقة تحمل تعداد العائلة لغرض التموين الغذائي. الفطور كان مثل وجبة الغداء والعشاء هو الخبز والجبن وأحياناً الخيار، ولكن الكميات كانت سخية جداً، وكذلك الشاي وعلب الحليب للأطفال. كان مؤلما جداً رؤية هذا المشهد لأناس كرام فقدوا كل شيء بل بالأحرى سُلب منهم كل شيء، واصبحوا يقفون بخذلان مطالبين بقوتهم اليومي.

بعد رجوعنا من الحمامات الى خيمتنا الغبراء، ومشاهدتنا قسوة ما يجري في المخيم، تناولنا افطارنا على شكل وجبات لضيق الخيمة. كانت والدتي رغم تعاستها وحزنها توزع علينا الافطار المقرون بمحبتها التي تعودنا عليها مع تحفيزنا على الصبر.

بعد تناول الفطور الصباحي أخذ سكان الخيام بالخروج من خيامهم وكانوا مزيجا غريبا: نساء، أطفال. شباب وشيوخ، الكل يجمعهم حزن وألم، ولكل خيمة قصتها ومأساتها. كان الحزن والغربة والخوف من المجهول هو القاسم المشترك للجميع. الجميع يحس أنه تحت وطأة كابوس، يتمنى أن يستيقظ منه دون أية خسائر. ترى الذي ينوح على فقدان الأحبة، الامهات يبكين الخوف على اولادهم المعتقلين او الذين اعدموا على يد الطاغية وأزلامه، الآخر يبكي على فقدان بيته وحاله وماله، على فراق زوجها، فراق الحبيبة أو الماضي، وتقريباً الجميع يبكي فراق الوطن، وبين هذا الجمع كنت أنا.

عندما أصبحت الخيمة بيتنا، لم يكن لها جدار عازل ذو خصوصية، تعزله عن الفضاء الخارجي، فالجلوس في الخيمة كان شيئاً مؤلماً، يذكرنا جميعاً بكابوس التشرد، لذلك يحاول الجميع إيجاد سبب للفرار من تلك الخيمة الكابوس، وهكذا اضمحل هنا الجو العائلي الجميل، الذي اعتدنا عليه وأصبح في ذاكرة الماضي، أصبحنا نهرب من واقع لم نختره بأنفسنا، وهكذا أصبحت الخيمة رمزاً للتشرد والقهر.

بعد ان تناولت وجبة الغداء، افترشت الأرض أمام بيتنا الجديد. كان اليوم دافئاً نوعا ما، وبعض الاطفال يلعبون متصورين أنها رحلة عائلية، ولأنهم أبرياء، لا يعرفون عمق المأساة التي أصبحوا جزءاً كبيراً منها. في نهاية شارع المخيم الذي

كنا نسكن فيه، كنت أرى بعض الرجال متجمعين، يدخنون السجائر بشراهة، ولربما كانت تخفف من اختناقهم. مواضيعهم كانت التسفير، السياسة، الوطن والخوف من الآتي. كنت ارى النساء بعباءاتهن السود يمررن في شوارع المخيم، وجوههن كانت متعبة حزينة لشدة الارهاق والضياع وانعدام الأمل، وبعضهن يحملن اطفالهن الرضع او يأتين بالماء او الخبز وما يجود عليهم المخيم من مواد عينية، بعض الرجال الكبار في السن كانوا يرتدون الزي العراقي الدشداشة البيضاء والجراوية، وتبدو وجوهم حزينة والهم والغم أحنى ظهورهم.

أخذت كوب الشاي وجلست أمام الخيمة، وأنا أرى المشردين وأسمعهم من حولي، ورأسي كباقي الناس حزين مترقب، ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ جزء من عائلتي كان داخل الخيمة الكئيبة، وبعضهم ذهب ليستفسر عن الغد، والآخر يتحدث مع بعض المنكوبين وليستمع الى قصص وقصص كلها مؤلمة ومرعبة. والدي كان كئيباً ولا زال تحت الصدمة وغير مصدق بما حدث ويبدو على وجهه الحزن والامتعاض، كان يستفسر من القادمين الجدد عن الأوضاع في البلد وفي روحه أمل بالرجوع الى حياته التي ألفها، وللأسف لم يجد في الاجوبة سوى خيبة الامل.

فيما أنا جالسة أمام الخيمة، فجأة وكأني في حلم، لمحت شخصاً، تهيأ لي أني أعرفه، عندما اقترب أكثر، وبدون أي تفكير، رميت الشاي من يدي وهرعت اليه. كان الرجل زميلا لي في كلية الطب البيطري جامعة بغداد. كان هو من خريجي عام 1979 واسمه كاظم. كان شاباً أسمر اللون، طويل القامة، عيناه عسليتان وله شارب. مؤدب جداً، وكان يحب الأدب والرسم، وحسب ذاكرتي، كان يكتب ويرسم ايضاً. تعرفنا على بعضنا سابقاً في كلية الطب البيطري عن طريق أصدقاء آخرين، كان يسبقني بمرحلة دراسية واحدة، لا أدري ماذا أسمي هذا اللقاء غير المنتظر، وكانت المفاجأة كبيرة له أيضاً. فرحنا بذلك اللقاء الصدفة، ولكن سرعان ما تحولت بهجة اللقاء الى حزن وألم لوضعنا الحالي، فنحن خارج وطننا، ومشردون عنه عنوة.

تذكرت أيام الدراسة الجامعية التي مضت، وبالأخص ما حدث بعد الانفجار الذي حصل في الجامعة المستنصرية في بغداد في الأول من نيسان 1980، والذي أصبح نقطة تحول كبيرة في حياتنا الجامعية، ولربما دبره النظام كي يكون ذريعة

لدخول الحرم الجامعي بحجة توفير الأمان، ولكنه، أي النظام، دخل لأسباب أخرى، حيث أصبحت الحياة الجامعية مسيطرا عليها من كل النواحي، وأهمها حرية إبداء الرأي لتصبح سجناء الفكر. وبهذا أصبحت الجامعة أحد مراكز جهاز الأمن، فكانوا يفتشون حقائبنا وكتبنا عند دخولنا، ويتابعون تحركاتنا، وكان وجوداً عسكريا رهيبا. وهكذا تحول الجو الجامعي الجميل الى جو ملؤه الخوف والرهبة، وأتذكر ايضاً أن رجلا من رجال الامن كان يجلس في قاعة المحاضرات، خلال إلقاء محاضرة المدرسين، وهذا ما جعل جو الدراسة مشحونا نتيجة المراقبة.

دعوت زميلي المشرد كاظم أن يجلس أمام بيتنا الجديد، فلبى دعوتي وجلس بجانبي امام الخيمة. لاحظت على وجهه الإعياء والحزن والتعب. ذكر لي أنه سُفر مع عائلته بطريقة همجية، وكان حزينا جداً على عائلته المهجرة ومصيرها المجهول وحزناً على شعبنا الذي يذوق ما يذوق من الاهانة والتعذيب بكل انواعه. تحدثنا عن التسفيرات وتذكرنا أيام الدراسة والأصدقاء، ووضع البلد الذي يحكم بالنار والحديد، وما سيكون عليه تحت حكم الإرهاب، فقد كنا نتمزق ألماً وخوفنا كان كبيرا على وطننا الذي أحببناه ونحبه، لأنه يمثل لنا الدار والحياة والذكرى.

تحدثنا عن الوطن والفراق وانعدام الرؤيا المستقبلية، وكان يلقي وألقي معه أبياتاً من الشعر عن حب الوطن ومرارة المنفى، وألم كبير يجول في أرواحنا وإحساسنا. وفجأة قال لي كاظم وسط حزننا «هناء: قد حملت معي شيئاً من بلدي، سيبقى معي حتى اللقاء، وأُرجع اليه ما أخذته منه ثانية» رفعت عيني الباكية بتساؤل، ولكنه مد يديه الى جيب سترته وأخرج كيساً صغيراً من جيبه. كانت يداه ترتجفان وهو يحمل الكيس الصغير، رمى السيجارة التي كانت في يده الأخرى، وبدأ بفتح الكيس بحذر كبير، كأن جوهرة ثمينة بداخله، يخاف عليها أن تسقط وتتحطم. فتح الكيس بلهفة العاشق الولهان، نظرت الى محتويات الكيس الصغير، فرأيت في داخله حفنة من التراب وبعض الحصى التي أخذها زميلي من شوارع بغداد الحبيبة. وضع العزيز كاظم الكيس ومحتواه على الأرض مع إجهاشي بالبكاء، وكان بكاؤه بكاء الرجال لم تكن دموعاً ولكن ارتجافا في تقاسيم وجهه، الكيس (الوطن) كان بيننا، وكان احساسنا كأننا نودع عزيزا قد رحل. حينها أدركت

عمق حب الوطن، وكل منا يعبر عنه بطريقته الخاصة. كم تمنيت ان أحتضنه كي أبكي على كتفه، ولكن رأيت والدي متجهاً الينا، فنهض زميلي كاظم عبد الحسين، وهو من سكنة مدينة الكاظمية، وسلم على والدي، وتحدثنا قليلا، وبعد ذلك حمل كاظم وطنه في جيبه وانصرف وهو يحلم بالعودة. وهكذا اصبح تراب الوطن هو السلوى لزميلي المشرد في بداية مرحلة المنفى في مخيم اصفهان.

بعد ثلاثة ايام افترقت عن زميلي العزيز كاظم، الذي بحثت حينها عنه، وللأسف لم أره او اسمع عنه بعد ذلك. لقد افترقنا وضعنا في متاهات الحياة، ويبقى سؤال يشغلني بين الحين والأخر هل التقى الجزء (كاظم) بالكل (الوطن)؟ أم أصبح الكيس بمحتواه وطناً للعزيز كاظم في دروب المنفى.

10

20-5-1980: بستان الحرير.. وحلم الملوك

مر اليوم التالي، والليلة التالية، بشكل رتيب مزعج، وبدأ التعب والتذمر على وجوه القادمين الجدد. اما الذين وصلوا قبلنا فقد تعودوا بعض الشيء رغم متاعبهم ومآسيهم، وكانوا يحاولون مساعدة المهجّرين الجدد بمعرفة أمور المخيم. الحياة في المخيم كانت صعبة جداً إذ لا يسمح للمنفيّين بترك المكان للتسوق أو الابتعاد عن تلك الأجواء البائسة. وكان إحساساً غريباً بأننا سجناء في المخيم، مقطوعين عن العالم بأسره، الأمر الذي جعل الشباب، بل وحتى الكبار، ينفرون من هذا الجو الوخيم، وهكذا بدأ سكان الخيام يحاولون إيجاد حلّ لما نحن فيه، ولكن كان ذلك صعباً جداً لأننا مسيّرون وليس بأيدينا اي اختيار.

أيام الضياع في المخيم كانت رتيبة وقاسية، يزيد من قسوتها سماع المآسي اليومية التي تزيد من سوء حالتنا النفسيّة. كذلك تراب المخيم، الذي أصبح جزءاً من حياتنا اليوميّة، دخل عيوننا وأفواهنا، ناهيك عن دخوله خيامنا التي حاولنا قدر الإمكان أن نقلل من دخوله اليها، ولكن دون طائل. سألتني إحدى الشابات التي وصلت مع عائلتها في الصباح عن أخبار المخيم فأجبتها بتلقائية المرارة التي نعيشها إن أخبار المخيم بكاء ومآسي وضياع وتراب، وكل هذا متوج بالخبز والجبن. وعندما شاهدت الحزن قد بدا عليها ودموعها تملأ عينيها، حضنتها وواسيتها وأكدت عليها أن تصبر، وأن الله لن يتخلى عنا، وحتماً سيكون هناك حل لهذا المأزق. واتفقنا أن نكون أقوياء كي نساعد عوائلنا المتعبة، وأن لا نكون فريسة للحزن والضياع.

كان إحساسنا، نحن المشردين، بأننا مقطوعون عن الدنيا وما فيها، كأننا ليس

لنا تاريخ ولم نكن موجودين من قبل في هذا العالم الصاخب. كان المستمعون لراديوهات، جلبوها معهم عند التسفير، يؤكدون لنا بأنه لا إذاعة عربية واحدة تذكر ذلك التشريد الجماعيّ الهمجيّ لأبناء العراق. كان أملنا جميعاً أن ما يفعله النظام الديكتاتوري من انتهاكات إنسانيّة سيكون له أصداؤه في المجتمع الدوليّ، لأنهم كانوا ينشرون فضائح هتلر التي ملأت العالم بوحشيتها وفظاعتها، وكنا نفكر أنه حتماً ستصدر قرارات تستنكر تلك الجريمة النكراء التي يمارسها نظام صدام، ولربما سيكون هناك ضغط دولي من أجل عودة المشردين، وإعطائهم حقوقهم مع رد الاعتبار، وبقينا بهذا الأمل الذي يغذي نفوسنا رغم ورود أخبار مع القادمين الجدد تؤكد بأن الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم، وأن التهجير مستمر، والجريمة تجري بصمت، وأن الإعلام العراقي لم يذكر أي خبر عن ذلك، وأن التهجير يتم أمام أنظار الناس التي كانت تشارك المشردين بوجدانها، ولكن الخوف والرهبة من النظام تجعل الناس تخاف على نفسها من الانتقام لكل من يبدي رأيا مخالفاً للنظام التعسفي.

كان شباب المخيم يحاولون التخفيف من حالة الاختناق وفقدان الأمل التي يمرون بها، وللهروب من الطاقة السلبية، قام البعض منهم بتحويل الالم الى طاقة ايجابية، وهكذا شكّلوا فرقاً رياضية صغيرة لكرة الطائرة وكرة القدم، وكذلك ألعاباً أخرى، أشركوا فيها الأطفال والأحداث في اللعب أو في التشجيع. كان شيئاً جميلاً أن ترى قابلية الإنسان على التعايش مع ظروف قاسية مثل ظروف مخيم البؤس، وها هم ابناء شعبنا يزرعون الأمل على أرض الواقع الجرداء.

لقد التقينا عند الحدود العراقيّة الايرانيّة، كما ذكرت سابقاً، بعائلة من الأكراد الفيلية (بيت أبو رضى)، وكانت أعمارهم وتطلعاتهم تتناسب معنا، وأصبحنا جيرانا في الخيام، ثم أصبحنا أصدقاء العمر. كنا نتقاسم الألم والذكريات والأحاديث والضحك احياناً. فوجود مثل هؤلاء الأحبة قلّل من حدة الألم علينا جميعاً. كانت قوافل المهجّرين تصل يوميا، نستمع الى ما عانوه من قسوة وأذى وتحقير من قبل أزلام الأمن العامة، وكنّا نواسيهم ويواسوننا. نسمع منهم حالة الرهبة التي تكبر في بغداد وغيرها من المدن. أحيانا يجد البعض معارف له في المخيم، فيقل الإحساس بالغربة، ويتم تبادل الأخبار التي محورها نكبة التشرد.

في ذلك الوقت لم يكن التشدد الديني بإيران قويا وملحوظاً، ولم يُفرض علينا لبس الحجاب، ولكن كانت هناك ضوابط أخلاقيّة واحترام البلد المضيّف. كان التنظيم في المخيم جيداً نوعا ما، وهناك دوريات بين الحين والآخر تقدم الرعاية الصحية للمرضى، وخصوصاً كبار السن والأطفال، ولهذا الجمع من المنفيّين. كذلك كانت هناك دوريات للنظافة، حيث أن بعض المهجّرين يرمون بالأوساخ خارج الخيم، لذلك وزعوا أكياسا بلاستيكية على الخيم لجمع النفايات، تفادياً لتكاثر البعوض والذباب وانتشار الأمراض. وفي الليل تأتي عربة خاصة لجمع أكياس النفايات، كما كانوا يجمعون الخبز اليابس المتبقي في عربات صغيرة. الوجبات الغذائية كما ذكرت سابقاً هي الخبز والجبن وأحياناً الخيار، وهنا لا نستطيع طلب أكثر من ذلك وكنْا لهم شاكرين، لأنه ليس فندقا، ونحن لم نكن سوى مشردين.

مرّت بعد ظهر اليوم الثالث أمام خيمتنا سيارة جيب عسكرية، يقودها شاب هو أحد حراس المخيم. كنت أنا وأختي نقف أمام باب الخيمة، فأوقفته وتكلمت معه باللغة الانكليزية، وسألته إن كان بإمكاني التسوق فأجابني بأدب: إنه غير ممكن، وسألني عن حاجتي، وكانت بصلا ونومي بصرة وزيت وكركم، فسجلها ووعدني بإحضارها في وقت قريب. وفعلاً وبعد مرور نصف ساعة جاءت العربة ثانية، وأعطاني الشاب ما طلبته وهو: كيلو بصل وعشرة حبات نومي بصرة وكركم وقنينة زيت من مخازنهم، فشكرته، وهو ينظر اليّ باستغراب ولكنه لم يسأل ماذا اعمل بتلك المواد البسيطة. ذهب وفي داخلي شكر كبير على مساعدته. قررت أن أطبخ بما استلمته من مواد غذائية بسيطة عشاءاً دسماً من متبقيات الخبز اليابس والملح والمواد الأخرى، وبهذا أعمل تغييراً لقائمة الطعام المعتادة.

كان عندنا صوبة (جولة) استلمناها من المخيم. وأصدقاؤنا، بيت أم رضى، كان عندهم واحدة اخرى، بالإضافة الى ذلك كان لدى بيت أم رضى بعض الأدوات المنزليّة، قدور وصينيّة وملاعق استفدنا منها لتحضير وليمتنا الشهيّة. فطبخت لهم أكلة حلم الملوك، ولها اسماء اخرى مثل «المثرودة»، و«محروك اصبعه». وهي أكلة بسيطة لا تعتمد على أي نوع من اللحوم ولا من الخضار. بمساعدة الآخرين هيأنا وجبة العشاء التي جمعت العائلتين. كانت الأكلة لذيذة جداً ورائحة البصل المقلي

التي انتشرت في أجواء الخيمة ذكّرتنا بمطابخ بيوتنا المسلوبة. فَرِحت المعدة بالأكل الدافئ، وسرى الدفء في أجسادنا، وأكلت العائلتان بمتعة ومع بعض المزاح. ولكن إخوتنا الصغار كانوا غير راضين ويقولون: ما هذا الطعام؟ أما أخي الصغير «منصور» الذي لم تعجبه مكونات الطبخة، فقد أبدى عدم رضاه أيضا وسأل والدتي عن اسم الأكلة، فقالت له أنه «مي لحم» وبدأ أخي الصغير يسأل بعصبية «بس وين اللحم؟» فأجابته والدتي أن اللحم مضر بالصحة، وهذه الأكلة اسمها «حلم الملوك». وهي قصة تقول: إن «الملك يشتهي هذه الأكلة، بل يتحسر عليها». كانت نظرات أخي الصغير تعبر عن عدم القناعة وعن احتقار للملوك وحسراتهم. أكل الأطفال بشهية ولكنهم في داخلهم كرهوا الملوك وأحلامهم وحسرتهم الغذائية البائسة. بعدها شربنا الشاي وضحكنا قليلاً، ونام الأطفال بعد الأكل، وكانت أحلامهم حلوة بريئة مثلهم، بعيدة عن الملوك وظلمهم وجبروتهم.

وهكذا أصبح لحلم الملوك وحسرتهم تاريخ عظيم في المنفى.

11

20–5–1980: مخيم أصفهان.. والقرار

هذا اليوم مرّ رتيباً، فالجميع افتقد ما تعودوا عليه من حياة طبيعية وعملية. والدي افتقد عمله ومصدر رزقه ليجرّ، على حد قوله، عربة العائلة الى الأمام، وافتقد دوره القيادي فيها، والآن قد قُتلت خيوله ظلماً بدون إراقة دم، وبقيت العربة كجسد مقتول تحت شمس الخالق يهددها الفناء. دور القائد المغوار انتهى ليحل محله دور أسير يتمنى أن يقتل بحرب تمنحه الشرف الآدمي الذي يتمناه. والدتي افتقدت منزلها وقيادتها للمنزل، تربويا ومطبخيا، لتجمع عائلتها تحت سقف آمن لطالما صلّت وناجت ودعت خالق هذا الكون للحفاظ عليه. الآن وبعد شقاء العمر تجد نفسها في خيمة ضائعة مثل سفينة تائهة في محيط الحياة، تبكي فراق ابنتها الكبيرة والخوف عليها. رغم ذلك ما زالت والدتي القنوع الراضية بحكمة الخالق تشكره لنجاة أطفالها والناس الآخرين وتدعو لهداية الظالم. أخي الكبير افتقد حلم عمره في أن يكون له طفل يهبه المحبة والأبوة وأن يسمع أول كلمة ينطق بها وليده، وأحلى كلمة كانت «بابا» ويرى أول خطوة يخطوها ابنه، وأن يلعب معه، ولكنه وجد نفسه وحيدا بعيداً عن ولده، تلعب به هواجس الخوف على ابنه وكوابيس الفراق المضنية.

أما طلبة الجامعات فكانوا يفتقدون لبُنة بناء مستقبلهم التي سقوها بعرقهم واجتهادهم كي يصبحوا عنصراً فعالا في المجتمع، ناهيك عن فقدانهم لأصدقائهم ولأحلامهم في الحب وفي تكوين روابط أسرية كامتداد طبيعي لكل الأجيال. تراهم منكسرين لفقدانهم الهوية والمستقبل الذي طالما اجتهدوا له وحلموا بتحقيقه ليصبحوا تحت رحمة الزمن والمنفى، فاقدين أفق الحاضر والمستقبل. أما الباقي من طلبة المدارس فهم أيضاً محطمون ويخافون المستقبل. أخي الصغير «منصور»

رغم تعاسة المنفى، كان مرتاحاً لشيء واحد وهو ترك المدرسة، وهو في الامتحانات النهائية للسادس الابتدائي، لأنه كان لا يحب المدرسة والدراسة. ورغم حزنه للأحداث الصعبة التي نعيشها والتي كنا نعتقد انه صغيرا على فهمها، كانت لديه حالة من الرضى. وقد أثبت في المراحل اللاحقة من التشرد تَحمله للمسؤوليّة أدهشت الجميع لهذا الكم من الوعي رغم صغر سنه.

في خضم الحزن والضياع، بدأ التفكير في الاتصال بعائلة والدتي الذين كانوا يعيشون في ايران. إنّ قصة عائلة والدتي بدأت في نهايات الحرب العالميّة الثانيّة، حيث كان بيت جدي وعائلته في مدينة الكاظميّة، والذي ورثوه أبا عن جد، ولا زال قائما رغم عدم سكنه لِقدمه. كان جدي الحاج هادي وأخوه الوحيد الحاج مهدي تاجريّن ذاع لهم الصيت حينها في بغداد. وبعد صفقة تجارية مع أحد شركائهما في التجارة وخيانة الصديق، خسرا جزءاً كبيراً من أموالهما. وحين اسودت الدنيا بعين الأخوين نزحا إلى إيران مع عوائلهما الكبيرة وبصحبة أبويهما الكبيرين في السن، تاركين دارهم في الكاظمية الى يومنا هذا، طلباً للرزق والابتعاد عن الشريك الخائن وتفادياً للمشاكل.

بعد رحلة طويلة ومتعبة، مرّوا خلالها بعدة مدن ايرانية بحثاً عن الاستقرار، وكانوا حينها قد ذاقوا مآسي ومرارة الحرب العالميّة الثانيّة في مدينة «قم» وهذا ما ذكره أخوالي. استقرت العائلة الكبيرة بعد عناء كبير ومن ضمنهم والدتي، كانت طفلة يومها، في العاصمة طهران وأما باقي العائلة مثل الأخوات المتزوجات وأولاد العمات والخالات وباقي افراد الأسرة فقد بقوا بالعراق، في بغداد موطنهم الاصلي.

في طهران بدأت تجارة الأخوين تزدهر فقاما ببناء فندقيّن في طهران، المعروف في ايران باسم (مسافرخانة) وأسماء الفنادق «مسافرخانة كاظمين» (تمجداً باسم مدينتهم القديمة) و«مسافرخانة ذو الفقار». وكانت معروفة للزوار العرب وخصوصاً العراقيّين والخليجيّين، ولدى الايرانيّين تسمى «مسافرخانة عربا» أو (أوتيل العرب). هذا التاريخ وامتداده سمعناه مرارا وتكرارا من عوائلنا الموجودة في العراق. الاخوان في ايران كبرت تجارتهما وكلّ واحد منهما تزوج من أربع نساء (حسب الشرع

والقانون). والد أمي له (12) من البنات والصبيان وأخوه له كذلك (12) من البنات والصبيان على ما أظن، وبعد ما كبر ذلك الجيل قليلاَ تزاوج الاكثرية مع بعضهم البعض لحفظ الأصل والثروة، وبدأت حياتهم بالاستقرار.

بعد مرور سنوات قليلة ذهبت جدتي، لأبي، لزيارة إخوتها في ايران. يومها لم يمتلك وثيقة جواز السفر سوى الأعيان. عبرت جدتي شط البصرة بصورة غير قانونية الى ايران، وكانت هذه الطريقة متبعة حينذاك، ورجعت بعد سنة قضتها مع إخوتها مصطحبة معها عروسا كي تزوجها لوالدي، لأن والدتي تملك خط الولادة (الجنسية) في العراق. في ذلك الزمن البعيد كان الإنسان بسيطاً والحياة بسيطة، والحدود لم تكن معقدة والتزاوج بين سكان البلدين كان موجوداً، ولم تكن هناك ضوابط تمنع ذلك التزاوج او التقارب. إنّ التزاوج بين أبناء البلدين كان له دور كبير بتعميق العلاقة بين الشعبين العربيّ والفارسيّ على جميع الأصعدة، وللأسف فإن السياسة غير الإنسانيّة هي التي تفرّق دائما بين الشعوب المتحابة. في زمن حكم الشاه الايرانيّ الأسبق وفي بداية السبعينات كان هناك خوف كبير عند عائلة والدتي في ايران من إبعادهم وإرجاعهم الى العراق لأنهم عرب، وكادوا حينها أن يبيعوا أملاكهم، وهكذا انقلبت الآية وأصبحنا نحن المشردين المبعدين، فتباَ للعنصرية بكل أنوعها وفي كل أزمانها.

إنّ الذي أرويه ليس تبريراً لوجود عائلة والدتي في ايران، لأني لو دخلت في تبريرات فسأبدو وكأنني أعُمّق افكاراً فاشية لا يعرفها التاريخ سوى في الحرب العالمية الثانية من قبل هتلر، أنا أروي لغرض معرفة الماضي ومتابعة الأحداث والشخصيات فقط. وفي أواسط السبعينيات كان هناك انفتاح مع الجارة ايران، أدى إلى تبادل الزيارات، وبين عام 1976 وعام 1977 جاء اثنان من أخوالي واثنتان من خالاتي مصطحبين معهم جزءا من عوائلهم لزيارة عائلة أختهم والعتبات المقدسة، وكانت هذه المرة الأولى والوحيدة التي التقينا بهم، وكنا فرحين وفخورين بهم، وكان الشعور متبادلا.

الحكومة الايرانية سهلت أمور المهجّرين في المخيمات، الذين لديهم أهل أو

معارف أو أصدقاء في ايران، أن يخرجوا من المخيم بكفالة، وهنا يصبح الكفيل مسؤولاً عن كل المصاريف والتحركات للمهجّر العراقي. ولهذا كانت فكرة الاتصال التلفونيّ بأحد إخوة والدتي قد أصبحت ضرورية نتيجة الأوضاع المتردية التي نعيشها ومحاولة الخروج من المأزق الذي صرّنا فيه عنوة، والخروج بالتالي من جحيم التشرد والمخيمات. والدتي بدأت تشجع أخي الكبير على الاتصال بأحد إخوتها، رغم رفض والدي للفكرة، لأنه كان يأمل بالرجوع الى بيته المسلوب وعمله، وكان يريد أن ينتظر لعل الأوضاع تتغير، ولكن العائلة كلها كانت مؤيدة للفكرة، الاتصال بأخوالي، ولم يبق لوالدي سوى الرضوخ لرغبة الجميع. لذا قررنا أن يتصل أخي تلفونيا بإخوة الوالدة، وفعلا تم الاتصال في اليوم الثاني ليلا..

وبهذا كان قرار الخروج من المخيم من أهم قرارات المنفى.

12

21/22-5-1980: مخيمات أصفهان.. وصورة العائلة

إنّ رضوخ والدي للخروج من المخيم لم يكن اعتباطياً، إذ كانت له أسبابه ومعطياته، نتيجة اختلاطنا بالمهجّرين القدماء وتجربتهم بحياة المخيم، فقد أمضوا أسابيع عدة تحت أتعس الظروف الجوية كالبرد الشديد والأمطار والمعاناة اليومية الاخرى في المخيم، إضافة إلى الزخم الكبير من المهجّرين الوافدين باستمرار على المخيم والمخيمات الأخرى. أصبحت الظروف الحياتيّة أصعب، والأمل في إيجاد حلول مع العراق لم تكن مشجعة، ثم صارت من المستحيلات بسب حداثة الثورة الايرانية وعدم استقرار الأمور في البلد، الذي كان في حالة تأهب، وبالتالي فإن إخراج هذا العدد الكبير من العراقيّين لم يكن في حساب الدولة الفتية حينذاك. لذلك لم يكن هناك وقت وقدرة عند الإيرانيّين لتنظيم وتجهيز الخدمات اللازمة لهذا العدد الهائل من المشردين، وأن احتضاننا كان انسانياً بحتا، ولهذا لم نُترك في العراء على الحدود العراقية غير الآمنة، وايران ادخلتنا الى مدنها مؤقتاً، ربما لأشعار اخر. بمعنى أن البقاء في المخيم مرهون باتخاذ قرار من الدولتين، وللأسف لم تكن هناك أية بوادر لإنهاء هذه الحالة المزرية، لأن توافد المهجرين مستمر مع قصص مرعبة، ولربما هناك حرب ستقع لا يعلمها سوى الله. هناك أيضا البرد الذي نعاني منه في الخيمة، تمنحه الأرض للأجساد الحية المتعبة، وكان له أثره الصحي السيئ، مصحوب بالحالة النفسية للمهجّرين ودورات المياه البعيدة والقذرة وعدم قناعة جميع أفراد عائلتي بهذا الوضع، إضافة الى أن قرار مساعدة بعض المهجّرين بكفالة من أحد المعارف أو الأصدقاء كان قراراً لا تُعرف مدى فترة صلاحيته، ولربما يُلغى فنكون قد خسرنا فرصة ذهبية لن تعود ثانية. لذلك كانت السرعة في اتخاذ القرار قد أصبحت نتيجة حتمية لا بد منها.

بعد أن تداولنا الحديث والنقاش مع الوالد المليء بكبريائه واعتزازه بنفسه، إذ ليس من عادته أن يسأل المعونة من أحد، ولكنه تحت تلك الضغوط النفسية رضخ للأمر الواقع من أجل إيجاد مخرج لأوضاع عائلته المسبيّة. إن القرار الذي اتخذناه بالإجماع أصبح قيد التنفيذ رغم وجود مخاوف من ردود فعل الطرف الآخر وما ستكون عليه؟، هل سيتجاوبون مع محنتنا أم سيتركوننا مع قتل الأمل والشعور بالخذلان، على الرغم من أن هذا لم يكن في توقعنا. إنّ احتضان عشرة أشخاص، الغالبية منهم كبار في السنِّ، ومسؤولية المصاريف اليومية والتكفل بوجود أناس دون وثائق رسمية. لذا كان قرارا ليس سهلا، رغم حق والدتي عليهم، وكذلك ميراثها الشرعي بعد وفاة والدها. بالنسبة لنا وضعنا كل السيناريوهات بنظر الاعتبار، ومن ضمنها الرفض، ولو بنسبة ضئيلة. كل تلك المناورات والمشاورات وضعناها في الحسبان وعلى أخي الكبير تنفيذ القرار يوم21--5 1980 ليلا. مرّ ذلك النهار وما قبله مع أصدقاء عائلتنا (بيت أم رضى) الذين كانت لهم فكرة الخروج من المخيم، وهم لديهم خالة متزوجة تعيش في طهران، وكانت لهم نفس المخاوف، وكان قرارهم مثل قرارنا، وهو طلب المساعدة للخروج من المخيم، وبهذا كانت الثقة المتبادلة معهم قد أعطتنا وأعطتهم زخماً كبيراً لمحاولة الخروج من مأزق التشرد. كنّا مع أصدقائنا (بيت أم رضى) نتفقد أوضاع المخيم ونرى ونحس القصص الحقيقية لهذ الشعب المهمش، شعب «ايراق»، وهذا كان يؤلمنا بشكل كبير. كانت مآسي كثيرة لا أستطيع حصرها، سوى أن أقول أن هذا الحجم من التشرد والظلم لهؤلاء البشر لم أره من قبل في حياتي ولا حتى في الكوابيس. القصص الكثيرة للآلاف من العوائل المهجرة التي أصبحت بين ليلة وضحاها مشردة ولربما في طي النسيان. أطفال ذابلون وكبار في السن متعبون ونساء باكيّات. الجميع كانوا عاجزين عن عمل أي شيء، وليس لديهم من قدرة سوى الدعاء الى الله بالخلاص والرحمة.

إنّ فكرتنا في الخروج من المخيم لم تبعدنا عن التفكير بهذه الآلاف المؤلفة من الناس، لأنهم بشر أولا ولأنهم شعبنا ثانية، ولأنهم شركاؤنا في المصير، في التهجير. نحن الشباب اتفقنا مع بعضنا، إذا أُخرجنا من المخيم، سوف نحاول مساعدة هؤلاء الضحايا بأي شكل نستطيع، وكان هذا يبعث في انفسنا مسؤولية مساعدتهم

ومؤازرتهم كرفاق في التشرد. فهم تعبوا مثلنا من السؤال: من المسؤول عن هذا التشريد غير القانوني، والى متى سيبقى الحال على هو ما عليه، وهل من خلاص؟

في المساء اتصل أخي الكبير بأحد أخوالي، أما نحن فقد كنا في بيتنا ننتظر الجواب بتوتر كبير، مثل انتظارنا لنتائج الامتحانات المقررة للمصير. رجع أخي كاظم وكانت ابتسامة عريضة على وجهه، فقلت له سائلة «حمامة لو غراب» وأجابني بأنها «حمامة». وبدأ الجميع بسؤاله، فقال أنهم، أخوالي، كانوا يتابعون أخبار التهجير وسمعوا عن قصص مؤلمة ويتمنون أن نكون بخير، وأنهم كانوا لا يستبعدون خروجنا. خالي اسماعيل، الذي كان اخا لوالدتي من أم بأصول تركية، أبدى استعدادا كبيرا لكفالتنا وأنه سيأتي في اليوم الثاني لعمل الإجراءات اللازمة للكفالة. وكان وقع هذا الخبر مفرحاً لنا، إذ رأيناه شعاع أمل في ظلمة الواقع المشين للإنسانيّة. نمنا تلك الليلة الباردة على دفء حلم لا معالم له سوى الأمل بالخلاص. بدأ يومنا التالي مملا وبطيئا بانتظار سفينة النجاة. الكل يتجوّل في المخيم لعله يرى المنقذ بالرغم من أننا لم نره من قبل. وكنْا نسأل الوالدة، التي تتذكر بعضا من ملامح خالي القديمة، ولكنها وكعادتها تجيبنا بصبر كبير ومحبة. مضى نهارنا الذي تخللته وجبتا الفطور والغداء، ولكننا لم نأكل إلا القليل لأننا كنا نتضور جوعاً للقاء الموعود الذي ولربما سيغير اتجاه السفينة الضائعة وبدون ربُّان. وبدأنا بترتيب بيتنا الصغير الذي كان محتواه بطانيات من المخيم وحقيبتي سفر قد جُهزت من قبل الوالدة، وبمساعدتنا ليلة التهجير كإجراء طارئ في حالة لو حدث الاعتداء، وبطانيتين جيدتين، وكانت أكياس أخرى لم نحملها معنا ومنها عباءة الوالدة الجديدة لمنعها أن تخرج معنا كونها ممتلكات عامة حصرت من غنائم الدولة، وحقيبة سفر متوسطة الحجم أتت بها أختي طبيبة الأسنان، والحقيبة التي اشتراها أخي من سوق خسروي بالإضافة الى حقائبنا النسائية والصيدلية اليدوية. اعددنا خيمتنا للزائرين الذين ربما سيأتون لإنقاذنا، ونحن لا نعلم الوقت الذي ستحتاجه الكفالة وهل سنقضي أياماَ أم أسابيع؟ وليس لنا المعرفة الكاملة بذلك، الأمر الذي زاد من توترنا.

بعد آذان المغرب، ونحن لا زلنا ننتظر، جاءت سيارة من الاستعلامات تحمل اثنين من أخوالي. تعرفنا على وجه واحد منهم، خالي قاسم الذي زارنا في عام

1976 مع زوجته القميّة (من مدينة قم) في بيتنا ببغداد. والرجل الثاني كان أخ الوالدة من نفس الأم، وأسمه اسماعيل. نزل الاثنان من سيارة الاستعلامات، وانهمرت دموع والدتي المنكسرة والمبتهجة برؤية وموقف إخوتها المغيثين لعائلتها، وبكاء الإخوين على أختهما وبكاء أبي، ابن عمتهم، الذي كان هذه المرة ترجمة لانكسار كبريائه. التقينا، نحن الأولاد والبنات، بخالينا باكين من المحبة لهم، ومن تعبنا النفسي الذي صار دموعا منهمرة. بعد لقائنا الشجي مع أخوالنا فرشنا بطانية على الأرض أمام الخيمة وجلسنا جميعاً عليها، وقد جلب الخالان بعض الفواكه الصيفية معهم، تعشينا معاً، والجميع كل بدوره يتحدث عن المأساة وهم يستمعون مشاركين وباكين على أوضاعنا. فهمنا من خالي أنه كان سيخرجنا اليوم من المخيم، ولكن بسبب غلق المكتب بعد الظهر، تم تأجيل ذلك للغد. تلك الليلة كنّا سعداء باللّقاء وكانت سهرة جميلة، فقد قرر الخالان المبيت معنا في المخيم، رغم وجود بيت أهل زوجة خالي اسماعيل في اصفهان. اصرّا أن يناما على الأرض الصلدة الباردة، كمشاركة لنا في تلك المحنة، وقد ساعدنا أصدقاؤنا (بيت أم رضي) بإعطائنا بطانيتين. وهكذا نام أخوالي خارج الخيمة، وهذا الموقف الجميل الذي لن ننساه أبداً، وهو مشاركتهم الوجدانية. تلك الليلة نام البعض قليلا، وبعضهم أبى النوم أن يزور عيونهم المتعبة، فهي آخر ليلة نقضيها في مخيم اصفهان. في صباح اليوم التالي وبعد الإفطار بدأ خالي بإجراءات الكفالة التي لم تأخذ سوى سويعات قليلة. بعد انتهاء الإجراءات بدأنا بجمع حاجياتنا البسيطة تهيئة للخروج من المخيم، تاركين خلفنا عوائل كثيرة لم نعرف مصيرهم بعد هذا اليوم، وكنا ندعو لهم دعاء صميمياً أن يخفف الله عليهم المأساة، وأن تحل المشكلة لهذا الجمع الكبير من أبناء الوطن المبعدين ظلماً عن وطنهم وديارهم. ودّعنا أصدقاءنا (بيت أم رضى) وداعاً باكياً فيه أمل باللقاء ثانية بعد خروجهم من المخيم في طهران، بعد أن علمنا أنهم أيضاً اتصلوا بخالتهم، وستحضر لكفالتهم. حملنا أمتعتنا استعداداً للرحيل، مودعين خيمتنا، واتجهنا الى مكتب الاستعلامات الذي زرناه في الصباح عندما سجلوا فيه وثائق جديدة مع وثيقة الكفالة. وضعنا أمتعتنا البسيطة في السيارتين التابعة لأخوالي، وانطلقت السيارتان صوب مدينة

اصفهان بعد انهاء عمل الكفالة من اجل اخراجنا من المخيم. من اجل عمل الكفالة كان على العائلة أن تأخذ صورة مع بعضها، وكانت الصورة رغم التعب جميلة، حيث وقف الوالد بجانب الوالدة، ونحن واقفون أما في الجانب أو الأمام، وكانت هذه آخر صورة للعائلة مجتمعة مع بعضها البعض.

وهكذا دخلت تلك الصورة في ألبوم المنفى، لتكون أجمل وآخر صورة للعائلة مجتمعة مع بعضها.

13

22-5-1980: أصفهان و.... بيت الكرام

ونحن نترك المخيم، نظرت الى الخيام الرمادية الواسعة الانتشار، وناسها التي تصطُبغ ايامهم السود بمآسيهم التي لا نعرف منها سوى القليل، من ذلك الكم الكبير من البشر الذين بين ليلة وضحاها أصبحوا من اعداد الأموات دون شهادة ميلاد او شهادة وفاة. والعالم نسي او تناسى هؤلاء البشر المهمشة، أذ كانت ارواحهم واجسادهم تهيم بين الارض والسماء.

كم تمنيت ان يكون هناك مؤرخون وكتاب ليشهدوا ويؤرخوا تلك المأساة، ولكن هيهات، فقد كان بعض المؤرخين والكتاب مشغولا بالكتابة عن الجبابرة ورسمهم بصورة الاله لكسب رضى الحكام، كي يغدقون عليهم المال الملطخ بالعار والدم، ويعضهم اصبح وطنه حانة يشرب منها حتى الثمالة كي ينسى نفسه وما حواليه، وآخر منهم اتجه الى الدين نتيجة خوفه كي يغسل ذنوبه لكونه كان شاهد اثبات على الجريمة المعلنة، وآخر قد اصبح في غياهب السجن وعذاباتها أو الموت، واما القسم الاخر فقد اختار المنافي، ورغم هذا فان صوته لم يتحرر من الخوف، فان بقايا جذوره ظلت في العراق يخاف عليها، وبهذا رأيت أمنيتي بعيدة المنال وغير واقعية للوضع الحالي، ولربما سيأتي يوم ما، وتذكرت المسلسلات المصرية التي تكون اخر حلقاتها سعيدة، بعد ان يصل المظلوم على عتبات القبر، فلأنتظر مع المنتظرين بصحوة الضمير كي يعطي هؤلاء ولو جزءا ضئيلا من حقهم التاريخي.

كانت افكاري متوجهة للأطفال، الجيل الجديد وما سيتعلمه في مدارس الخيام القاسية وفقدان هويتهم، هل سيكبرون ويترعرعون بظل ذلك الكابوس، بضياع طفولتهم وهويتهم، بقتل ابائهم؟ وما ستؤول اليه مدرسة الخيام؟ هل سينسبون؟ هل

سيجدون هوية جديدة؟ ام سيكونون غاضبين وسيكون الحقد والانتقام هو النتيجة؟ وتركت اسئلتي للزمن للإجابة عنها. كنت افارقهم مع دعاء صامت ان يحيطهم الله برحمته وان تعطيهم الحياة، ولو جزءا صغيرا من الانصاف.

ركبنا في سيارتيّ اخوالي وشعور غريب ينتابنا: إحساس بأن فراق المخيم، ومن هذه اللحظة، لربما سيمنحنا جزء من حريتنا الشخصية لإيجاد مخرج، فحريتنا لن تكون على ما عليه في المخيم، ولا ندري كيف سيكون شكلها في ديار ومع أناس لم نكن نعرفهم قبل الان؟

خالي اسماعيل كان مدرس جغرافية، ويعطي دروسا خصوصية للغة العربية والادب والفلسفة في جامعة طهران، وكان يتكلم اللغة العربية الفصحى واللهجة الكظماوية (نسبة الى منطقة الكاظمية ببغداد) بطلاقة. اما خالي قاسم فكان يدير الفنادق مع بعض من اخوته واولاد عمه بالتناوب، قبل وفاة جدي وبعدها، وكان ايضاً يجيد «اللهجة الكظماوية» بشكل رائع. سارت بنا العربتان، والبعض منا ينظر الى الوراء كي لا ينسى الصورة، وفيما البعض الاخر ينظر الى الأمام ليرى صورة جديدة لعالم الضياع الاخر.

كان المخيم يبتعد حوالي ساعة على ما اذكر عن مدينة اصفهان، وهي مدينة جميلة تزينها ازهار الربيع، كانت بسيطة، جميلة هادئة ونظيفة، ولم ار من الثورة فيها الا قليلا من الشعارات على الحيطان المنددة بحاكم ايران السابق، وصور لشهداء الثورة او صور سياسيين (للانتخابات التي جرت قبل اشهر قلائل).

بعد هذا المسير الذي تخلله الحديث مع اخوالي، وصلنا الى اول بيت مضياف لهذا الجوق المشرد، وكان البيت هو لأهل زوجة خالي المدرس، وهي اصفهانية، وكان خالي تركها في بيت اهلها عند مجيئه الينا من طهران.

بعد وصولنا ونزولنا من السيارتين، كنا خجلين منكمشين، فتجمعنا مع بعضنا ووقفنا مبتعدين قليلاً عن الباب ننتظر والانكسار قد اخذ مجراه في نفوسنا.

بعد ان رنّ خالي جرس الباب، خرجوا أهل الدار لاستقبالنا: زوجة خالي واسمها رضوان، وكانت اسما على مسمى، من جمالها ورقتها، فبعثت في الجميع الاحساس الجميل، فاسمها معناه (اسم الملاك حارس الجنة)، وكان في الاستقبال ايضاً والدها

وهو رجل في قرابة الستين من العمر وله لحية قصيرة زادته رصانة وابتسامته الحلوة، وهو يقول لنا كلمات الترحيب «خوشومديد بفرمائيد» وتعني «اهلاً وسهلاً تفضلوا».

دخلنا الى البيت، وكان بيتاً شرقياً يذكرني الان بالبيوت السورية القديمة، ولكنه واسع، في الباحة كانت نافورة الماء المبنية بالخزف الازرق الجميل، وكذلك هناك حنفية وحوض للماء. البيت كان فيه كثير من الزرع وأواني الورد التي هي عادة الناس ومتعتهم هناك، وهي عادة جميلة، فاغلب البيوت فقيرها او غنيها، لا يستغني عن الورد والزرع، البيت كان نظيفا وانيقا يدل على ذوق جميل لصاحبة الدار. في المخيم رتبنا حقائبنا وامتعتنا، ووضعنا البطانيتين (التي اخذناها معنا يوم التسفير) في الحقيبة ذات الجيوب الكثيرة التي اشتراها اخي من خسروي، في الصباح ذاته ذهبنا الى الحمامات للاستحمام قبل الخروج من المخيم كي نكون نظيفين من التراب العالق فينا، وكان الماء في ذلك اليوم فاتراً الى بارد، ولكن الجميع استحم، ولم نغسل ملابسنا لأنها لن تجف، فوضعناها بأكياس داخل الحقيبة مع البطانيتين لتختفي حالة التشرد ولو ظاهرياً.

وبعد دخولنا البيت، أدخلت حقائبنا داخل المنزل، ورحبت زوجة خالي بنا، وكانت ترتدي ايشاربا جميلا زادها جمالاً، باكية مقبلة امي، وهي تتكلم مع والدتي باللغة الفارسية، لكن امي كانت قد نسيت اللغة بعد زواجها لذا كنت والدتي تتجاوب معها باللهجة العراقية، حينها توجه المضيفون ونحن نتبعهم الى غرفة الضيوف الواسعة، كانت الغرفة انيقة ومفروشة بالسجاد الايراني، وتزينها زهور وشجيرات جميلة، فيما توسط الغرفة تلفزيون ملون كان حينها يبث دعاء دينيا، وسماور كهربائي عليه قوري الشاي. اتت والدة زوجة خالي التي ظننا حينها انها اختها (لانها تبدو صغيرة في العمر) تلبس الشادور الايراني الزاهي الالوان، ورحبت بنا ترحيبا جميلا وهي تبكي علينا وتضم والدتي الى صدرها مواسية والدتي قائلة «خدا كريمة» وتعني «الله كريم».

تعلمنا اول شيء وهو كلمة «خانم» للنساء ومعناها «السيدة»، وللرجال «اغا» ومعناها «السيد»، تقال بغض النظر عن العمر او المكانة، وهي كلمات احترام.

جلسنا على السجاد، ومشاعر الخجل والانكسار تملؤنا، واناقة ونظافة البيت تجعلنا حذرين، فكنا ننظر الى احذيتنا وكيف انها كانت متربة، رغم تنظيفها. استبدلوا عباءة امي المتربة بشادور جميل، وبعد ذلك وزعوا علينا الشاي والقند، لانهم لا يستعملون السكر بل يضعون قطعة من القند في افوههم، ويشربون الشاي وتسمى طريقة شرب الشاي هذه بـ«الدشلمة».

بعد ذلك جاءوا الينا بالفاكهة المنسقة بشكل جميل، ومعها صحون التقديم التي وزعت على كل حاضر مع سكينة للتقطيع، وهكذا تعرفنا على الضيافة الايرانية ومراسيمها الجميلة. كانوا يتحدثون معنا واخوالي يترجمون، وكان البكاء على وضعنا من الطرفين. بعد الحديث نصبت سفرة الغداء التي ضمت أصنافا من الأكل الايراني، كأنها لوحة جميلة. كان مضيفونا كريمين جداً، ولكننا كنا نشعر بالخجل لأننا لسنا في رحلة سياحية ولا زيارة عادية، لذلك كان طعم المرارة والتراب يملأ افواهنا، ويبدو الطعام ذا طعم اخر.

بعد وجبة الغداء، تركونا لوحدنا لنوم العصر، وهكذا بقينا لوحدنا كي يبدأ الحيث الهامس بيننا عن الضيافة الكريمة لأهل الدار، وحزننا الكبير لوضعنا الحالي وما سيؤول اليه مصيرنا بعد ذلك. وبعد فترة الاستراحة عادوا، وعاد الشاي والحلويات والحديث عن مأساتنا، وما يمر به شعبنا من قسوة وارهاب. بكى مضيفونا معنا وواسونا، وتحدثوا هم ايضاً عن معاناتهم قبل الثورة، واخوالي يترجمون الحديث، وكذلك كانت اخبار اهل امي: من تزوج؟ وعن صحتهم والخ من الاسئلة؟ فيما والدي كان قليل الكلام، ولأول مرة اراه لا يأخذ الصدارة في الحديث.

في المخيم كانت دورة المياه بعيدة وقذرة لذا اتفقنا نحن البنات ان لا نشرب الماء بعد المغرب كي لا نجبر للذهاب للحمامات، اما هنا في بيت مضيفينا، فقد كانت دورة المياه نظيفة جداً، ولكنها في باحة الدار وعلينا ان نستعمل الضوء للوصول، لذا كان الاتفاق بالإقلال من شرب الماء كي لا نوقظ مضيفينا. بعد وجبة العشاء تركونا للنوم بنفس الصالة بعد امدادنا بالأغطية والفراش والوسائد، فودعونا بكلمات خير ودعاء، وكانت هذه اول ليلة ننام فيها داخل بيت.

وهكذا دخل هذا البيت الكريم حياتنا ليصبح اول بيوت المنفى.

14

22-5-1980: من أصفهان الى طهران وليلة الخوف

بعد مرور الليلة الأولى تحت سقف بيت مضيفينا، نام الجميع ولأول مرة، نتيجة التعب والقهر، فكان النوم في هذه الليلة مريحاً بعض الشيء رغم عذابنا النفسي. وفي هذا اليوم أخذنا أخوالي بعد الفطور الصباحي الكريم في جولة جميلة للتخفيف عن حالتنا النفسية، ولرؤية معالم المدينة الأثرية القديمة ومنها «قصرعلي قابو» كان قصر الحكم والضيافة في عهد الدولة الصفوية يتكون القصر من عدة أدوار وكل دور كان منقوش بزخارف خاصة مزينة بالفسيفساء وبالموزاييك والنقوش الجميلة، فكان له تأثير جميل علينا وأنسانا ولو القليل مما كنا نمر به، جلسنا هناك في احد المقاهي لشرب الشاي وكانت سماورات الشاي جميلة وجلسنا على تخوت خشبية تمثل صورة تاريخية جميلة ويسمى بالفارسية «تخت سونتي»، ويعني الجلسة القديمة الفلكلورية حسب ما اتذكر، تجولنا مع أخوالنا في شوارع المدينة، وبعد العصر ارجعونا الى البيت، وفي الطريق بدأ احساس التشرد يعود ثانية ليتملكنا بعد اغفاءة صغيرة.

عند رجوعنا وجدنا عائلة مضيفينا قد توسعت، مع وجود عائلة ابنتهم المتزوجة واخ زوجة خالي وكان طبيباً بيطرياً مشغولا بتحضير الدكتوراه، وبعد الترحيب وتبادل الكلام بالغة الانكليزية والعربية والفارسية، مدت سفرة الغداء التي كانت كبيرة وفيها اصناف كثيرة، اكلنا نحن المشردون، وعلى رغم الحاح وكرم وضيافة اهل الدار، بشهية مكسورة تتطابق مع ارواحنا.

مضى اليوم الثاني مثل الاول مليئا بإحساس الخجل والقهر والتشرد، وتساؤل في

داخلنا: ما هي الخطوة التالية؟ لأننا لا نستطيع عمل شيء سوى الانتظار بما سيقرره اخوالنا. كان الجميع يحاول التخفيف عنا، واعطاءنا احساسا انسانيا بالتعاطف معنا، ونمنا تلك الليلة بترقب شديد بعد ان اخبرنا خالي اسماعيل ان الرحيل الى طهران سيكون مبكراً لذا نام الجميع مبكراً تلك الليلة.

كان نومنا في هذه الليلة مليئاً بالقلق والتوجس، بعد اذان الفجر تجمعت القافلة المشردة كي تشد رحالها الى محطة جديدة مجهولة وهي طهران العاصمة الايرانية. بعد الافطار الصباحي وضعت ممتلكاتنا في السيارات، وبعد التوديع الشاكر الباكي لمضيفينا الكرام في كل شيء تحركت المركبتان باتجاه العاصمة طهران.

الطريق الى طهران استغرق تقريبا عشرة ساعات، مررنا من خلالها بمدن وقرى كثيرة، ودهشنا لوجود وجودة الطرق الخارجية (الاتوبانات) المتعددة وهذا ما لمسته في شوارع اصفهان. والجدير بالذكر ان طريقنا الى طهران لم نجد فيه مفرزة واحدة ولا تفتيش على عكس ما كان في العراق، فكانت مناطق التفتيش كثيرة وخصوصا اذا كان يسكن في المنطقة احد ازلام السلطة او زيارة احد منهم الى منطقة معينة.

توقفنا عدة مرات للاستراحة، ومن علامات المرور عرفنا اننا دخلنا العاصمة وكانت الاوتوبانات التي تربط العاصمة ببعضها كثيرة ومتعددة. العاصمة كانت محاطة بسلسلة جبلية شاهقة وقيل لنا حينها ان عدد سكانها يقارب 14 مليون نسمة.

ودخلت السيارتان منعطفاً، واصبحنا داخل شوارع المدينة التي كانت لنا مفاجأة كبيرة مما شاهدناه من الحضارة العمرانية، وكان الشارع الذي كنا نمر به يسمى «خيابان مصدق» اي «شارع مصدق» الذي استبدل اسمه بعد الثورة، الى «شارع ولي عصر»، وكان جميلا وعلى جانبيه، رأيت العمارات الشاهقة والمعارض الكثيرة، وهو مشجر وطويل وقيل لنا انه يمتد حوالي العشرين كيلومتر. كان للشارع ايضاً تقاطعات اخرى واسعة ودلالة العمران كثيرة، وهنا بدأ الحوار الذاتي والمقارنة، وكيف كان النظام يغدق على الحفلات على «الكاوليات» اي الراقصات الغجريات، والسرقة من طرف، ومن طرف اخر كان يبني السجون ومعاقل التعذيب وشراء اسلحة وادوات تعذيب عصرية ليعذب الشعب، وكي يكون سجن كبير اسمه العراق.

بدخولنا المدينة المكتظة بالناس والشوارع الكبيرة والساحات الواسعة التي بنيت على سفوح الجبال، رأيت النساء المحجبات يركبن الدراجات البخارية مع الرجال، واظن انهم الازواج او الاخوة. كان الازدحام شديدا لكثرة السيارات والعجلات، وهذا منحني وقتا للنظر للحياة العامة في تلك المدينة الواسعة المكتظة بسكانها. رأيت نساء يوزعن اعلانات سياسية، او يبعن الجرائد واشياء كثيرة كنت غير معتادة ان اراها في وطني المتعب الذي يعاني من ظنك العيش وسلب ارادته وحريته.

رأيت معالم الثورة في طهران بشكل اوضح، ولا يزال يُشعر المشاهد باستمرارها، رأيت شعارات كتبت على حيطان المباني والبيوت تندد بالموت لحاكمهم السابق، وشعارات دينية كثيرة كُتبت في المظاهرات التي راح ضحيتها شباب كثيرون، وكذلك رأيت بكثافة صور السياسيين من أحزاب مختلفة (يسارية واسلامية وليبرالية) للترشيح للانتخابات (جرت في شهر كانون الثاني/ يناير1980) التي كانت اول انتخابات تُجرى بعد سقوط حاكمهم السابق شاه ايران، انا اكتب عن حرية الانتخابات عام 1980 التي ابهرتنا وكانت لنا شبه صدمة لتعدد وحرية تلك الاحزاب في الترشيح. اخذتني ذاكرتي لمهزلة الانتخابات التي كانت تجري في بلدي ولحزب واحد لا غير، وكيف كانوا المنتمين لذلك الحزب يحتفلون بفوزهم بالأجماع 99% وكنت حينها افكر في الواحد بالمائة 1 % من هم هؤلاء الذين رشحوا انفسهم ضد جبروت النظام؟ ولأي حزب غامض ينتمون؟ لان كما كان معروفا لم يكن في ساحة الانتخابات سوى حزب البعث الحاكم، وحسب ذاكرتي ان اغلب الشباب والمثقفين المناوئين للنظام في السجون او اعدموا او فروا من الملاحقة الى مناطق غير معروفة للأمن العامة التي كانت بدورها تضغط بشكل بشع على عوائلهم لمعرفة عناوين ابنائهم (ان عوائل الملاحقين كانت عوائل بسيطة لا تعرف اي شيء عن اولادها ولكن الامن العامة كانت تمارس على تلك العوائل الضغوط الغير انسانية لتحقيق اهدافها)، وبالإضافة الى ذلك ان غالبية الشعب وقعت على قانون الاعدام في حالة الانتماء الى حزب اخر. اي ان الشعب العراقي قد وقع على اعدامه!

اتذكر اجواء الانتخابات في الجامعة وصوت المكبرات المزعجة تدوي لأناشيد الحزب الحاكم، كان جواً خانقاً للطلبة المستقلين والذين لا يرغبون بالاشتراك

بتلك الانتخابات ولكن كان الجميع مجبرا وان عدم الاشتراك تدل على عداء للنظام والعواقب قد كانت وخيمة. كثير من الاشاعات ولربما حقائق كنا نسمعها حينها عن كيفية اجراء الانتخاب، من ضمن ما قيل ان الانتخابات كانت مصيدة لمن يناهض الحكم المستبد وان اوراق التصويت كانت مرقمة تدل على صاحبها. كان اسبوع الانتخابات في الجامعة كما اتذكره هو عبارة عن عرض لقوة واستبداد النظام واشارة واضحة لخنق حرية الفكر التي كانت في ازدياد كبير خلال السنتين الاخيرتين1979 و1980. مسرحية الانتخابات كانت لا تخلو من الاحداث وحتى من المُزح التي كان يتداولها بعض العراقيين بصورة خفية. اتذكر ان ابن عمي صادق (خريج الثالث المتوسط) وكان يعمل في احد مصانع الكبيرة التابعة للدولة وكان اغلب العمال، كما ذكر لنا، لم يكملوا حتى الدراسة الابتدائية. كان العمال مجبرين على ممارسة الانتخاب، وفي يوم الانتخاب حضر احد المسؤولين في المصنع وهو وجه معروف للحزب وخاطب جمهرة العمال عن كيفية الانتخاب قائلا «اذا اخترتم الورقة الخضراء فانتم معنا والذي يختار الورقة الحمراء نشعل ابو ابوه» وبهذه «الديمقراطية» كانت تجري الانتخابات.

كان أخوالي يقصون علينا ما جرى حينها ويترجمون لنا بعض الشعارات، وكنا ننصت الى ما يقولون بشغف، كي نعرف جزءاً من التاريخ الذي اصبحنا شهوداً عليه. تحدث خالي عن قطع القماش السوداء وصور الشهداء الشباب التي لا زالت مراسيم التعازي السنوية تقام لهم، وحزن النساء التي لم تجف عيونهن من البكاء على فراق احبائهن الابدي. بعد هذا الحديث وذاك، وصلت القافلة المحملة بالمشردين الى بيت خالي في منطقة راقية اسمها «يوسف آباد». كانت المباني جميلة بشوارع فرعية عريضة جداً ونظيفة.

وضع اخوالي سياراتهم في البارك تحت البناية لنصعد الى شقة خالي في الطابق الرابع، وفي باب الشقة التقينا بأولاد خالي اسماعيل: كاميران وكان عمره 16 سنة، وكيوان وعمره 14 سنة، فاستقبلونا بحفاوة ثم دخلنا الى الشقة كانت واسعة واثاثها فاخر جداً والارض مفروشة بالسجاد الايراني اليدوي الثمين.

دخلنا فيما خالي وزوجته يزيدان الترحيب بنا، محاولين قدر الإمكان ان يقللا من

الحزن الظاهر علينا. اعطونا غرفة كبيرة كي تكون لنا الى حين ايجاد حل. كان في الغرفة الواسعة المفروشة بالسجاد الايراني، بخزانات ملابس مبنية في الحائط فيها اغطية وفرش للزائرين من اهل زوجة خالي وهكذا اصبحت غرفتنا بشكل او بآخر.

منذ دخولنا بيت خالي اصبح وجه ابي شاحباَ، لأنه عزيز نفس وذو كرم كبير، وربانا على هذا الكبرياء الانساني بعدم مد اليد وانما العمل لان العمل هو شرف وجودنا، وها هو يرى نفسه وعائلته تحت رحمة الزمن الذي اخذ منه زمام الامور وجرده من كل شيء، ولكن لم ولن يستطع تجريده مما شاب وتربى عليه من الاعتزاز والاعتماد على النفس، لذا كان وجه والدي رافضا لتلك الحالة.

بعد الوصول عصراَ وشرب الشاي، عرضوا علينا الاستحمام الذي رفضناه بأدب قبلا في اصفهان، لعدم توفر المناشف الكافية كما اننا لم نرغب بزيادة العبء على مضيفينا، حينها قالت والدتي لخالي عن السبب، فزودونا هنا بمناشف كي نستعد للاستحمام.

كانت الحمام ودور المياه غربية لم نعتد عليها في بيتنا الشرقي البسيط. بعد الاستحمام واخذ ملابسنا والملابس التي في الكيس التي قاربت رائحتها حالة العفونة الى الغسيل، ذهب خالي الثاني الى بيته بعد وجبة العشاء ووعدنا ان يأخذنا لزيارة عائلته بعد الارتياح من عناء السفر.

تلك الليلة لم ننم جميعنا بارتياح لان والدي بدأ بالتمرد، وكانت مناوشات هامسة بين العائلة وتهديد والدي بالرجوع الى بغداد حتى لو كان مقتولا، وحاولنا قدر الإمكان ان نخفف من حالته الرافضة، وخفض أصواتنا كي لا يسمعنا اهل الدار لذلك كانت ليلة فيها الخوف من تفكك العائلة.

ودخلت اول ليلة لنا في طهران لتكون فاتحة لمشوار قاس اسمه ليالي الخوف في المنفى.

طهران و... العقد الفريد[1]

بسبب الحرب العالمية الاولى، وتجنيد الكثير من العراقيين للقتال الى جانب الدولة العثمانية، بحكم سيطرتها على العراق، كانت عوائل عراقية كثيرة خائفة من زج اولادها في الجندرمة اي الجيش لإرسالهم الى جبهات الحروب، لذلك اضطرت فئة من الشعب الى عدم تسجيل انفسها كتبعية عثمانية، ولكن اختار بعضهم تبعية اجنبية مثل التبعية الايرانية، او ان يبقى بدون هوية للتخلص من المشاركة في الحروب. هذا ما سمعته من عوائلنا مراراً، ولربما قد كُتب ذلك في كتب التاريخ، وبما اني لست سياسية، بل اكتب فقط ما سمعته، والعهدة على الراوي كما يقال، فقد اسُتغلت قضية «التبعية» من قبل النظام الشوفيني لتشريد العراقيين مع الحجز على اموالهم المنقولة وغير المنقولة وسرق هويتهم. والعراق كما هو معروف لم يكن بلد قانون، وعلى ما اتذكر ان القوانين كانت ارتجالية تُشرع وتُلغى حسب اهواء النظام الحاكم. واتذكر طرفة تناسب ذلك الموضوع: «في يوم من الايام صدر قانون بمنع تربية الشوارب فقام احد الرجال، وبدأ بحلق شواربه وكان حينها يستمع الى الراديو، حلق الرجل نصف شاربه وفجأة بث الراديو قانونا يمنع حلق الشوارب، ويعاقب من لا ينفذ هذا القانون، فخرج الرجل الى الشارع بنصف شارب، وهنا سأله احدهم عن

---

(1) «العقد الفريد» بحسب «موسوعة ويكبيديا» هو كتاب من تأليف ابن عبد ربه الأندلسي. ويشتمل الكتاب على جملة من الأخبار، والأمثال، والحكم، والمواعظ، والأشعار وغيرها. وقد سُمي بـ«العقد» لأن ابن عبد ربه قسّمه إلى أبواب أو كتب حمل كل منها حجر كريم، كالزبرجدة والمرجانة والياقوتة والجمانة واللؤلؤة، وغير ذلك مما تناول عقود الحسان الحقيقية.

السبب فأشار الرجل الى النصف المحلوق على انه القانون الاول والغير محلوق بانه يتماشى مع القانون الثاني».

في تلك الليلة لم يغمض لنا جفن لتمرد الوالد على الوضع ولا زال يرفض التهجير باعتباره عراقي الاصل، فان ابي معروف في المنطقة بلقب «جعفر الكرخي»، وهو من مواليد الكرخ ـ سوق حمادة، وهذا البيت الذي ولد فيه اي بيت جدي، كانت تقطنه ولغاية تسفيرنا احدى عوائلنا، وكذلك مشاركة جدي في ثورة العشرين، ومشاركة عمي في محاولة تحرير فلسطين عام 1948، بالاضافة الى خدمة الوالد وخدمة اخي في العسكرية كانت من الاسباب التي تجعل والدي يرفض البقاء ويريد العودة للحصول على حقه في البقاء في الوطن.

في مسجد خسروي وبعد مجيء اختي وسماع اغنية الفنان فريد الاطرش، كان هناك نقاش يدور بين الشباب عن التهجير، وكان والدي جالساً على الارض قال احد الشباب «لربما سيصدر عفو عن المهجرين ونرجع الى الديار ثانية» وهنا نهض والدي وتكلم مخاطباً الشاب والمتناقشين بصوته الرجولي المُتزن قائلاً: «يا ابني العزيز من يعفو عن من؟ اي جريمة اقترفت هذه النساء البواكي والاطفال؟ وهنا ذكر والدي اخواته وكما اسماهم «سبايا الحريم»، وبيت عمي المسالمين وضحايا المسجد، والشعب بأسره، واشار الى تلك الجريمة التي لم يكن الوطن او الشعب ضالعين فيها، وانما النظام الذي لا يمكن العفو عنه، ولسنا سوى جزءا من ضحاياه، وكان الشباب ينصتون بشغف لكلمات والدي، ثم ايدوه بما قاله من حقيقة بأن النظام هو الذي اجرم بحقوق الوطن والشعب.

وهنا ذكرنا والدي في ما قاله في خسروي تعقيباً على كلام احد الشباب، وان رجوعنا الى العراق مستحيل والمخاطر الناتجة عنه، فصمت والدي وتراجع عن موقفه رغم ان صراعا شديدا يدور في داخله، ونحن ابناؤه نعرف والدنا وعزة نفسه والحالة النفسية التي كان يمر بها، وهي قاسية جداً على رجل كان يعمل طيلة حياته وفي ليلة وضحاها يفقد وتفقد عائلته كل شيء حتى الهوية.

ابتدأ يومنا الجديد في بيت خالي وكانت ضيافتهم كريمة جدا ولكن الخجل

كان مرافقا لنا نتيجة التشرد، وفي هذا اليوم بدأت عائلة والدتي (اخوتها واخواتها) بالاتصال التلفوني المكثف للسؤال عن حالنا ومشاركتهم الوجدانية لوضعنا التشردي البائس، وكانت اسئلة الاحبة كثيرة ورغم براءة تلك الاسئلة وكان مصدرها الحب ولكن كانت اجوبتها تأخذ من طاقتنا الكثير، تضرم النار في عقولنا ونفوسنا وتولد فينا حالة ازدراء من وضعنا هذا.

في تلك الليلة كنا متعبين من كل شيء وخصوصاً التأقلم في بيت مضيفينا الاعزاء، حاولنا الخلود الى النوم مبكراً طلباً للهدوء النفسي، وكما ذكرت كنا ننام في الغرفة الكبيرة متوزعين في مواضع النوم. كنت نائمة بالقرب من اخي «حامد» الذي لو قدم امتحاناته النهائية لاصبح مهندساً، كان بالقرب منا ينام اخي الصغير «منصور» وسمعت حديثاً دار بينهما اذ قال اخي حامد ممازحاَ اخي الصغير «انت فرحان لأنك خلصت من المدرسة والامتحانات »، وهنا اجابه اخي الصغير وبصوت باكٍ بانه يفتقد اصدقاءه في المدرسة والشارع ويفتقد بيتنا، وانه يفهم كل شيء يدور، ولكنه لا يبكي كي لا يزيد حزن والدي ووالدتي، ثم سمعت اخي يشاركه الألم ويحاول تهدئته. كانت اصواتهما مسموعة رغم محاولة الحديث الهامس فتألمت جداَ لمشاعر اخي الصغير الذي وعى التشرد رغم حداثة سنه».

في اليوم التالي كانت زيارات مكثفة من الاخوال والخالات وبين البكاء والاحاديث الكثيرة عن التهجير، والكلام كان باللهجة العراقية وكذلك دعونا لزيارتهم، وبقينا على هذا الحال حوالي الاسبوع، خلالها خرجنا قليلا الى الحدائق، خالي اسماعيل واولاده رافقونا لمعرفة منطقتهم وكانت مفاجأة لنا حيث لأول مرة نزور متنزه (پارك) في طهران خلف بيت خالي اسماعيل. كان الموسم ربيعاً، كنت احس بنقاء الجو الخالي من التراب، الناس في الشوارع كانوا حلوين ونظيفين وكأننا في مدينة اوروبية ولكن بجو شرقي يعطيه نكهة اجمل. خلال تلك النزهات القصيرة سأل اخوتي خالي عن امكانية العمل، ولكن جوابه هو علينا التريث في البحث عن العمل، وسيحاول طلب المساعدة لان عائق اللغة وعدم معرفة جغرافية المكان ونوع العمل في الوقت الحالي كان صعباً. ولكن حالتنا هذه تتطلب منا ان نأخذ زمام الامور بأنفسنا لان بقاءنا في بيت خالي الكريم لم يكن سهلاَ والاحساس بالثقل عليهم كان كبيراً.

التحرك للبحث عن عمل من بيت خالي كان صعباً لبعده عن امكنة العمل الحقيقية، والتي غالباً يمكن ايجادها في ورشـات عمل في المناطق الفقيرة والمزدحمة لذا البقاء هنا سيكون ثقلاً للطرفين. في الاسبوع الثاني بدأنا بتلبية دعوات الاقارب الاحبة ولكننا كنا مكسورين وكان الاحساس بالثقل رغم الضيافة الكريمة للجميع فكان عليهم نقلنا من بيت خالي اسماعيل الى البيوت الاخرى وعلى المضيفين ارجاعُنا ولم يكن الامر يسيراً. كان اولاد الجيل الاول من عائلة والدتي يتكلمون اللهجة العراقية بشكل جيد اما الجيل الاصغر عمرا والجيل الثاني كنا نتكلم ونتفاهم معهم باللغة الانكليزية، وكانوا يحاولون التخفيف عنا ولكن هيهات من تلبسه الحزن، فهو لا يستطيع التواصل، وكنا رغم ذلك نحاول ان نضحك ونتمازح معهم محاولين اخفاء الجزء الكبير من حزننا الذي يأكلنا من الداخل ويدمينا من الاسى. ذهبنا لزيارة عدد من الاخوال وبقينا في بيت خالتي ام ناصر لمدة ثلاثة ايام وكانت امرأة كريمة وطيبة لدرجة كبيرة ولكن كما نقول في بلدنا «بيت الله عكب بيتي لا والله» وهكذا كان شعورنا الداخلي بالضياع والتشرد يزداد يوماً بعد يوم، والدتي ووالدي كانوا قلقين ويبكون كثيراً على وضع اختي في العراق والخوف عليها من الاوغاد، وكنا نفتقدها جميعاً وكذلك لم نعرف مكان عماتي السبايا وبيت عمي ولأننا بابتعادنا عن المخيم انقطعنا كليا عن اخبار الوطن وما يحدث فيه.

والدتي تحاول ان تُرضي جميع الاطراف خصوصاً الوالد وتخفي ألمها كي لا نشعر بضعف موقفنا، فقد تعبنا من حالة الضياع والضيافة وكنا نريد حلاً عاجلاً لوضعنا هذا وان لا ننتظر اكثر من ذلك.

طلبنا من الوالدة ان تكلم اخوتها في ايجاد حل، واحد الحلول طرحته والدتي وهو ان نسكن في بيت ابيها المهجور منذ اكثر من عشرين عاماً، وفعلاً كلمت اخوتها ورغم رفضهم لان البيت غير صالح للسكن، ذهبت والدتي الى بيت جدي برفقة احد اخوالي ووالدي ورجعت يومها باكية حزينة لان البيت حسب قولها رغم كبره، خرابة وغير صالح للسكن لان جدران البيت تهتز عند المشي او الحركة لذلك كانت الخطورة كبيرة في ان نسكن فيه.

في تلك الليلة وبعد المناقشة العائلية قررنا وبحزن كبير قرار التقسيم اي نتوزع

على عدة عوائل محاولين بذلك تقليل الزخم لان عشرة اشخاص على عائلة مضيفة واحدة كان ثقلاً كبيراً كنا نحسه رغم الضيافة والكرم. وكان اليوم التالي يوم التنفيذ فتوزعنا كل اثنين على عائلة والوالد والوالدة في بيت احد اخوتها الكرام.

وبهذا انفرط «عقدنا الفريد»، وتفرقنا بألم وحزن عن بعضنا، وكان ذلك مؤلماً جداً لمن تعود طيلة العمر على الجو العائلي والتعاضد ومشاركة الفرحة والالم مع بعضنا، وهذا كان تشردا من نوع آخر حيث اصبحنا منفردين بأحزاننا.

وهكذا كان «قرار التقسيم» وانفراط «العقد الفريد»... من اقسى قرارات المنفى.

16

طهران... وتنور أمي

خلال ذهابنا في الاسبوع الثاني الى بيوت الاقارب، تعرفنا على معالم المدينة بشكل اكبر. طهران وهي العاصمة كانت واسعة وشوارعها معبدة حتى في الازقة، وكانت ساحات المرور كثيرة واحياناً تكون مكونة من عدة خطوط للسير. اغلب الشوارع كانت على جوانبها ما يسمونه «چوب» فيها تجري مياه المجاري العامة المستعملة في الحدائق او في احواض البيوت. الشوارع كانت جميلة ونظيفة وعريضة ومشجرة وطهران منقسمة الى شمال وجنوب. في الجنوب حسب ما رأيت يسكن الناس متوسطو الحال في اوضاعهم المعيشية وكذلك الفقراء، وهذه المناطق تكون مكتظة بالسكان، ورأيت لأول مرة باصات نقل الركاب العامة التي تدخلها النساء من الباب الخلفي والرجال من الباب الامامي، واما شمال العاصمة فيسكن الاثرياء، حيث البيوت الكبيرة والقصور ذات المسابح. كانت طهران مبهرة لنا وعلى جميع الاصعدة. الشباب ولد وبنات في حرية كاملة وجو ديمقراطي جميل كنا نتمناه ان يكون في العراق.

كنت احاول ان اقرأ بعض الكلمات المكتوبة على المحلات والسؤال عن معناها لتعلم اللغة الجديدة، وهكذا كنا جميعنا نحاول تعلم اللغة، كي نستطيع بعد ذلك التعامل مع الناس. والدي لم تكن عنده رغبة لتعلم اللغة الجديدة لصعوبتها ولكبر سنه.

والدتي استمرت على لبس العباءة العراقية، رغم الالحاح عليها بأدب ان تلبس الشادر الايراني، ولكنها كانت تقول بأنها متعودة على لبس العباءة وسهل عليها ارتدائها.

اما نحن البنات بعد وصولنا الى بيت خالي اسماعيل، نصحتنا زوجة خالي بلبس

الإيشارب فوق رؤوسنا احتراماً للدولة المضيفة، واعطت لكل واحدة منا ايشارباً للتحجب فشكرناها على ذلك.

كان التسفير لنا نقلة حضارية لما رأيناه من تقدم في اصعدة كثيرة، ومنها ايضاً ان اغلب البيوت كما شهدنا وكما قيل لنا، كانت مزودة بأنابيب الغاز في المطابخ وفي التدفئة وكما يسمى «البخاري»، وهذا لم اره في عراقنا الحبيب سوى في منطقة خانقين النفطية عند زيارتي لبيت عمي الذي كان يشتغل هناك مهندسا للنفط، اذ كانت انابيب الغاز في البيوت، وتذكرت كم كانت امي تتعذب لتبديل قنينة الغاز، اذا فرغت وكان كثير من الناس يعتمد على استعمال النفط في الطهو او للتدفئة، واسفت على بلدي الغني بالبترول وبالتخلف وعذابات المواطن اليومية.

كانت البيوت مجهزة اغلبها بالتلفون وكذلك الشوارع مجهزة بالتلفونات العامة، وتذكرت في بيتنا المسلوب قد قدمنا على طلب بمدنا بخطوط الهاتف ودفعنا الضريبة المفروضة وبعد اكثر من سنة سُفّرنا ولم نحصل على الهاتف.

الكهرباء والماء كان ايضاً مجهزاً لكل البيوت، وليس هناك انقطاع فيه لتلك المدينة المليونية واقارن العراق الذي حينذاك ينقطع الماء والكهرباء فيه، وشوارعنا غير المعبدة والمحفرة، وعندما تمطر يتكفل الطين بتلطيخ اجسادنا وثيابنا، ويصبح سير الانسان صعبا، فسألت نفسي اين كانت تذهب اموال العراق الطائلة؟

لم اكن اريد المقارنة، ولكن المقارنة كانت تفرض نفسها، ولعمق حبي لوطني وللمواطن العراقي الذي يعاني والمحروم من ابسط حقوقه اليومية في ان يعيش مكرماً معززاً في بلد ثري بالحضارة والبترول والماء والطبيعة.

عائلة والدتي كانت تهتم بوجبات الغداء مثل عوائلنا، في طبخ الاطباق العراقية وخصوصاً الرز والمرق مثل الباميا والباذنجان ولكن طريقة التقديم كانت تختلف اذ تقدم صحون فارغة لغرف الطعام والسفرة او طاولة الطعام كانت لا تخلو من الخضرة كالفجل والريحان والكرفس والخضر الجديدة مثل الترخون.

كانت العوائل تلح علينا بالأكل، ولكن لم تكن هناك شهية لحساسيتنا وخجلنا لكوننا مشردين، ويتامى عن الوطن.

في الاسبوع الثاني بدأ اخوتي بالبحث عن عمل كي يتحملوا جزءاً من المسؤولية، ورغم صعوبة ايجاد عمل كان اصرارهم كبيرا بقبول اي عمل كان وبأي اجر، ليكون البداية بدلاً من البكاء واجترار الاحزان، وهذا ما قد تربينا عليه، لذلك عندما كنا نذهب لدعوة الاقارب لم نكن نذهب كعائلة كاملة، اذ يكون بعض من اخوتنا قد غاب كي لا نثقل على الاخرين.

لقد وجد اخوتي أعمالا صعبة، وبعيدة وبأجر زهيد لا يكفي قوت يومهم، فأشتغل اخي الكبير في ورشة نجارة بعيدة جداً، فكان يخرج من بيت خالتي ام ناصر فجراً ليرجع الى البيت بوقت متأخر وعيناه حمراء نتيجة الحساسية من نشارة الخشب.

ان قرار التقسيم رغم قساوته منح لنا الفرصة ان نتحرر من قيود الضيافة الكريمة والكبيرة، واعطت لنا الفرصة وللعوائل الكريمة ان يرافقنا بعض افرادهم للتعرف على اطراف المدينة او للبحث عن عمل وكنا لهم شاكرين لمحبتهم وضيافتهم.

بعد قرار التقسيم زودنا ببعض أرقام هواتف الأهل وكنا احياناً نتصل ببعضنا لان تنقلنا بين العوائل لم يخطط له، وكثيراً ما كان يكون بمحض الصدفة. كل واحد منا اخذ ملابسه بكيس او قد اعطونا الاهل بعض الحقائب الصغيرة. وكنا نلتقي احياناً لحضور دعوة من احد العوائل الطيبة وكانت هذه فرصة للقاء العائلة المشتتة.

كنت في بيت خالي قاسم الذي جاء الى اصفهان لنقلنا من المخيم والتقيت مع اخي احمد بمحض الصدفة وتحدث لي اخي بما شاهده مع اخوتي في طهران قائلاً: «كنا نحس بالروح الثورية العالية لدى الشبيبة. في شارع الثورة (خيابان انقلاب) كان النقاش كثيراً وفي جميع الاوقات صبحا، ظهرا، عصرا وحتى ليلاً. حدة النقاش قد تصل الى درجة ارتفاع الاصوات لكن دون اهانة او ضرب او ملاحقة، وهذا دليل قاطع على الرقي واحترام الآراء رغم الاختلاف. كما تعرفين نحن نجهل اللغة الفارسية للأسف لكن الاحساس بممارسة الديمقراطية كان رهيبا جداً. ان شارع (خيابان انقلاب) وقرب جامعة طهران كانت الساحة السياسية ونبض الشارع وما يحدث في البلد. الاحزاب لا زالت كثيرة ومتنوعة وليس هناك سيطرة حزب ما على السلطة كما فهمنا. هذه التجربة الفريدة بالنسبة لنا عشناها وحسرة في القلب لما

يجري في العراق حيث الدكتاتورية توسع من ممارساتها الاجرامية تجاه كل من هو معارض او حتى مستقل، كانت الموسيقى تباع على الارصفة حيث الكشكات وهي حالة جديدة لم يكن مسموح بها في نظام الشاه سابقاً كما اخبرونا. النظافة العامة كانت في كل انحاء المدينة حتى في المناطق الشعبية. اما نظام دخول السيارات الى داخل المدينة نشاهده لأول مرة الحضارة هي ممارسة وليس تاريخ في الكتب.»

قضيت اياماً في بيت خالي قاسم، وهنا ساعدني ابن خالي واسمه «مسعود» للذهاب الى جامعة طهران، وبالذات كلية الطب البيطري من اجل الاستفسار عن عمل، فقابلت في الجامعة، أحد الاساتذة وتكلمنا باللغة الانكليزية واخبرته بوضعي فحزن على قصتي وللأسف اخبرني بأن جامعة طهران مغلقة حالياً ولا يعرف احد متى ستفتح ابوابها ثانية، واعطاني رقم الهاتف كي اتصل به بين مدة واخرى لمعرفة اخر التطورات، فخرجت من الجامعة حزينة مخذولة.

في طريق عودتنا الى البيت رأيت مطعما، ومن خلال الزجاج رأيت تنور الخبز، فنزلت دموع حارة على خدي، فتذكرت بيتنا وتنور امي الذي كانت تعد فيه الخبز لعائلتنا، وكيف كنا سعيدين بحياتنا البسيطة هناك في البلد الذي اصبح بعيدا خلف حدود الكون.

وهكذا دخل تنور امي.... ليكون حلما بعيد المنال في المنفى.

أختي وملاحقات.... جيمس بوند

كان التشرد الجديد يجعل الحنين الى لقاء الوالدين وباقي الاسرة كبيرا، لا ندري ما كانوا يمرون به وكان من طبع العائلة ان تخفي عن بعضها ما هو مؤلم كي لا نسقط في اليأس الذي قد يؤدي الى الرغبة من التخلص من هذه الحياة. في هذا الضياع الكبير كنا نحس ببعضنا ونتألم ولكن ليس كان هناك حلاً للوضع الجديد. وفي اتصالاتنا التلفونية كانت كلمة «نحن بخير» هي التي تعاد كي يعم الهدوء بين الجميع. ومن بيت خالي قاسم ولعدم معرفتي لاطراف المدينة الواسعة طلبت ايصالي الى بيت خالي اسماعيل الساكن في منطقة «يوسف اباد»، وفعلاً اوصلوني بعد الحاح شديد عليٌ بالبقاء عندهم.

وهنا التقيت في بيت خالي اسماعيل وبالصدفة بأختي سجواء طبيبة الاسنان، وفرحنا وبكينا بلقائنا، وبحثنا بهدوء امر العائلة التي لا نعرف من اخبارها سوى القليل، وبحثنا عن حلول جديدة وكانت صعبة لعدم وجود عمل يكون مصدرا ماديا نستطيع عبره تأجير بيت يلم أشتاتنا المتباعدة.

في تلك اليلة نمت بجانب اختي وسألتها كيف تم تسفيرها لانها لم تتكلم سوى القليل، لعدم رغبتها ان تقلق والدينا وتحزنهما، عن وضع اختي المتزوجة التي ظلت في العراق. في تلك الليلة تحدثت اختي عن ما قاسته فقالت لي ما حدث لها: «عند اتصالنا بها في ليلة التهجير اخذت اجازة ورجعت الى بيتنا، وصلت بعد الظهر، ووجدت البيت مختوما بالشمع الاحمر وخاليا من الأهل، بدأت ابكي فاخبرني الجيران ان أهلي قد سُفّروا، وان اختي المتزوجة قد ذهبت الى بيت خالة والدي والتي كنا نسميها عمة ام وسام».

وعندما تتحدث كانت تبكي، وقالت: «مشيت الطريق الى بيت عمتي ودموعي تسبقني، وحقيبة ملابسي في يدي، وكنت احس ثقلا في روحي وفي قدمي، وكان بيت عمتي يبعد عشرة دقائق مشياً، ولكني احسست به بعيداً لكثرة الحزن الذي انا فيه. وصلت الى بيت عمتي لاجد اختي الكبيرة جالسة على الارض تبكي وتلطم خدها ورجليها، وعندما شاهدتني ازداد بكُاؤها وعمتي واولادها يشاركونا البكاء والحزن. بعد فترة من البكاء والعويل بدأنا بالتفكير بحالي وما سيكون عليه والخوف مما سيحدث، وهنا اعلنت برغبتي في البقاء الى جانب اختي ولربما اكّون عائلة الى جانبها كي تخفف الوحدة التي ستكون اختي الكبيرة عليها وسأبقى في الوطن. بعد وجبة الغداء الممزوجة بالدمع في بيت عمتي ذهبنا الى بيت اختي وتبادلنا الاراء وقررت الذهاب الى بيت عمي في البصرة للاستراحة، وأخذ الرأي وايجاد حل لاني كنت مجازة من العمل. ذهبت برفقة زوج اختي الى الكراج لقطع تذكرة الى البصرة وللاسف لم احصل على تذكرة لعدم وجود مكان. لذلك طلبت من زوج اختي ان يوصلني الى المحطة للذهاب بالقطار وهو لم يتركني لان الليل بدأ يخيم بظلامه، فأوصلني بسيارته، وهناك التقيت بصديقتي مارغريت واحد اصدقائي في كلية طب الاسنان لغرض الوداع. وانا واقفة قرب شباك التذاكر، واذا بمسلحين يقومون بإحاطتنا، واتهموا زوج اختي بانه يحاول تهريبي فقلت لهم انا لست هاربة لعدم وجود سبب لذلك، واني مجازة من عملي كطبيبة اسنان وان زوج اختي ليس له دخل في الموضوع، وانا طلبت منه ان يوصلني الى المحطة لان الوقت متأخر، واني التقيت وبالصدفة بزملائي وكنت اتكلم بصوت واضح حتى يسمع الجميع ما قلته. بعد ذلك امروا زوج اختي بالصعود في سيارته معي ومع زميلي، اما صديقتي فقد تركوها تذهب الى البيت وكان علينا السير خلف سيارتهم الى مديرية الامن العامة. تبعتنا سيارة المسلحين الى الامن العامة، وكان الوقت متأخرا فجلسنا في الانتظار وفي داخلنا خوف ورعب كبيرين لما سيحدث بعد ذلك. بعد الانتظارالطويل حققوا معنا لمدة قصيرة وأخذوا تعهدا من زوج اختي لاحضاري في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، فوافق زوج اختي وخرجنا من الدائرة بعد منتصف الليل. ركبنا السيارة ونحن مجهدون وخائفون وفي طريق العودة البيت وقع حادث للسيارة، وقد

تهشم جزءاً كبير منها، لكن زوج اختي تمالك نفسه، ووصلنا الى بيت اختي المرعوبة التي كانت في الانتظار المميت خوفا على الجميع فكانت في حالة يرثى لها ومنهارة عصبياً. اما زميلي وكان مسيحيا وانسانا طيبا جداً وبعد التحقيق معه، وعرفوا انه طبيب اسنان، اخلوا حال سبيله وعاد معنا الى البيت وبعد ساعة فارقنا مودعاً وكنت خائفة عليه ودعونا له بالسلامة. كنا متعبين جداً فحاولت النوم بجانب اختي، ولكننا قضينا السويعات الاخيرة في البكاء والوداع الذي كان لا مفرمنه. في الصباح الباكر اصطحبني، اختي وزوجها، الى مديرية الامن، وذهبنا مبكراً لعدم معرفة زوج اختي العنوان. وصلنا في السا ىة الثامنة دخل زوج اختي معي في الدائرة تاركين اختي المنكوبة خارج المبنى. رطلبوا منا ان ننتظر وجلسنا مدة طويلة في الانتظار.

بعد الانتظار طلبوا من زوج اختي ان ينصرف. وبعد ذلك ادخلوني في غرفة لوحدي وكنت خائفة وقلقة وبعد اكثر من نصف ساعة دخل المحقق وسألني عن عملي واموالي وهل لدي املاك ووجهة سفر البارحة، ولم اذكر اسم عمي خوفا عليه وهنا قال محقق الارهاب انت كنت ذاهبة الى بيت عمك وزوجته الاجنبية؟ (زوجة عمي من المانيا الغربية)، وقبل ان اجيب تغيرت لهجة المحقق الارهابي معي، وقال انت طبيبة اسنان والبلد محتاج الى خدماتك فانا اعرض عليك البقاء هنا لخدمة الوطن فأجبته اني فعلا كنت ارغب في البقاء، ولكن الاهانات والمطاردة البشعة التي عانيتها وكأني مجرمة تجعلني ارفض الطلب واريد الالتحاق بعائلتي التي سُفّرت.

اخرجني المحقق بشكل قاس، وطلب مني الانتظار حتى يمكن نقلي الى الحدود وبعد نصف ساعة، جاءت سيارة فرأيت فيها افراد عائلة معروفة في العراق، مكونة من اربع فتيات ووالديهن، وقبل تحرك السيارة فتحوا الباب ثانية، وقالوا لهم لستم انتم المقصودين، وحسب ما فهمت ان الفدية قد دفعت من اجل بقائهم. انزلت من السيارة، وكان عليّ الانتظار وبعد نصف ساعة جاءت سيارة ثانية كان فيها عائلة اخرى، وكانت معها اكياس نايلون وضعوا فيها ملابسهم، وامرني رجل الامن ان اصعد وهو ينزل من السيارة قلت له «أنزل وقسم السرقة بينكم»، وهنا رفع رجل الامن مسدسه في وجهي قائلاً «احترمناك لانك دكتورة واذا تكلمت سأضربك بالرصاص»، ونزل من الباص وترجتني العائلة ان لا اجاوبهم واسكت بقولهم «على

بختج خلي اليوم يمضي على خير»، وبعد مدة قصيرة صعد معنا اثنان مسلحان وتحركت السيارة متوجهة الى الحدود، وانزلونا وكنا اخر قافلة هُجّرت. وبعد ذلك جاءت سيارة جيب عسكرية ايرانية نقلتنا الى مسجد خسروي».

كانت اختي تحدثت بتفاصيل اكثر ومأساة اكبر، ولكني كتبت ملخصاً مما قالته، وهي عندما كانت تتكلم كانت تبكي بحرارة وبمرارة كبيرتين، عما حدث لها في ظل نظام جاهل وبليد. كنت ابكي معها وتذكرت العذاب الذي يلاقوه ابناء وطني في سجن تترأسه الوحوش البشرية من تعذيب وقتل لجيل كُتب عليه ان يعيش ويموت في ظل نظاما ارهابيا. وهنا وتذكرت افلام جيمس بوند والملاحقات البوليسية الخيالية، ولكن ملاحقات اختي كانت حقيقية وشرسة بشراسة النظام المجرم.

وبهذا دخل «جيمس بوند 007» ...... ليكون من أغرب حكايات المنفى.

18

طهران و... رقصة البجع

غالباً عندما نستيقظ من كابوس ما على عالم الحقيقة، نشكر الله انه كان مجرد كابوس، ونحاول بشتى الطرق ان ننساه، وغالباً يحدث النسيان بعد فترة قصيرة، ولكن ان تنام وتستيقظ على كابوس دائم ينغص دقائق حياتك بل كل حياتك هذا ما لم يكن في الحسبان.

اصبحت يوميات المنفى هنا مثل يوميات سجين مظلوم يحلم بالحرية والعودة الى عالم تعود عليه، ولكن سجننا كان من نوع اخر مليء بالعذابات النفسية ولا نعرف اين المفر؟ نتنقل من ألم الى آخر، ومن تشرد الى آخر والذي بدوره يدفعنا للضياع.

الذهاب الى النوم وإطفاء الاضواء كان يعطيني حرية البكاء والخلود الى عوالم بعيدة رغم توطنها في روحي، كنت في ظلام الليل اتجاوز الحدود والظلام وارجع الى بيتنا، فأبدأ بملامسة كل شيء: الجدران، وغرفتنا ودواليب الملابس، المطبخ، والحديقة، النخلة والجيران، والذكريات تصبح كلها جميلة، وتبدأ اصوات الاطفال والاولاد الذين يلعبون في الشارع تتحول الى لحن اغنية جميلة. وكلما كثرت التفاصيل، زاد الحنين والبكاء على الفقدان.

في الثلاثينيات والاربعينيات والفترة التي سبقتها، كانت المدارس حينذاك مقتصرة على الاعيان والطبقات الغنية والمثقفة وموجودة ايضاً لعامة الشعب، ولان التعليم لم يكن اجباريا، ولقلة الوعي الاجتماعي بقيمة التعليم، كان الاطفال يذهبون الى «الكتاتيب»، عوضا عن المدارس، حيث يدرس الاطفال على يد الشيخ حفظ «القرآن الكريم» وكانت العوائل تدفع أجراً زهيداً او مواد عينية مقابل ذلك.

في ذلك الزمن البعيد كانت العوائل العراقية حينذاك تفضل ان يتعلم اطفالهم مهنة

كي يساعد الولد اهله في مسؤولية كسب العيش، ولذلك ومنذ الطفولة يحاول الابوان ايجاد حَرفي جيد كي يعلم ولدهم للاعتماد عليه في كسب المعيشة، وغالباً تعليم الحرفة وعمل الصبي كان مجانيا لفترة التعليم بدلاً من ارساله الى المدرسة لأنها غير مجدية في تفكيرهم.

اما البنات فكان مستقبلهن في الزواج، ولا يسمح لهن بالدراسة في «الكتاتيب» لاقتصارها على تعليم الاولاد فقط، واما دخول المدارس كان ممنوعا للفتاة، ولربما يعتبر عيباً حينذاك ويفضل تعليم البنات الامور البيتية واحياناً الخياطة كي تساعد البنت والدتها في الامور المنزلية وكي تصبح زوجة صالحة في بيت زوجها.

في نهاية الثلاثينيات تخرج والدي من «الكتاتيب» بعد حفظه «القرآن الكريم» بشكل جيد جداً. احتفالا بتفوق التلميذ حينذاك تعمل للتلميذ ما يُدعى «الزفة «حيث يمر الولد الذي اكمل حفظ «القرآن الكريم» واطفال المنطقة حاملين صواني فيها الشمع والياس والبخور إحتفاء بالنجاح في ازقة المحلة، وتزغرد النساء مع نثر الحلويات على رؤوس الاطفال تعبيرا عن الفرح. عملت جدتي الزفة لوالدي بسبب تفوقه. وكم كانت المراسيم جميلة حينذاك.

وبهذا كان لوالدي القدرة على قراءة وحفظ الاشعار لشعراء معروفين مثل الجواهري، ابو تمام، المتنبي والاخطل الصغير (بشارة الخوري) وجبران خليل جبران وغيرهم من الشعراء والكتاب وكثيراً ما كان يصلح اخطاءنا في القراءة او الالقاء. حب والدي للشعر وقدرته على القراءة الصحيحة والتفسير والحفظ السريع كانت مذهلة ودفعت بعضنا الى اعتناق الادب منذ سنوات الصبا.

كان والدي منذ الصغر يشتغل بصناعة الاحذية الرجالية كصنعة تعلمها منذ صغره وبهذا كان يساعد عائلته بتحمل المسؤولية، وبعد زواجه من الوالدة كان هو المعيل لامه ولعائلته، وكبرت مسؤوليته بمجيء الاطفال الى الدنيا وبعد ذلك اصبح لوادي محله الخاص الذي نجح به وعلم اخوتي المهنة الى جانب المدرسة. محل والدي سرق يوم التهجير.

كان في تلك الازمنة يفرحون بولادة الصبي اكثر من ولادة البنت لأسباب كثيرة

منها هو الاعتماد على الولد في المعيشة، وان البنات مسؤولية كبيرة، وخصوصاً في المجتمعات المتخلفة التي ترى في المرأة عورة، لذلك كان والدي محافظاً واحياناً قاسياً وكما يقول لنا دائماً «أنا 99% علماني وواحد بالمائة مخلفات الماضي». ولكن دائماً الواحد بالمائة هو الغالب عند والدي، ولكن عندما كبرنا ودخلنا الجامعات اصبح والدي اكثر ديمقراطية وصديقا لنا نحن البنات، ولكننا كنا حذرين من الواحد بالمائة لأنها دائماً في الكفة الراجحة.

بعد تهجيرنا كان والدي لا يخاف على الأولاد بكثرة قلقه وخوفه على بناته رغم معرفته بأننا لا نحيد عما تربينا عليه وهو واثق منا تماماً.

في احد ايام التشرد الاولى في طهران كانت هناك دعوة لزواج احد ابناء اخوالي وقبلنا الدعوة بعد اعلامنا بموافقة والدي للذهاب، وكانت فرصة للمشاركة بفرحة خالي وللترفيه عن النفس وكذلك لتجمع اشتات العائلة تحت فرحة تمتص ولو جزءاً من الاحزان. التقينا من مختلف الاتجاهات في قاعة الحفلة، وكانت كبيرة ومليئة بالمدعوين الذين تعرفنا عليهم في الايام القليلة الماضية.

كانت حفلة جميلة وفي تلك الفترة لم يكن هناك قوانين تمنع ذلك، وهي حفلة زواج عائلية. وكانت في ليلتها فرقة موسيقية عزفت اجمل الالحان الايرانية، وكذلك بعض الاغاني العربية من اجل امتاع العائلة العراقية المشردة، والجميع كان يرقص وفرحانا، وهنا طلبت زوجة خالي اسماعيل من والدي ان يسمح لنا بناته في الرقص مع العائلة لان والدي معروف بتعصبه بتلك الامور وكما اعتقد وافق والدي على ذلك خجلا من زوجة خالي.

الموسيقى كانت جميلة ومشجعة على الرقص وتمنح للانسان مثلنا بهجة، أذ يفقد جزءا من احزانه الكثيرة. عندما عادت زوجة خالي بموافقة الوالد دخلنا بمرافقة زوجة خالي لنا الى ساحة الرقص المليئة بالشباب والشابات من عوائلنا، متناسين والدي وتعصبه، متمتعين بفرحة صغيرة وهبت لنا لتجديد بسيط في طاقتنا المهدورة في الحزن.

وبدأنا بالرقص بخجل كبير، ولم تمر لحظات وفجأة وقف اخوتي معنا لمراقصتنا ولعدم تركنا لوحدنا، هذا ما فهمناه تلك اللحظة، فرقصت انا مع اخي الكبير، ولم

تمر على ذلك دقائق واذا بأخوتنا يطلبون منا الجلوس، لان والدي بدت عليه علامات عدم الرضا، وفعلا تركنا ساحة الرقص بامتعاض، وانظارنا متوجهة الى الوالد الذي كان يبدو عصبياً ولكن الظرف لم يسمح له بإظهار حقيقة انفعاله.

استمرت الحفلة والموسيقى الجميلة مع توافد المدعوين، ونحن البنات كنا جالسين على طاولة وبدأ القلق علينا، وهنا قالت اختي سجواء متهكمة بعد ذلك «احنة هم مكذبنا خبر كان علينا سؤال الوالد اولا». وقبل انتهاء الحفلة اشير علينا بأننا سنرجع الى بيت ابن خالي «علي» والشباب سيذهبون الى بيوت اخرى من عوائل الاقرباء، وكان معنا حينها والدانا واخي الصغير. وفي طريق العودة في سيارة ابن خالي البشوش المرح بدا الجو مشحوناً من طرف والدي والخوف من انفعاله قد اخذ حيزاً كبيراً في نفوسنا التي لم تتمتع ولو بقسط صغير من الفرحة والانطلاق.

فلم نتكلم خلال رحلة العودة حينها والتزمنا جميعنا الصمت رغم محاولة ابن خالي ان يجعل الجو مرحاً، فهو لا يعرف ما يجري معنا، لان عندهم من الامور الطبيعية ان يرقص الجميع في حفلة عرس.

بعد رجوعنا الى بيت ابن خالي واسمه «علي قاسم»، اخبرتنا والدتي بأن والدي قد وافق على رقصنا وهو يعتقد باننا سوف نرفض ذلك، ولكنه احُبط في اعتقاده.

نام الجميع تلك الليلة بنوع من الضجر، ولوم انفسنا وشيء من الخوف. في الصباح تحدثنا مع والدنا، واعتذرنا منه دون اية مناقشة، لأننا نحبه ونعتز به كثيراً ولا نريد اغضابه مهما كان السبب، فسامحنا والدي ضاحكا، وقال انه ليس غاضبا، وانه يثق بنا ولكن حسب قوله «كان افضل ان تسألونني»، ومر ذلك اليوم على سلام بعد ان ترك والدي «الواحد بالمئة» مؤقتاً وذكرتني تلك الرقصة الصغيرة ببحيرة البجع، وكنا نحن البنات البجعات المنطلقات.

وهكذا دخل هذا الرقص البسيط.. كرقصة بجعات تائهات في فضاء المنفى.

الضائعة... والسفارة العراقية

كان كابوس التشرد وفقدان بطاقة الهوية التي تثبت وجودنا في هذه المدينة الكبيرة الغريبة علينا، يشعرنا بالضياع الكامل وعدم القدرة على ان نغيّر من وضعنا المتعب في التشرد الجديد. فبطاقة الهوية تضيف لحاملها الارتباط بمكان ما وزمان ما، وفقدانها يجعل الإنسان جسداً مهمشاً ليس له أية إرتباطات ولا وجود.

عند عمل الكفالة لإخراجنا من مخيم أصفهان من قبل خالي، أعطوا لكل واحد منا «الكارت الأخضر»، وهو عبارة عن بطاقة فيها صورة حاملها والإسم والشهرة في الصفحة الأولى، والصفحة الثانية مكتوب عليها: «هيچكونه إعتبار ندارد»، اي «ليس له إعتبار له في أمور اخرى». وبعد بداية الحرب بين العراق وايران استُعملت البطاقة لأخذ الحصة التموينية للغذاء، وتسجيل الأولاد في المدارس. وهذه البطاقة أصبحت بمثابة هويتنا وإن كانت مؤقتة.

عند مجيء أخوالي الى المخيم أخبرناهم عن عماتي وعن بيت عمي وقلقنا الدائم عليهم وهنا ذكروا لنا انهم سيسألون عنهم وهم أيضاً مهتمون بالموضوع، ولكن الصعوبة ان إيران كبيرة والمخيمات كثيرة، وان هناك أيضاً مخيمات للمشردين الأفغان وهناك لبس بإسم المناطق والمخيمات، وتركنا بذلك معرفة سبايانا عند أخوالي الذين أبدوا إستعداداً كبيراً لمساعدتنا آخذين بنظر الإعتبار عدم قدرتنا على ذلك. وفي كل لقاء لوالدتي مع أخوتها كانت تسأل عن الأهل المفقودين منذ التهجير، وكان الجواب: للأسف لم نجد أحدا يعرفهم.

اما أخبار أختي في العراق، فلم نكن نعرفها وهي أيضا لا تعرف ماذا حلّ بنا؟

ورغم توفر هاتفها كنا نخاف أن نتصل بها، ولذلك كانت أخبارها وأخبار زوجة أخي وابن اخي ايضاً مقطوعة، وعلى الأرجح فان أهلنا الذين بقوا في العراق كانوا بوضع لا يحسدون عليه، وألمنا لفقدانهم وخوفنا عليهم يزداد يوماً بعد يوم، مع إنقطاع أخبار الوطن وإبنائه منذ الأسابيع الثلاثة الأولى للتهجير.

أحياناً كثيرة، كنا نحاول أن نكبت عذاباتنا وبكاءنا خشية إزعاج الآخرين، وبهذا يصبح الحزن حبيساً هو الآخر ليكبر ويأخذ مساحة واسعة من نفوسنا المحطمة، ليخنق أنفاسنا. ان التشرد الجديد بابتعاد الأسرة عن بعضها، وهنا أعني قرار التقسيم، كان رغم كبر سننا يشعرنا باليتم وتقطع الأوصال.

في ظهر اليوم التالي بعد حفلة العرس، توزعت العائلة ثانية على الأقارب، وبقيت أنا في بيت ابن خالي بعد إلحاحهم عليّ بالبقاء. إبن خالي كان يعمل في أحد البنوك، وكان يفهم العربية، ولكن هناك صعوبة في الإجابة، وأما زوجته الإيرانية فكانت لا تتكلم الإنجليزية، ولكننا نحاول ان نتفاهم بطريقة وأخرى، وكانت سيدة لطيفة جدا معي، وكان عندهم طفلان جميلان ولد وأسمه «أمير» وعمره يتجاوز الثلاث سنوات، وبنت وعمرها سنة ونصف وإسمها «إيمان»، وكنت أحب ان ألاعبهما، وأتذكر بهذا أطفال أختي الكبيرة واشتياقي المضني لهم.

في تلك الأيام التي مضيتها في بيت إبن خالي، كان هو وزوجته يحاولان التخفيف من حزني، ويعطونني الأمل، بان الله سيساعدنا وعلينا بالصبر. في اليوم الثالث دعتني زوجة أبن خالي للذهاب معها لزيارة أختها التي تسكن في منطقة اخرى في طهران، ولشدة خجلي والخوف من حزني الظاهر بوضوح، رفضت بأدب دعوتها وقلت لها اني سأذهب الى بيت خالي إسماعيل الذي توقعته قريباً لشقتهم، وأخبرتها بان عنوانهم وتلفونهم معي، وبعد وجبة الغداء تفارقنا خارج البيت وتوادعنا وشكرتها على الضيافة، وكل منا ذهب الى مقصده.

بعد مسير ربع ساعة، وفي يدي كيس ملابسي، كنت متأكدة من وجود دفتر التلفونات والعناوين معي، وفكرت بأخبار زوجة خالي بقدومي كي لا تتفاجأ بزيارتي لهم، وخلال بحثي في الحقيبة اليدوية إكتشفت المصيبة بأني لم أكن أحمل معي دفتر

التلفونات لأني تركته في حقيبتي، عند تبادل الحقائب مع أختي سجواء كي تتناسب مع ثيابنا قبل الحفلة، ونسينا أو لم نفكر بإبدال كل محتوياتها. بهذا الإكتشاف كان عليّ التفكير السريع في محنتي هذه، الرجوع الى بيت إبن خالي كان غير ممكن لان البيت خال من سكانه، ولربما ابن خالي سيذهب بعد عمله الى عائلته، والساعة كانت بعد الثالثة عصراً وسيبدأ الغروب بعد ساعتين، وبعدها سيسدل الليل ظلامه، وهنا شعرت بالضياع الحقيقي كطفلة ضاعت من أبويها في عالم آخر غريب واسع. تصببتُ عرقاً لأني أمشي تحت الشمس وايضاً نتيجة المفاجأة والخوف من الضياع في تلك المدينة الكبيرة، وهنا بدأت أسرع في خطواتي الى الأمام، وكان عدد الناس يزداد، وتبدو لي الشوارع طويلة والضوضاء حولي أكبر، ودوار كبير في رأسي.

في تلك اللحظات الحرجة لعنت اليوم الذي ولدت فيه، لعنت القدر، لعنت نفسي ولعنت الطاغية وأزلامه الذين شرّدونا بغير ذنب، ولعنت كل طاغية يحاول ان يأخذ مكانة الخالق بالتلاعب بمصير البشر. فكرت في بلدي ومدينتي التي كنت أحس فيها بأمان وكنت سعيدة؟ والآن الى أين تأخذينني يا قدميّ، والى أين يا أيتها الدنيا الغادرة؟

بدأت الدموع تنهمر من عيني. كنت أشعر بحرارتها وملوحتها تحرقان وجهي، وبدأت قدمي من شدة التعرق بتأثير المسير السريع تنزلق من حذائي الصيفي فتتعثر خطواتي، وأكاد أسقط على الأرض. كانت لدي رغبة بالصراخ بأعلى صوتي لربما يسمعني الخالق، ويساعدني في تلك المحنة. تماسكت قليلا وبدأت بقراءة سورا من «القرآن الكريم» كمحاولة لإدخال الهدوء الى روحي الضائعة والتشبث برب الأرض والسماء لإنقاذي من الضياع.

في المشي السريع والمتعب، بدأ الشارع يرتفع عن مستواه لان إتجاهي كان الى شمال المدينة التي بنيت على سفح جبل. هكذا وصلت الى مبنى كبير وكان خلف جداره أشجار عالية، فاتكأت قرب الباب لالتقط أنفاسي وأخفف من تعبي، رأيت قطعة مكتوبة باللغة العربية، عندما قرأتها كانت مفاجأة كبرى لم أتوقعها، كان مكتوب على اللوحة «السفارة العراقية»، وبدون وعي مني أو تفكير

بالسبب ضغطت على جرس الباب، وإذا برجل من رجال السفارة يخرج وسألني ماذا أريد؟ فانفجرت به قائلة: «أنا ضائعة في بلد لا أعرفه وأهلي مشردين وأنتم السبب»، فأجابني بسرعة «أدخلي أختي لنتفاهم»: (لم أفكر ولا ثانية بالدخول فدخولي هو إنكسار لكرامتي التي لن ولم يستطيعوا سرقتها مني). بقوله هذا زاد من حدة إنفعالي وانفجرت بصوت أعلى «لا تقل أختي، أنت وحكومتك المجرمة لقد أخرجتمونا من بيوتنا وسرقتم شقاء العمر وسرقتم هوياتنا ومستقبلنا وقتلتم وسجنتم الشعب، لعنة الله عليكم، ان أخوتي الحقيقين يقتلون في سجونكم». هرب الرجل الى داخل البناية وكان إنفعالي هو انفجار لجرح، لزمن الضياع، ولزمن آخر كان علينا ان نصمت فيه خوفاً من جبروتهم وبطشهم وشعرت بحاجتي لتفريغ ما فيّ من ألم على هذه المؤسسة التي هي إمتداد للنظام الدكتاتوري الوخيم. وفي لحظة غضبي نسيت انني أكاد أضيع في المدينة.

لا أدري كم من الوقت قد مضى عليّ، وأنا أصرخ وأبكي أمام باب السفارة والناس المتجمعون من حولي، والذين لم أكن أبالي تلك اللحظات بوجودهم، وكنت لا أفهم ما يقولونه، لربما كانوا يضنونني مجنونة؟

سقط كيس ملابسي على الأرض، والذي كان يرافقني في التشرد، وجلست مهدودة القوى على الأرض، واضعة رأسي على ركبتيّ منهارة فاقدة القدرة على الكلام أو البكاء. وفجأة تقدمت أمرأة محجبة بالشادر الإيراني نحوي، حضنتني وهي تقول» خوهر بيا» ويعني «تعالي أختي»، فانهضتني من على الأرض وقادتني ماسكة بيدي نحو سيارة عرفت بعد ذلك انها «سيارة للحرس الثوري الإسلامي»، حاملة كيس ملابسي، ولم تكن عندي القدرة للرفض أو الكلام او حتى السؤال، لذلك طاوعتها وجلست في السيارة وهي تسقيني الماء وتغسل وجهي المعفّر بالتراب والدموع، وحسب تقديري فان أحد المشاة قد أخبر جهة معينة بما حدث وجاءوا كي يساعدونني.

سارت السيارة وأنا متجمدة التفكير، بعيدة عن أي إنفعال، سوى السكوت الذي لم اختره بإرادتي ولكن تعبي قد اختاره. وصلنا بعد عدة دقائق الى مكتب، فأنزلوني

معهم، غسلت وجهي وشعرت قليلاً بإسترداد طاقتي وتحدثت إحدى النساء معي باللغة الانجليزية، فأخبرتها باني مهجّرة عراقية وضائعة في مدينتهم: طهران الكبيرة. وبعد عدة إسئلة، تذكرت ضرورة ان أخبرهم عن إسم «المسافرخانات»، وبعد ذلك إتصلوا بأحد اقربائي، الذي أعطاهم عنوان وتلفون خالي إسماعيل. ثم أوصلني الناس الطيبون الى بيت خالي وشكرتهم على مساعدتهم، وسلّمت عليهم وانا أنظر اليهم بممنونية كبيرة، فلولاهم لضعنا جميعاً. وصلت وكنت في إعياء تام ودخلت البيت بحالة يرثى لها، تطاردني صورتي غاضبة متعبة شبه ضائعة، وأنا قرب باب السفارة العراقية!

20

بيت خالي و... ناظم الغزالي

وطني العراق، هو رمز الحضارات العريقة التي كنا نقرأ عنها في كتبنا المدرسية، وبعد أن كبرنا كنا نزور بعض المناطق الأثرية في رحلات مدرسية تعطينا الإحساس بالعمق الإنساني والحضاري لبلدنا، مما كان يزيدنا فخراً بالعيش فيه ويزيد من حبنا وتعلقنا به.

وطني كان في ذاكرتي، عائلة متحابة ليس هناك فرق بين الناس، لا في العقائد ولا في الديانات. أتذكر طفولتي العذبة هناك، إذ لم نشعر نحن الأطفال بفوارق معينة، نلعب آمنين في شوارع وطننا الأم التي أرضعتنا الحنان والمحبة. أتذكر بعض الإنقلابات العسكرية التي حصلت في مراحل طفولتي والتي كانت تستدعي عدم الخروج الى الشارع لقرار يصدر في منع التجول، ولكنها أيام معدودة ويرجع الشارع ثانية مليئا بالأطفال، وترجع الحياة عادية جميلة، ولم نكن نفكر بما حصل رغم همس الأهل التي كنا نفهم بعضه ولا نفهم البعض الآخر، وعندما كبرنا فهمنا أكثر وكانت ذكرياتنا القليلة البريئة شاهدا تاريخيا وشخصيا على تلك الفترة.

وفي المدرسة كنا في المرحلة الإبتدائية، نصطف في الساحة قبل بدء الحصص، والمثابر منا كان له الشرف في رفع العلم العراقي، لنبدأ بإنشاد «موطني» بحناجرنا الفتية، معلنين حبنا له ومعاهديه بحفاظنا عليه في وقت الشدة بشكل عفوي وفطري، وكل إسبوع كنا ننشد نشيدا آخر من الأناشيد المتغنية بوطننا فقط وليس لحاكم معين، وكانت تلك المراسيم تتم أيضاً في المراحل المتوسطة والثانوية من الدراسة وتكون بشكل أكثر وعيا وإدراكا.

أتذكر سنوات دراستي في الجامعة وأحاديثنا الطلابية الجميلة، يتوجها الشعر والنثر وقصص الحب الجميلة اليانعة بين الشباب والشابات، تذكرني بقصة قيس وليلى، وما أجمله العشق في بلادي، وفيروز تصبح علينا يومياً لتجعل يومنا زاهيا أنيقا، وسفراتنا الطلابية الجميلة التي كان مرح الشباب يطغي عليها، وكانت الشابات يتمتعن بالمرح مع زملائهن، وكذلك شعورنا بهم كأخوة إحبة، نثق بهم ونعتمد عليهم. كان جيلنا قد بورك بالمحبة والحرية والتفهم. أتذكر كثيرا من الأوقات، كنا نذهب كمجموعة الى السينما او المقاهي الثقافية، مثل مقهى «البرازيلية»، أو نلتقي لمشاهدة معرض تشكيلي، أو نتغدى في «مطعم نزار»، نلتقي بأصدقائنا من كليات أخرى، نتبادل فيها أخبارنا الجامعية وسط مرح وصخب شبابي جميل أو غيره من فعاليات اخرى كانت رائعة، مثل وطننا الجميل، وكان ذلك بدوره يزيدنا حباً وتعلقاً بالحياة والوطن.

كانت تلك الذكريات في المنفى القسري، غذاء للروح الجائعة المتعطشة للوطن وللناس والاصدقاء، ودفئاً وحلمًا بالماضي الذي لا نعرف كيفية الرجوع اليه، وبنفس الوقت كان يزيدنا هماً وحزناً، ويقيد ناراً في قلوبنا التي اضناها التشرد والقهر.

لا أعرف ما حدث بعد ثلاث سنوات من دراستي الجامعية، اذ بدأت مظاهر جديدة، حوّلت تلك الأجواء الجامعية الشبابية الجميلة الدافئة المعطاء، الى خوف وحذر وحيطة في كل شيء نقوله او نفعل، وسيطر توتر على ذلك الجو الجامعي، وكانت فيروز تصدح هماً وألماً لما نمرّ به من حالة غريبة لم تكن موجودة بهذا التوتر الواضح سابقاً، وكنت أشعر حينها كيف ان البعض من زملائي كان يقاسي تحت ضغوط كبيرة، فيحاول ترك الدراسة او الفرار الى الحانات لتخدير ما تبقى من الإحساس او التفكير بالهجرة.

ما الذي حدث وغيّر هذا الوطن وأهله؟

في أيام المنفى كنت أريد تحليل ما حدث من خلال ذكرياتي، لان شعبنا، الطيب الذي كما عرفته منذ طفولتي، لا يحمل غير مشاعر الخير والثقة المتبادلة والمحبة

لبعضه البعض، لم أشعر يوماً ما بحقد أو ضغينة بين فئاته المختلفة، بل العكس، كانوا يساعدون بعضهم، ويشاركون بعضهم في الأفـراح والأتـراح، وما أجمل الجيران حين يكونون مثل الأهل عند الحاجة، والجيرة في بلدي لها رائحة المسك والعنبر و«الشاي المهّيل»، وزيارات الأهل في المناسبات كالأعراس وطقوسها الجميلة كقصص ألف ليلة وليلة، تزيد من الحب والمرح وحلاوة الحياة، واما الأحزان كفقدان شخص تولاه الله، نكون بعضنا لبعض ظهيراً وتكون العلاقات تتسم بالوجدانية والصميمية الحقيقية، وحتى الحزن في بلادي له طعم خاص مرتبط بذكر الله ورائحة البخور وعطر ماء الورد.

وتساءلت، ما الذي حدث، وغيّر هذا الوطن وأهله؟ كيف لتلك العائلة المتحابة ان تصبح بهذا الشكل المخيف وفي مرحلة قصيرة؟ كيف ينقلب كيان المجتمع العراقي المعروف بكل صفات الخير والألفة الى مجتمع يخاف من كل شيء؟ ما الذي زُرع في أرض بلدي المعطاء، هل هي بذور الحقد؟ كي يحصد الناس الخوف والحقد وعدم الثقة والبطش ببعضنا، هل هي بذور الشر التي نثرها النظام الحاكم؟ كيف تفرقت تلك الكتلة المتجانسة لتصبح متفرقة متضادة متناحرة وغياب الثقة هو أساسها. أرى ان سياسة «الترهيب والترغيب» التي إتّبعها النظام وإعطاء المال والجاه، عوامل لعبت دورا كبيراً عند ذوي النفوس الضعيفة كي يرهبوا ويخيفوا ويبطشوا بالناس الطيبين، الذين لم تكن لهم قدرة للدفاع عن أنفسهم أمام تلك الإعتداءات وأساليب زرع الخوف بالنفوس.

وسألت نفسي: أين كنا من ذلك، هل كنا نائمين، مهمشين، لاهين، خائفين أم خانعين؟ أين كنا يا وطني من كل هذا؟ أشعر اننا جميعا قد اشتركنا، بصمتنا ولربما بجهلنا وبخوفنا أو عدم إكتراثنا بمستقبل الأجيال القادمة، بجريمة قتل الوطن والإنسان فيه. كانت محاكمة قاسية للضمير لان مسؤوليتنا أمام التاريخ والأجيال ستكون قاسية، وقدرتنا على الدفاع ستكون ضعيفة.

والآن يا وطني هيهات «فقد سبق السيف العذل»، وأصبح إجترار الألم والشكوى والخوف من أكبر مظاهر عائلتي العراقية في كل مكان وها نحن نبكي أنفسنا، وطننا، وتاريخنا الذي ضيعناه وتحول الى عصر ذي وحشية مرعبة ودم مراق على مدى

العصور والأزمان. وكنت قد كتبت حينها إحساسي بما حدث، وهو كفيل بالشرح، وها انا أكتب مقطعا صغيرا من تلك الذكرى:

بنينـــا ســـجوناً قوامـــاً بأنفســـنا ودخلناهـــا طليقيـــن دون ســـجّان

وكلما إزادت المحاكمة الذاتية كان يزداد الألم معها، ويزداد معها ألم الروح. تذكرت ان كثيرا ممن أعرفهم من عائلتي وأصدقائي، وقسما لا أعرفهم رفضوا النظام وإجرامه، والنتيجة ان بعضهم قُتل والبعض الآخر في سجون الطاغية، وآخر قد اختار المنفى، والأخير قد اختار المقاومة وأخطارها، وهكذا كانت بيوت عراقية كثيرة تفتقد أبناءها، وفي كل واحد منها قصة خوف ورعب وألم وفراق ووحشة وغياب قسري.

رجعت الى بيت خالي، بعد إنفعالي أمام باب السفارة العراقية، وكنت حينها أتكلم واصرخ، وروحي المليئة بالغضب والرفض جعلت جسدي يختض ويهدر كل طاقته. كنت متعبة حزينة، ليس لي القدرة حتى على التفكير والمجاملة، لأنني كنت فارغة من إحساسي بالحياة. حاول خالي تقليل همي وإرجاعي الى الحياة بملاطفته هو وعائلته ومحاولة إرجاع البسمة إليّ. بعد تناولي وجبة العشاء التي لم أرغب فيها، ذهبت للنوم وفعلاً غلب عليّ النوم، وكان نوما عميقا لم تتخلله كوابيس مفزعة.

صباح حلو في المنفى؟

إستيقظت في الصباح على صوت ولحن جميل وضعه خالي، وكان صوت «ناظم الغزالي» وهو يغني «حيك بابا حيك». نهضت من نومي لأرى خالي وسط غرفة الضيوف، وعندما شاهدني بدأ يرقص ويغني مع الأغنية وينظر إليّ بابتسامة حلوة وحضنني وقبلني قائلاً «صباح الخير حبيبتي أريدك تضحكين واليوم حلو، وسنقضيه معاً شنو رأيك؟ فقبلته شاكرة على محبته وطيبته التي تذكرني بطيبة أمي التي أفتقدها وأفتقد حبها وحنانها، فأينك الآن يا أمي»؟

تناولت الإفطار معهم، متناسية ما جرى لي البارحة، وقضيت مع عائلة خالي نهاراً جميلاً، مسح جزءاً مما حدث في الأمس، ولكنني تعلمت ان أركّز في حملي لدفتر التلفونات والعناوين كي لا أضيع ثانية بزحمة الحياة الصاخبة المستمرة..

وبهذا، كان الصباح ومعه غناء ناظم الغزالي.... من أحلى صباحات المنفى.

21

مخيم أصفهان و.. كربلاء جديدة

كما أشرت، في الإسبوع الثاني بعد التسفير، بدأ أخوتي في ممارسة بعض الأعمال الحرفية بثمن بخس، للإبتعاد عن الأجواء الخانقة والتعرف على مجالات العمل الحرفي، وهدفهم مساعدتنا جميعاً ولو بقليل مما يحصلون، مقتّرين على أنفسهم.

في يوم التسفير لم يكن معنا من النقود العراقية سوى القليل لذا كنا نصرفه بتقتير، كمصاريف للنقل، وأحيانا شراء بعض الحلويات نقدمها لمن يضيّفونا، وقد عرضت علينا عائلة والدتي نقوداً، ولكننا رفضنا شاكرين محبتهم وكرمهم.

في بداية الإسبوع الرابع من مجيئنا الى طهرن قال لوالدتي أحد أخوالي، إنهم وجدو إسم المخيم الذي تقطنه عوائلنا المشردة، وهم بيت عمي وبيت عمتي وهو مخيم «باغ إبرشيم» في أصفهان، وهو المكان الذي كنا فيه سابقاً، ففرحنا جميعا بسماع الخبر الذي إنتشر بين جميع أفراد أسرتنا الموزعة على عوائل اخرى، وقرر أحد أخوالي الذهاب الى المخيم لمعرفة أوضاعهم مصطحباً أخي الكبير كاظم معه، أما والدي فقد نصحه الجميع بعدم الذهاب حتى يتم التأكد من صحة الأخبار. وفي اليوم التالي سافر خالي وأخي الكبير وأنا معهم، بعد أن طلبت موفقة والدي، الى أصفهان، وقضينا هناك ليلة واحدة حزينة ورجعنا الى طهران ثانية، وكان الجميع يتوق لمعرفة أوضاعهم، وعمّ الحزن عائلتي بعد سردنا لما رأينا وسمعنا من قصص مفجعة للمشردين.

كانت عائلة عمي صادق رحمه الله (الذي كان الأخ الأكبر لوالدي من نفس الأم)، مكونة من أربعة أولاد وأربع بنات. ثلاث من البنات متزوجات، وإثنان من الأولاد

متزوجان ويسكنان داخل بيت عمي، ولكل واحد غرفة خاصة، والإبن الأكبر كان له ثلاثة أطفال: ولدان وبنت صغيرة عمرها سنتان، والأخ الأصغر له طفلان ولدان. كانت عائلة عمي صادق رحمه الله مميزة بالمرح والمزاح الجميل والبشاشة، فكانت معروفة بانها تسخر مما يحدث في الحياة وبطريقتها الإنسانية الفذة. كانت عائلة بيت عمي سعيدة طيبة مثل عوائل شعبنا الطيب وكنا نحبهم ونحب اللقاء بهم دائماً.

كان بيت عمي يسكنون في منطقتنا في مدينة الحرية ويبعدون عنا حوالي كيلومتر واحد، لذلك كانت زيارتنا كثيرة ومتبادلة. في يوم 14/ 5/ 1980 وبعد تسفير بيت عمتي جاءنا الخبر وبسرعة، لان المنطقة التي نسكنها شعبية والأخبار كانت سريعة الإنتشار، ومفادها بان» بيت عمي سيسفرون»، فذهبت أنا ووالدتي ورأينا ضجة أمام الدار، وهرجا ومرجا، وكان يقف أمام الدار باص التسفير. دخلنا الى البيت المنكوب بصعوبة كبيرة ووجدنا عائلة بيت عمي وسط صراخ إبنتهم الكبيرة، وبكاء أهلها والبيت كان مكتظا بالناس، وثلاثة مسلحين يزيدون من رهبة وخوف العائلة. بدأت والدتي بالصراخ والبكاء مشاركة بنت عمي حزنها، وإذا بأحد المسلحين بدأ بالصراخ بوالدتي، ثم ضربها بأخمص بندقيته في كتفها، فقمت بسحب والدتي الى خارج الدار، وأخبرتها بضرورة ان نرجع الى بيتنا، لان ما تفعله خطر على أولاد بيت عمي، فاقتنعت والدتي بكلامي ورجعنا الى البيت، لكنها كانت مستمرة في البكاء ولم نخبر والدي بما حدث سوى إننا سمعنا إنهم قد هجّروا الى ايران.

سافرت في اليوم التالي مع خالي وأخي الكبير الى المخيم، مستأجرين باصات الركاب السياحية. وبعد وصولنا الى أصفهان، ذهبنا الى مخيم «باغ ابرشيم» الذي كان يضم المشردين من ابناء شعبنا، ممن باتوا تحت رحمة الخيام وبؤسها في تهجيرهم القسري، تذكرت حينها بعض مشاهد الأسى، لا سيما إنني قضيت مع عائلتي وقتاً متعباً فيه، ولكنه قصير جداً مقارنة مع ما عاشه الموجودون في المخيم. عندما دخلنا مدخل الشارع راودتني حالة غريبة كئيبة كأني أذهب الى سجن لزيارة سجناء فقدوا حريتهم، وبدأت أبكي من المرارة التي لم تكن بعيدة عن حالي وحال عوائلنا التي أصبحت تحت رحمة الله الذي نؤمن بانه سيأتي على الطاغية ومجرميه، وسيكون يوم حسابهم عسيرا، لسبيهم العوائل الآمنة في العراق وخارجه.

دخلنا المخيم الحزين، وبدأت أرى الخيام التي قد زادت بأعدادها، ورأيت الاطفال في شارع المخيم غير المعبد، يعلو وجوههم وملابسهم التراب، ومتعبين فاقدي المأوى، وكان لون الخيام مترباً رمادياً خانقا، كأنه عالم آخر منسي ومعزول عن الحياة وما فيها. بعد السؤال في الإستعلامات عن بيت عمي وعمتي أعطانا رجل الإستعلامات رقم الخيمة، وساعدونا على إيجادها. كنت أمشي وعيني تشاهد مأساة جيل الخيام المخفية عن العالم الخارجي، والكابوس الذي لم يكن يحس به أحد سوى من عاشه. فتساءلت مع نفسي: أين هي منظمات حقوق الإنسان عما يجري للإنسان هنا؟ أم ان سكان المخيم لا يحسبون بشراً في قانون الغاب السائد؟

بعد المشي لفترة ليست بالقصيرة، وصلنا الى المنطقة التي نصبت فيها خيام تقطنها عوائلنا المشردة التي إنتزعت من بيوتها لتشتل في العراء وتحت رحمة الزمن. كنت لا أعرف من أين أبدأ بالبحث؟ وهنا رأيت وتعرفت على أطفال أبناء عمي، وهم يلعبون في الشارع المترب، وفجأة لاحظت إبنة عمي الشابة (كان عمرها حينذاك 18 سنة وتخرجت حديثا من إعدادية الصناعة)، وقد غلب الأسى والألم والتعب على وجهها الفتي، وقد فوجئت بزيارتنا، وبدأنا نحضن بعضنا والبكاء ثالثنا، والدمع ينزل ليس من عيوننا فحسب، ولكنه كان من أرواحنا ومن قلوبنا المليئة بتعاسة وألم ما نمر به من عذابات بسبب التهجير.

بعد البكاء شاهدت خروج بعض نساء عوائلنا من الخيام الرمادية، وذكرني هذا المشهد بأحداث يوم عاشوراء، وصور السبايا تحت العراء وفقدانهن أولادهن وأحبتهن في حرب ليس فيها سوى الغدر والخيانة، وقد صارت حدثا بارزا في التاريخ، ولتصبح قدوة ومثالا في الدفاع عن العقيدة والموت من أجلها. كان ثمة تشابه بسيط بين المأساتين، لان هنا أيضاً كانت العوائل سبايا وأولادهم تشنق وتقتل بدون سبب في سجون العراق عبر «يزيد» جديد.

لكن ثمة فوارق بين المشهدين، فان ما حدث حينها في كربلاء، كان حدثا جللا قتل فيه حفيد نبينا صلى الله عليه وسلم في حرب غادرة، ولكن هنا لم يكن هؤلاء الناس السبايا في حرب، ولم تكن مسألة التسفير تشمل فئة معينة، بل كل فئات

الشعب المسالمة، فكان هناك عدد كبير ممن شردوا من ديارهم لكن العالم كله إنشغل عن هؤلاء المهمشين، وضميره نام أو تغاضى، دون أن يعطي هؤلاء الضحايا ولو لمحة بسيطة للتعريف عن معاناتهم. هذا التشابه في السبي زاد من حزني، فقد عاد تاريخ الغدر في عالم يدّعي الحضارة والإنسانية.

بعد لقائي بنساء عائلتي المشردة، ومنهم زوجة عمي التي كانت تبكي فراق بناتها المتزوجات وأختها وعوائل أخرى وشاركتهم بالبكاء ووجدانية الألم، كانت عائلة بيت عمي قد وزعت على أربع خيام للمتزوجين: كل واحد خيمة، ولإبنة عمي الشابة مع والدتها خيمة، وكذلك للشباب العزاب خيمة.

وبعد ذلك دخلت الى خيمة عماتي، وكان وجودي لهم مفاجأة، فبدأت عمتي الكبيرة بالترحيب ثم بالشكوى قائلة» هلا هلا عمّه هلا ببنت أخويه، يا عمه صرنا سبايا تحت خيمته الزركة (الزرقاء)، وصرنا مثل الغجر، وما أدري يا عمه وين أولادي؟ وشنو صار عليهم؟ كانت عمتي تبكي وتنوح على فقدان أولادها وفي الأخص إبنها الصغير نضال الذي كان يدرس في الجامعة والذي هرب من ملاحقة الأمن له كونه لا يتفق مع أفكار النظام الدكتاتوري، فترك بيت العائلة لعدم وجود الأمان فيه، وكانت ضفائر عمتي التي ملأها الشيب، تبكي معها لتحكي قصة حياتها المليئة بالتعب والكفاح والألم الذي لا زال يزيد أحزانها، وكم كانت صابرة على قسمتها كي تربي أولادها، ولتجد نفسها في نهاية المطاف تحت خيمة. كنت أبكي لبكائها وأبكي قصصا مماثلة لشعبنا، وكيف سباها وحش كاسر ليس له صلة بالإنسانية.

كانت في الخيمة ذاتها تسكن عمتي الثانية الحاجة «أم غايب»، وهي أرملة وليس لها أطفال، وكانت تعيش سابقاً معنا في نفس البيت الذي كانت تملك نصفه مع والدي، لذلك كان لها الفضل الكبير في تربيتنا وإدخالنا المدارس. كانت عمتي تبكي لبكاء الجميع، وهي لم يشملها التسفير، ولكنها أبت ان تبقى لوحدها فاقدة أحبتها، لذلك قررت أن ترافق أختها في مسيرة العذاب في الهجرة. بعد البكاء والمناحة دخلت الخيمة إبنة عمتي وقد هُجّرت مع زوجها الذي كان قد رافقها مع إنه يحمل شهادة الجنسية العراقية (التبعية العثمانية)، اي ما يبعد عنه التسفير، وكانت بنت عمتي

حاملا في الأشهر الآولى، هزيلة وشاحبة، وأحسست بتعبها لأنها كانت ضعيفة البنية، والجميع كان يفرغ جزءا ضئيلاً من أحزانه لأنني شريكة معهم بالحدث. سلمّت وبكيت، وتكلمت مع نسائنا المشردات، وكان أخي الكبير كاظم يبكي لبكاء عماتي ولفراق إبنه الصغير، حتى بدا الجو في الخيمة مشحونا بما فيه من الكآبة والحزن ليهدّ جبلاً. كان قلبي يبكي حزنا وألما، ولكن لم يكن في اليد حيلة، حيث كانت عائلتي نفسها تذوق عذاب التقسيم، وكانت المساعدة لوضعهم من ناحيتنا، هي الوقوف معهم في تلك المحنة وعدم نسيانهم.

خرجت من خيمة الحزن والمآسي، مختنقة، موجهة نظري الى السماء، أنظر لوجه ربي راجية منه العطف واللطف بنا، ومما يدور بين خلقه المفجوع، إذ ليس هناك من نصير سواه.

22

غروب أخير في الوطن

في زيارتي لمخيم أصفهان كانت إبنة عمي الشابة، وإسمها فاطمة، رافقتني في قصصهم وقصص المخيم المليئة بالأسى، وتحدثت لي عن تفاصيل تهجيرهم الحزينة المتعبة وبين الكلام كانت تبكي جرحها وجرح ابناء وطننا قائلة:

«كنت في البيت يوم 14/ 5/ 1980حين جاء باص التسفير، وكانت الحياة عادية، وكان أخوتي في العمل، وكان ثمة خوف في داخلنا من احتمال التسفير، ولكننا لم نصدق شمولنا بالقرار الرهيب.

رجع أخي الكبير من المدرسة التي كان مدرّسا فيها، وأخي الآخر كان مجازا من عمله، وأخي الآخر الذي كان يعمل في ورشة قريبة، عاد الى البيت بعد الظهر للإستراحة والعودة ثانية الى العمل. بسماعنا الخبر عن تسفير بيت عمتي كنا في حالة غير عادية، والدهشة قد شلّت تفكيرنا، وكذلك وجود أختي الكبيرة التي كانت تبكي وتنوح. لم يكن لدينا الوقت الكافي للتفكير لجمع بعض الحاجيات التي ممكن أخذها معنا، وتصورنا ان التسفير لربما سيكون غدا وليس اليوم وهو ما حصل، وبالرغم من ذلك جمعت زوجات أخوتي بعض الملابس للأطفال الصغار، وكانت معظمها ملابس صيفية.

في حوالي الساعة الرابعة عصر ذلك اليوم، جاء باص التسفير، ووقف أمام بيتنا ودخل المسلحون بطريقة همجية الى الدار طالبين منا الخروج من بيتنا لغرض تسفيرنا الى إيران. أخبرتهم ان بعض أفراد الأسرة وهم الأطفال غير موجودين في البيت وطلبت من أحد المسلحين ان يسمح لها بمناداتهم ووافق على ذلك. وكانت أختي الكبيرة وبعد سماعها بتسفير بيت عمتي قد حضرت الى بيتنا. وعند دخول

المسلحين كان إنفعال أختي شديد جداً، وبدأت تصرخ في وجه المسلحين وتقول أن عائلتها عراقية وليست ايرانية، وحاولت إقناعهم بشتى الطرق، وهنا هددها المسلحون بالتسفير اذا استمرت بالمناقشة لأنه «قرار وعلينا تنفيذه»، وعلا صوت صراخ أختي التي كان إنفعالها شديدا جداً بالحدث الجلل، حد انها حطمت زجاج النوافذ بدون وعي منها.

ومن ثم توافد الجيران الى داخل الدار المسبي. بدأت عائلتي بجمع البطانيات والأغطية بأعداد قليلة، وكذلك وضع «الكليجة» المعدة أصلا كحلوى لـ«ليلة رجب» في كيس كي تكون مؤونة في السفر الى المجهول. وساعدنا جيراننا المقربون، بجمع أكياس لا يعرف محتواها ووضعوها داخل السيارة، أما زوجة الأخ الكبير وهي من مدينة بلد، فاندفعت بغضب الى المطبخ لتعود بالقدور التي كانت على النار، وهي عشاء العائلة وفيها «تمن وفاصولية يابسة»، ووضعتها في الباص. وبوصولي مصطحبة الأطفال الذين ناديتهم من بيت الجيران، أدخلونا جميعا الى الباص، وكذلك دفع المسلحون أختي الكبيرة الباكية، بدون أن ترتدي العباءة، الى الشارع، والتي سقطت منها بدون إحساس وسط الإزدحام والفوضى ولم تجدها، وأقفل المسلحون باب البيت وختموه بالشمع الأحمر، وكانت حالة العائلة والشباب يرثى لها، ورغم كل ذلك كان يصرخ بعض أفراد عائلتي باسم الوطن والبكاء على فراقه بشكل قاس.

ومع صعودنا الى الباص لاحظت وجود عائلة أخرى مهجّرة تتكون من 6 أشخاص كانوا سبقونا الى السفر الغريب. كنت أودّع بيتنا الذي إحتضن طفولتي وصباي، ولي ذكريات وصور كثيرة شخصية، بقيت مع ما بقي رهينة الدار الذي خُتم بالشمع الأحمر. نظرت من خلال النافذة الى أختي الباكية ورأسها مغطى بقطعة قماش، والى جيران العمر وأناس آخرين لم أعد أتعرّف على ملامحهم. تحرك الباص الى إتجاه نجهله، نحن من نجلس فيه، والمغلوب على أمرنا، تاركين بيتنا الذي ختم بالشمع الأحمر وسط نواح أختي الكبيرة، وصراخ الجيران وجمهرة الناس.

إتجه الباص وسط صمتنا، ودموعنا وبكاء الأطفال، ليدخل في شوارع بغداد

الحبيبة المكتظة بالناس، بالسيارات، دون أن يعلم احد ما يجري لنا وبنا، نحن أبناء هذا الوطن، واتجهت السيارة الى مبنى مديرية الأمن العامة. بوصولنا الى تلك الدائرة المخيفة طلب منا أحد المسلحين أن ينزل ممثل واحد لكل عائلة لغرض التحقيق. رفض أخي الكبير النزول ونزل عوضا عنه أخي الآخر، ودخلا أخي والرجل من العائلة الثانية الى «الأمن العامة»، وكنت أنا والباقون في الباص خائفين على إخوتنا الشباب. وهنا نزلت والدتي من الباص لتؤدي صلاة المغرب والدعاء لسلامة الشباب. بعد حوالي نصف ساعة عاد أخي والرجل من العائلة الثانية، وعرفنا ان التحقيق كان قد تضمن أسئلة تقليدية، ومنها السؤال عن أسماء أعمامي وعن ممتلكاتنا وأسئلة اخرى. بعد خمس دقائق من رجوع أخي تحرك الباص وكنا نودع بغداد الحبيبة والوطن متجهين صوب الغروب.

بعد مسير ساعتين، وقد أصبحت الدنيا ليلا، وصلنا الساعة العاشرة مساء الى ساحة في وسط مدينة أو قرية لا نعرفها، فتوقف الباص وطلبوا منا النزول ونزلنا مع أكياسنا وما سمح لنا بأخذه معنا، وهنا كان في إستقبالنا عوائل أخرى مهجّرة، ومن المستقبلين كان بيت عماتي وحوالي عشرة عوائل مهجرة وأغلبهم أكراد فيلية من مدينة الحرية. كان منظرا مؤلما ان أرى الأطفال الابرياء وسط بكاء وبرد قارس في العراء، والنساء بعباءاتهن السود تعطي منظراً يوحي بعزاء رهيب. بعد وصولنا، التحقت بنا عائلتان، وأعيدت عائلة من العوائل المهجرة الى بغداد ثانية ولا نعرف السبب، ولربما دفعوا نقودا مقابل بقائهم، من يدري؟ الباصات تركتنا وهناك كان عدة حراس (عساكر) تحرسنا وقريباً من الساحة، كان هناك مركز صغير للشرطة. بعد وصولنا بساعتين أطفأت الأضواء المحيطة بالساحة، وعم خوف بين الجميع من القتل او أشياء أخرى نجهلها قد يقوم بها النظام.

كان الجو باردا، والمكان إكتظّ بالعوائل المهجرة والتي تجلس على أرض الساحة الباردة. لذلك لم ينم أحد من الحاضرين تلك الليلة، وجلسنا مغطين أنفسنا بوضع بعض البطانيات التي أتينا بها على أكتافنا. وكان جميع المشردين يساعدون بعضهم، ورأيت بعض الأطفال الرضع الباكين من جوع او برد في أرض الساحة. أعطينا قدور «التمن والفاصولية اليابسة» لتغذية الأطفال الجائعين، ومن ضمنهم أطفال أخوتي.

كنت أبكي على أولئك الأطفال الذين شردوا بقسوة وباتوا ينامون في العراء تحت عيون الخالق. كان أغلب النساء يبكين على مأساتهن، وكان الليل طويلا، والبرد شديدا والقهر كبيرا. كان الظلام الكئيب يبعث في نفوسنا الخوف مما سيحل بنا، وعرفتُ من بعض العوائل ان كل من هُجّر بعد الظهر رابض في الساحة وينتظر الفرج المجهول ولا أحد يعرف متى؟

بقينا على هذا الوضع الذي كانت تتلذذ فيه الحكومة، فتبسط فيه سلطتها وجبروتها، ولكن على الناس البسطاء العزل. وقبل حلول الفجر، رأيت الباصات قد توجهت نحو الساحة وبدأت العوائل المشردة بجمع أفرادها وجمع حاجياتها، وأنيرت الأضواء ثانية، وأمرنا المسلحون بركوب الباصات التي ستتوجه نحو الحدود الإيرانية. ركبنا الباصات، بعضنا ببكاء وحسرة، والبعض الآخر إلتزم الصمت، فتحركت المركبات تاركة الساحة خالية من البشر الذين قضوا ليلة بؤس في العراء تاركين ذكرى مؤلمة خلفهم في ساحة بالوطن لا تحمل إسما.

بعد أقل من نصف ساعة من المسير، بدأ الفجر يطل علينا نحن البؤساء المشردون من ديارنا. وصلنا الى الحدود العراقية الإيرانية، وأنزلت العوائل المشردة، أغراضها البسيطة في العراء، وعادت الباصات كي تنقل ضحايا جددا. نظرت الى هذا الجمع من العوائل من الأطفال وكبار السن الذي بدا التعب والأسى واضحين على وجوههم، رأيت أمي الطيبة وعماتي العزيزات يرفعن أيديهن الى السماء بدعاء صامت وعيون باكية. نظرت من حولي لتلك المأساة، وصوت يصرخ في روحي ورأسي: أين الله؟ أين الله؟ أين الله؟

كان الله حياً في ضمير المشردين على حدود الوطن.

ضحكة يتيمة... في مخيم التهجير

التهجير القسري من العراق الى إيران لآلاف العوائل، لم يكن رحلة عادية، بل رحلة تعذيب من قبل السلطة وعذاب نفسي لعراقيين فقدوا كل شيء ليصبحوا مشردين فاقدين أعز شيء في حياتهم، وهو الإنتماء الى بقعة أرض وما عليها من شعب متحاب عزيز. إن فقدان الوطن يعني شعورا بالمرارة والجرح العميق في كبرياء المشردين ووجودهم الإنساني، اذ أصبحوا في آخر المطاف خارج حماية الوطن ليتوجهوا الى المجهول بقلوب ونفوس كسرها الضيم والقهر. وكانت هناك قصص مؤلمة وقاسية لعوائل مهجرة تعطي صورة لحقيقة النظام الحاكم الذي إستخدم شتى أنواع العنف والتعذيب النفسي لعوائل مسالمة ليس لها قدرة الدفاع عن نفسها، حيال ماكينة رهيبة جعلت الشعب كسيحا وأسيرا، ومعها صار الوطن ناراً تحرق أهله، وسجناً كبيراً للفكر وحرية العيش فيه.

لا تزال ابنة عمي «فاطمة» تبكي وتتحدث في مخيم أصفهان، لما حصل لهم في رحلة العذاب وقالت لي مستمرة في سردها: كان من ضمن المسفّرين ثلاثة أشخاص هم امرأتان ورجل من عائلة واحدة، كبار في السن، كانت إحدى الأخوات وهي في عمر يناهز الستين تجلس في كرسي للمعوقين لفقدانها سيقانها وتلف جسدها بعباءة سوداء. عند وصولنا الحدود قام أحد رجال الامن ومرافق له بأنزال المرأة المقعدة من كرسي المعوقين ووضعها على الأرض قائلا لها «هذا الكرسي من أملاك الدولة»، حاول بعض المهجرين طلب الرحمة لتلك المرأة من رجال الأمن ولكن لم ينفع معهم الرجاء، وتركوا المرأة المعوقة على الأرض الباردة باكية بقسوة شديدة، وشاركها البكاء أغلب الموجدين، وصب اللعنات على هذا العمل المشين،

وهنا تساءلت مع نفسي: أين شهامة العراقيين؟ أين ذهبت النخوة؟ ولكن دهشتي بما حدث لم يستمر طويلاً، وأدركت بان النظام قد تم بناؤه على مثل هؤلاء الذين لا ضمير له.

تركتنا الباصات في العراء والبرد، وكنا حوالي 80 شخصاً بمختلف الأعمار. انتظرنا قليلاً على الحدود، ولعدم قدوم أحد من الجهة الإيرانية قررنا ان نمشي لان البرد كان شديدا. فمشينا حاملين أمتعتنا وحمل الشباب الموجودون المرأة المعوقة ملفوفة بعباءتها على أكتافهم. وسار الجميع حاملين مصائبهم معهم، وكان سيراً مخيفاً ملؤه البكاء، فلا يعرف أحد منا إتجاها معينا سوى المسير الى الأمام، وعلى صوت أنغام بكاء الأطفال المتعبين من رحلة العذاب.

كانت هناك ايضا، عائلة اخرى من المهجرين والتي أنزلوها معنا عند الحدود. كانت العائلة يبدو عليه الفقر، مكونة من أم احُتجز زوجها من قبل وثلاثة أطفال. الزوجة في نهاية العشرين من العمر تحمل ابنها الصغير المعوق وهو مصاب بشلل الأطفال، وابنتها ذات الست سنوات والولد الثالث وعمره أربع سنوات يمشون الى جانبها، كانت المرأة تحمل معها أكياسا فيها القليل من الملابس لسد حاجتهم وما سمح رجال الأمن بأخذه. كانت تمشي معنا، وعندما تعبت من عناء الطريق والبرد وهي باكية والأطفال يصرخون، جلست الى جانب الطريق وقد هدّها التعب والبكاء وكانت حالتها النفسية غير عادية، واذا بها تترك طفلها المريض الى جانب الطريق، وأخذت باقي الأولاد وما كانت تحمله من أكياس ملابس واستمرت بالسير قليلا مع أطفالها الباقين ونحن ننظر اليها بشفقة ولا نعرف ماذا ستعمل؟ بعد مسافه قصيرة بدأ الطفل بالصراخ «يمة، يمة» فهرعت إليه وحملت الطفل ثانية مثل المجنونة وهي تصرخ «وين الرحمة»؟ وهنا ساعدها بعض المشردين بحمل الأكياس كي تستطيع حمل طفلها المعوق. ولكن ليتكم تعيشون تلك الساعات العصيبة كان اليوم مثل يوم الحشر، كلنا «تعبانين مهدودين من الصدمة».

«بعد مسير حوالي أكثر من كيلو متر جاءتنا باصات من الطرف الإيراني لتنتشل تلك العوائل العراقية المطرودة ونقلتنا الى داخل بلدهم، ومع تلك الباصات كانت

هناك سيارة جيب عسكرية واحدة مرافقة. ساعدنا السائقون والمشرفون على الصعود وقالوا لنا كلمات الترحيب التي لم نفهمها في البداية لعدم ضلوعنا بلغتهم. اتجهت الباصات الى مكان غير معروف لنا وسط دعاء لوداع بلدنا الحبيب. بعد حوالي مسير ربع ساعة وصلنا الى قرية خسروي الحدودية وبالتحديد «مسجد خسروي»، وانزلونا مع حاجياتنا على الرصيف وكان المسجد حينها مكتظا بالشباب وعرفنا بعد ذلك انهم الشباب الذين كانوا مسجونين في سجن ابو غريب. اذ كانوا محجوزين بعد تهجير عوائلهم الى إيران وعاشوا تحت ظروف متعبة ومزرية في السجن، وبعد تهديدهم بهتك أعراض أخواتهم من قبل حراس السجن، وهذا ما أدى الى غضب شديد من الشباب الأحرار فقرروا كسر باب السجن وشعارهم «اما الموت واما الحياة». وفعلاً قاموا بكسر أبواب السجن وكان عددهم حوالي 300 شاب أغلبهم كانوا من الأكراد الفيلية وعملوا إضرابا كبيراً حينها. وهنا رضخت الحكومة لمطالب السجناء الأبرياء وقررت إلحاقهم بأهاليهم، لان النظام خشي من إنتقال الإضراب الى سجون أخرى قد تؤدي الى إخلال بوضعهم في البلد، لذلك تم تسفيرهم الى إيران بعد إعطاء 25 ديناراً عراقياً لكل شاب. وإضراب الشباب هو حقيقة، إذ لا يزال الكثير منهم على قيد الحياة، وربما سجل سجن ابو غريب او الأمن العامة، هذا الإضراب للشباب العراقي في زمن كان الظلم ينطق جبروتا وغطرسة (كتبت سابقاً عن هذا الحدث في نص اخر باسم مسجد خسروي).

بدخولنا الى المسجد المكتظ بأعداد كبيرة من المهجرين من العراق، سجّل المختصون بشؤون المهجرين أسماءنا وأعدادنا لغرض التوزيع الى مكانات أخرى. بعد وصولنا قدموا لنا أصحاب المسجد الشاي والجبن والخبز، بعد أن فسح لنا الشباب مكانا في باحة المسجد بخروجهم الى الخارج متألمين لوضعنا ومشفقين على الأطفال والنساء المتعبين من سفرة العذاب.

بعد مرور ساعتين أو أكثر قَدمت الى المسجد باصات كثيرة لغرض توزيعنا الى مدن أخرى، وهنا أشاروا علينا بالركوب وقسمت الباصات، باصات للشباب وباصات للعوائل وكان حينها ضجيج كبير لكثرة المسافرين والأطفال وذلك كان مشهد حزين جداً. كانت الباصات صغيرة لعدد الراكبين. وكانت عائلتي جميعها مع

عائلة بيت عمتي وعائلة إبنتهم في باص واحد مع عائلة أخرى، ولضيق المكان جلس الأطفال في أحضان أبويهم. وبعد جلوسنا تحركت العربات في إتجاه سفر واحد وهو الى مدينة سمنان الإيرانية. ودّعنا المسجد مثلما ودّعنا حدود الوطن ببكاء ولوعة وخوف من المستقبل الذي لا يمكننا التكهن فيه.

توجهت القافلة البشرية الى مدينة سمنان، وبين البكاء والتعب كنا مبهورين برؤية مناظر الطبيعة الخلابة والسلاسل الجبلية الشاهقة، وأنزلونا عدة مرات للاستراحة، وأعطونا سندويجات وعصائر عدة مرات. والطريق كان بعيدا وشاقا وكنا متعبين وخصوصاً الأطفال وذويهم، لذلك غلب النوم على أكثرنا خلال فترة السفر لعدم نومنا في ساحة الوطن المظلمة الرهيبة. بعد حوالي 18 ساعة وصلنا الى سمنان (وهي مدينة في محافظة سمنان شمال ايران وتقع على إمتداد سلسلة جبال وتحدها صحراء من الجنوب) وكان الوقت صباحاً. أنزلونا من الباص وأدخلونا في بناية هي روضة للأطفال (أفرغت لهذا الغرض)، وأصبحت مكانا لبقاء العوائل، وأما الشباب فكانت هناك بناية أخرى كبيرة مقابل روضة الأطفال أصبحت مخصصة لسكن للشباب. كنا متعبين من السفر الطويل واللوعة لضياعنا. وزعوا العوائل في غرف مختلفة، وشباب العوائل كان سكنهم صالة الروضة. بعد وصولنا بساعة جاءت عوائل إيرانية من المنطقة، وقدمت لنا الشاي والخبز والجبن والمربى، وكان افرادها يبكون لبكائنا. بقينا على هذا الحال حتى الظهر حيث قدم لنا الغداء وهو رز مع دجاج. وهكذا يومياً كانت تقدم لنا وجبة الغداء المطبوخة من قبل العوائل الايرانية، ولربما دفعت الحكومة أثمانها لا نعرف ذلك. وكانت وجبة الغداء طعاما مطبوخا يوزع علينا بعلب بلاستيكية ترمى بعد الإستعمال، ووجبة الفطور الصباحي والعشاء كانت الخبز والجبن والشاي والعصائر والحليب وأحيانا حلويات واشياء أخرى. بقينا في مدينة سمنان في بناية روضة الأطفال لمدة أسبوعين، وكنا نخرج أحياناً بمرافقة بعض العراقيين القدامى، (كانت مهمتهم متابعتنا ومساعدتنا في الترجمة، وهم من المهجرين في بداية السبعينات الذين كانوا يحاولون مساعدتنا في كل شيء حتى الآمور الصحية منها)، الى المدينة الجميلة والنظيفة التي دهشنا لتقدمها الحضاري وأسواقها الكبيرة ومحبة الناس.

العوائل الإيرانية في المنطقة ساعدتنا في المشاركة الوجدانية والبكاء على ما نمر به، كذلك اعطتنا ملابس مستعملة للأطفال، فالجو كان باردا والملابس التي كانت معنا كانت قليلة، كما قدموا لنا مساعدات عينية أخرى وكنا شاكرين لهم لتلك المساعدات الإنسانية.

بعد مضي إسبوعين في مدينة سمنان، تم تسفيرنا ثانية: العوائل والشباب الى مدينة أصفهان، وبالتحديد الى مخيم أصفهان «باغ أبرشيم» وبعد سفرة طويلة مضنية للجميع، وصلنا الى المخيمات في يوم 1/ 6/ 1980 ودخلنا المخيم ووزعوا علينا الخيام التي أصبحت مقرنا الحالي. في المخيم يعطون للناس في البداية الخبز والجبن والشاي، وللعوائل التي تبقى أكثر من خمسة أيام يقومون بتوزيع معونات غذائية جافة مثل الرز، البقوليات والعدس وأشياء أخرى بسخاء ولكن حياة المخيم مضنية متعبة والبرد القارص وكان الحنين الى بيوتنا ودفئها وحمايتها يزداد بازدياد الشقاء وحالة الضياع في المخيم، عذابات المخيم اليومية كانت كبيرة لا تعد ولا يمكن حصرها مهما وصفت.

كنت أستمع الى ما روته إبنة عمي، وقلبي يتقطع حزناً وليس بمقدوري التخفيف عنها سوى مدها بجرعة من الأمل الوهمي الذي كنت أقنع نفسي به. قضيت ذلك اليوم بالتجوال بين خيام عوائلنا المسبية والإستماع لمتاعبهم ومتاعب المخيم وحنينهم وخوفهم على عوائلنا في العراق وكان يوماً حزيناً كئيباً له طعم التراب والمرارة الذي كان يطغي على المخيمات وساكنيها المشردين. كنت أنظر من حولي لمآسي الناس في المخيم وأجد نفسي عاجزة عن عمل أي شيء سوى مشاركتهم في أحزانهم التي هي أحزاني. تلك الليلة سهرنا في خيمة عماتي المسبيات، وبين البكاء وأحيانا الضحك، حيث ان عمتي «أم غايب» كانت رغم المآسي التي مرت في حياتها أريحية وتحاول ان تخلق جواً ترفيهياً بسيطا وسط ذلك الزخم من الآلام والحزن. بعد ذلك نام أخي كاظم في خيمة عماتي، وخالي نام في خيمة الشباب وأنا نمت في خيمة بنت عمي فاطمة وأمها الطيبة.

قضيت تلك الليلة بالسماع الى قصص التسفير المروعة. كانت ابنة عمي تتحدث

وعيونها تبكي الظلم والقهر الذي حلّ بهم، وفجأة بدأت إبتسامة جميلة على وجهها الفتي المجهد وقالت «هل تعرفين ما كان محتوى الأكياس التي وضعوها الجيران في باص التسفير»، فأجبتها بالنفي، فقالت فاطمة ضاحكة «عندما فتحنا الأكياس في مدينة سمنان، تفاجأنا بمحتواها فكان كيس فيه مسامير مزنجرة والكيس الآخر كان محتواه مكواة قديمة خربة وكل الأكياس التي ساعدونا فيها الجيران كانت ضمن أشياء ينوي أخي الذي يشتغل في الورشة رميها أو إعطائها لمن يستفاد منها. في البداية كنا مندهشين من المحتويات لأنها لا تنفعنا، وبعدين ضحكنا لأننا أخذنا معنا ممتلكات الدولة الثمينة دون معرفة الأمن العامة، رمينا الأكياس ومحتواها الذي أتعبنا في سيرنا من الحدود في برميل القمامة في مدينة سمنان «. وبهذا الحديث أطفأنا الفانوس النفطي كي نحاول أن نخلد الى النوم بعد يوم مليء بقصص وعذابات المسفرين، وهكذا دخلت ضحكة فاطمة، كي تكون ضحكة يتيمة في مآسي المنفى.

24

المخيم... وشعور اليتم

قضيت تلك الليلة في الخيمة الباردة البعيدة كل البعد عن الحياة الإنسانية الطبيعية، وكان النوم يأبى ان يمر على عيني وروحي المتعبة، فالإحساس بالعجز عن تقديم المساعدة لأحبائنا، وإيجاد حل لما يمرون فيه، كان يزيد من حالة المرارة والخيبة. لم أتحدث لأحد بما تمر به عائلتي من ضياع، لان الحياة في المخيم هي أبشع بكثير مما تمر به عائلتي. مرت ليلة البؤس الكئيبة ببطء بين النوم واليقظة، أشرقت الشمس في الصبح معلنة بدء يوم جديد لوضع ميؤوس منه، خرجت بعد استيقاظ إبنة عمي من الخيمة وفي طريقنا الى الحمامات، شاهدت طابور استلام الفطور الصباحي، وأثارني كيف كان عدد النساء اللاتي يقفن في الطابور كبيراً. كان هذا والمشاهد الأخرى لتلك النفوس المتعبة التي تحاول أن تجد إستمرارية لما يسمى الحياة، مؤلمة ومؤثرة جداً. تناولت أفطاري مع فاطمة في خيمة عماتي، وكان أخي وخالي حاضرين. حاول الجميع ان يخفف من حالة الضياع والتشرد، تناولنا الإفطار وكان التراب شريكنا في الجلسة. كان على سكان الخيام ان يذهبوا الى مكان بعيد لإستلام النفط (الذي يستعمل للطبخ البسيط ولغرض التدفئة ليلاً)، والزحمة كانت كبيرة وغالباً، وكما رأيت بأم عيني، ان نصف كمية النفط التي يستلمها المشرد يسقط على الأرض أو الملابس. وجوه ساكني المخيم كانت هزيلة متعبة لانعدام الأمل بالخروج من هذا الكابوس المروّع.

كانت العوائل كثيرة، وكما ذكرت لي إبنة عمي، بأننا كنا أوفر حظاً من العوائل التي هُجرت بعدنا تحت ضغوط وحشية من قبل النظام، وتحدثت لي عن بعض مآسي المهجرين.

ومن قصص المخيم المؤلمة التي روتها، أذكر البعض القليل منها، وضحاياها بعضهم لا يزالون أحياء يعيشون بعذاب الماضي حيث ان التهجير (بعد تسفيرنا) أصبح قاسياً، وحسب ما يريده بل ويهواه المُنفذون المتمرسون بالقسوة، فكانت تُقسم العائلة العراقية الواحدة الى قسمين قسم يُهجر على انه ايراني والقسم الاخر يبقى في العراق على انه عراقي، ويتم ذلك تحت ضغوط قسرية ومنها التهديد بالقتل وهذا ما حدث لفتاة جامعية شابة، نسيت إسمها، حيث هُجّرت هي وأمها وبقى أخوتها وأبوها في العراق، كونهم «تبعية عثمانية»، وبهذا تقسّم العائلة العراقية بشكل غير إنساني وبشع ليكون عذابا على طرفي العائلة. أما الفتاتان «نعيمة وغنيمة» اليتيمتان وهما من الاكراد الفيلية، فكانت قصتهما مُفجعة، حيث حجز الإرهابيون إخوتهم الستة (وبعد سقوط النظام إكتشفوا بأنهم إعدموا على يد صدام وأعوانه وبدون ذنب وليس لهم قبر يستدلون به). كذلك قصة أم يوسف، التي هُجّرت مع عائلتها فيما تم حجز ثلاثة من أولادها الشباب وأعدموا لاحقا كما أخبرني اقربائي. وقصة المرأة (التي كانت زعلانة في بيت أبيها) تاركة أطفالها حينها عند أهل زوجها، وعندما سُفّر أهلها الى إيران، سُفّرت معهم، رغم إعتراضها وبكاءها على أطفالها ورغبتها الشديدة بالعودة الى بيت زوجها، لكن أزلام الأمن، لم يستجيبوا لبكائها وطلبها ليتم تهجيرها مع عائلتها، وفي المخيم فقدت صوابها وعقلها، فأخذت تمر على الخيام طيلة النهار تبحث عن أطفالها، وعندما ترى أطفال في أحد شوارع المخيم تركض ورائهم منادية «ذولة جهالي» (هؤلاء أطفالي)، وبعد أن تنظر اليهم جيدا، تقول «ذولة مو جهالي» (ليس أطفالي)، لتجلس على الأرض نائحة، والناس تشفق عليها وعلى حياتها كمعذبة باتت تعيش بين الخيال والواقع.

اما قصة «أم زمن» التي هُجّرت وعائلتها الى إيران، فتكشف كيف منعت إبنتها حينذاك ذات العشر سنوات والتلميذة من الإلتحاق بها، رغم توسلها لرجال الأمن بان تأخذ إبنتها معها، لكنهم رفضوا وبقيت الطفلة مجهولة المصير لا العائلة تعرف عن الطفلة ولا هذه تعرف عن أهلها شيئا، ليصبح بكاء «أم زمن» على ابنتها مريراً. ومن قصص المخيم، قصة الشابة هيفاء من مدينة الكاظمية التي سُفّرت مع أبيها وأختها، وفقد والدهم عقله وصوابه، وأختفى من المخيم ولم يرجع ثانية وهذه

قصص واقعية، اختصرتها لأنني مهما أكتب، لن أستطيع إعطاء هؤلاء الناس حقّهم، كما انني علمت حينها بوصول عوائل الى المخيم أعدم أولادها، لتشهد بعض الخيام مراسم عزاء للنساء، فكانت عماتي يذهبن إليها، ليشاركن النساء السبايا حزنهن، ولتبك عمتي الكبيرة «أم جواد»، فقدان ولدها الصغير «نضال»، وكأنها كانت تحس بانه سيُعدم بيد الطاغية، فكانت تقول صارخة سيقتلون ولدي نضال. بعد سقوط النظام السابق 2003 وجد أخوته وثيقة إعدامه في عام 1982 من قبل الحكومة. نعم اعُدم أبن عمتي الشاب المسالم نضال وهو بعمر زهور الربيع، لأنه يؤمن بعقيدة أخرى لا تتماشى مع الحرب الحاكم.

دخلت خيمة زوجة ابن عمي الكبير، التي استقبلتني بالبكاء، وكانت شابة مرحة ولكن صعوبة الحياة في الخيمة وألم الفراق على أهلها، وصعوبة إقناع أطفالها الصغار بقبول العيش في الخيمة، كان قد ترك بصمات البؤس على ملامحها، والحزن على وجهها. الأطفال كانوا يطالبونها بالرجوع الى البيت القديم، وإقناعهم باستحالة ذلك كان صعبا جداً. كانت خائفة على نفسية أطفالها نتيجة فزع التهجير والأسلحة التي كانت موجهة نحو العائلة أثناء التهجير. كانت متعبة جداً لان حياة المخيم والبرد والتراب ذو تأثير سيء على الجميع وعلى الأخص صحة الأطفال الذين يعيشون في جو مشحون بالألم والأسى. كانت تسألني أين المفر؟ وماذا يخبئ لنا الزمن؟ كنت لا أستطيع إيجاد جواب يمنحها بعض الراحة، أو فيه بصيص من الأمل.

خرجت من خيمتها لأذهب الى خيام عوائلنا الأخرى، والتي لم تكن أفضل حالاً، حيث المعاناة مما أصبح عليه الأهل، ومخاوفهم من نشوب الحرب التي كان القادمون من العراق يتوقعون حدوثها.

أخبرتني ابنة عمي فاطمة، بان بعض العوائل الايرانية الميسورة الحال قامت بكفالة عدد من العوائل المهجّرة، وأخرجتها من المخيم، واستأجروا لهم غرفاً وساعدوهم في المعيشة وإيجاد عمل. فيما أوضحت ان أغلب العوائل الباقية في المخيم، ليس لها أقارب أو أصدقاء في ايران، لذا ظلت في الخيام على أمل أن تحلّ قضيتها سريعاً. لم نعرف ان كانت إيران قدمت إحتجاجا الى الأمم المتحدة حول أوضاعنا أم لا؟ ولا نعرف من نسأل مثل هذا السؤال الحساس؟

مضى ذلك اليوم المتعب مليئاً بالأحداث والمشاهدات المحزنة، كان في داخلي نوع من الخوف على بلدي من عاقبة ما يجري الآن، كنت خائفة من الحقد والانتقام الذي سيترعرع في نفوس الناس في داخل العراق وخارجه، وهذا سيسبب بدوره بانشقاق الوحدة الإنسانية والوطنية، ولربما ستكون عواقبه وخيمة تؤدي الى نهاية الإنسان العراقي. كنت أحاول ان هرب من تلك الأفكار المتشائمة. كان الحديث مع أولاد عمي والحاضرين، عن براءة الشعب العراقي والوطن مما يحدث وتوجيه أصابع الإتهام الى الحكومة. لم ألحظ أو أشعر، ان لدى المهجرين الذين التقيتهم سابقاً والآن في المخيم، غضب او حقد على الوطن أو الشعب، بل على العكس رأيت وجدانية الإحساس مع العراقيين الموجودين في الداخل ودعاء صميمي من أن يقف الله مع الشعب المغلوب على أمره في تلك المحنة. ولكن كان هناك غضب واستنكار لما تقوم به الحكومة بقيادة الحزب الحاكم، كان الغضب على صدام ومؤازريه الحقيقين المنتفعين من زرع الخوف والفتنة بين صفوف الشعب. كان الغضب يشمل فقط طبقة المنتفعين التي ليس لها ضمير، فهؤلاء من ضعاف النفوس، كانوا سببا في تهجير وقتل الشعب وكانت أياديهم ملطخة بالدم والعار.

إنتهت زيارتنا الى المخيم بعد الظهر. ودّعنا أحبتنا: عماتي والعوائل الأخرى فيما الجميع كان يبكي. ودّعناهم داعيين الله ان يرأف بحالهم وبحال الناس التي معهم ويعطيهم الصبر. كان وداعي لهم مؤلما جداً.

بدأنا طريق العودة الى طهران بالباصات السياحية بعد الظهر. كنت متعبة جداً من عناء ما شاهدته، تملكني إحساس غريب، كأني رأيت تلك الأحداث وعشتها من قبل. نمت في طريق العودة باكتئاب كبير. وصلنا في الساعة الواحدة ليلاً، ودّعنا خالي الذي ذهب الى بيته، وقد ألحّ علينا بالذهاب معه ولكننا شكرناه لمرافقته لنا. استأجر أخي كاظم سيارة الى بيت خالتي معصومة التي فتحت الباب وكانت بانتظار عودتنا، فسفرنا بدأ من بيتها، وزوجها الكريم أوصلنا بنفسه الى كراجات أصفهان. إستقبلتنا خالتي كعادتها بحفاوة عالية، وأحاطتنا بحبها. نمت تلك الليلة بروح كسرها الهم والقهر وشعرت حينها باليتم الحقيقي. اليتم في ليلة قاتمة كليا بين ليالي المنفى.

شهر رمضان في المنفى

في تلك الفترة الحرجة والقاسية في حياة عائلتنا، بدأت تظهر بعض التغيرات في شخصية الإنسان الطبيعي فينا، فغالبا ما نكون عصبيين كئيبين، وبدأت تظهر على بعضنا علامات الهزال والضعف نتيجة اضطراب الأوضاع النفسية، والإحساس بثقل وجودنا على العوائل المضيفة التي يدرك بعضها ما نمرّ به من تشتت وضياع، وكذلك مشاعر فقدان الجو العائلي وحريتنا الشخصية التي تركناها هناك في بيتنا في وطن اسمه العراق.

في تلك الأجواء والمشاعر المتضاربة صادف حلول شهر رمضان، وهو من الأشهر الفضيلة التي كان ينتظرها المسلمون بشوق كبير. ففي بلادي كان لشهر رمضان طعم ومذاق خاص، والناس كانت تباركه وتبتهل لحلوله. وأتذكّر في صغري كيف كانت والدتي، وقبل حلول شهر رمضان، تبدأ بشراء المواد الغذائية المهمة لتحضير وجبات الإفطار لعائلتنا الكبيرة. ومن المراسيم الدافئة التي كنا نحتفي بها هي دعوة الإفطار التي كانت العوائل تتبادلها والسهر والدعاء والإبتهال الى الله بالحب والخير والبركة، وكان أغلبية الناس الكبار تصوم هذا الشهر ما عدا الأطفال والمرضى وكبار السن.

اتذكر في طفولتي وبحكم صغري في العمر انني لم اكن اصوم، ولكني كنت أصحو على صوت دمام (طبل) السحور، الذي كان ينقر عليه رجل قبل ساعتين من الفجر منادياً ومردداً «سحور.. ثم نقرتين على الطبل....سحور»، ويجول الرجل ناقراً طبله في كل الحي، موقظا الناس لتناول السحور. هنا كنت أستيقظ مع الجميع لأتناول مع أفراد العائلة الكبار طعام السحور التي تحضّره والدتي وبكل اعتناء وبعدها يتم شرب الشاي.

وقبل حلول الفجر ينادي المؤذن في المساجد والحسينيات (والتي كانت منتشرة في مدينتنا الشعبية) بقوله «إشرب الماء وعجّل» وبعدها بدقائق يقول «امساك»، وبهذه الكلمة يتوقف الناس عن الأكل والشراب، ويبدأ أذان الفجر ويبدأ الصيام، ليصلي الكبار، وأذهب انا للنوم ثانية بعد تلك المتعة العائلية الجميلة، وأنام على حلم طفولي جميل اسمه رمضان.

في الصباح تبدأ الوالدة، وأحيانا بمشاورة جاراتنا عن الأطباق الرمضانية الجديدة واللذيذة وأيها سيكون على مائدة الافطار؟ لان الصائم غالباً ما يشتهي أصنافا رمضانية معينة، وخصوصا اذا كان الصائم والدي، فهو كان يشتهي الطعام ويتذوّقه برفعة.

وكثيرا ما تتبادل العوائل، وخصوصاً الجيران، الأطباق الشهية دلالة على المحبة والكرم الرمضاني المشهور. كان لنا نحن الأطفال حق الصوم الى قبل أذان الظهر، والإفطار بعد الأذان، ولتشجيع الطفل على الصيام يعامل معاملة طيبة. وما دفعني للصوم منذ صغري هو ان الجميع يعاملون الصائم الأكبر مني معاملة خاصة، وكان بذلك يصبح فردا من الدرجة الأولى وخصوصاً في وقت تحضير سفرة الإفطار، بينما يكون على المفطر، مثل نادل المطعم، يقوم على خدمة الصائم، لذا قررت الصوم مثلهم، ولو انني كنت ابلع بعض اللقيمات في الخفاء، لعدم قدرتي على إكمال الصيام، ولكنني بعمر 12 كنت قد صمت صياما حقيقيا.

وبعد أذان المغرب تكون مائدة الإفطار جاهزة، وأهم أطباقها الشوربة والمقليات والمقبلات، وكان الدفء العائلي والمحبة أساسها. وبعد الإفطار والشاي يأتي دور الحلويات كالبقلاوة والزلابية ويبدأ الأطفال في الحارة بغناء «الماجينة يا ماجينة»، مارين على البيوت للحصول على الحلويات، واما الرجال فكانوا يذهبون الى المساجد او المقاهي لممارسة لعبة «المحيبس» الجميلة.

وكان التلفزيون، يبث التراتيل الرمضانية الجميلة، ومسلسلات درامية كانت تتابعها العوائل بشغف كبير. وكان الشارع لا يفرغ من الناس المحتفلة بهذا الشهر الكريم الجميل في عاداته وطقوسه في بلدي البعيد الذي تبقى ذكراه حلماً جميلا.

بعد شهرين من التسفير، حلّ شهر رمضان على عائلتنا المشردة، كان فرحنا فيه يتيماً، تنقصه مقومات البهجة العائلية، تنقصه سُفرة إفطارنا، والعائلة ومرحها وحبها، البيت الدافئ الجميل الذي كان يجمعنا، ينقصه الأهل والجيران، والأطفال والوطن. لذلك لم نشعر بوجوده لبعدنا عن بعضنا، فحلول شهر رمضان في المنفى كان أليماً وحزيناَ بيننا جميعا.

كنا نحاول الاحتفال بذكراه التي لم تفارقنا، لنصل الى البكاء على ما أصبحنا عليه من عذاب وتشرد ناهيك عن عذاب أهلنا في المخيمات وشعبنا في الوطن تحت رحمة جلاد الزمن. لقد قررت الصيام تقرباً الى الله تعالى، ودعاء صميمي في داخلي هو ان يجمع الله عائلتي ببعضها ثانية، لان شعوري بفقدانهم كان كبيرا، وبالوطن الذي جمعنا العمر كله تحت حمايته، وأمنية ان يزاح الشر من بلدنا الكسير وعن شعبنا الطيب.

لم أشعر بمعالم الشهر الكريم، إلا القليل منها، لأنني لم أخرج الى المدينة، وكانت حالتي النفسية الكسيرة جعلتني معتكفة عن العالم الخارجي، أخرج أحياناً للبحث عن عمل، أو كنت ألتقي ببعض أفراد عائلتي وبمحض الصدفة. كان من الصعب جداً التآلف مع وضعنا المتعب رغم محاولة بعض عوائل والدتي بتعويضنا بالحب وتفهم أحوالنا.

كنت أسكن في بيت خالتي أم ناصر الطيبة، التي ظلت تحاول أن تعوضني الفقدان، فكانت أما ثانية لي، ترعاني وتغمرني بمحبتها، ولكنني كنت أخجل من وضعي، وأشعر بثقل وجودي، لكن هذا لم يمنع ان ادخل معها في المطبخ لتحدثني عن ذكريات الماضي. كنت أحبها بشكل كبير لعاطفتها الإنسانية وكرمها الكبير وهدوئها وكلامها الملائكي.

صمت أول أيام رمضان، وطلبت من خالتي أن لا توقظني وقت السحور، مدعية انني معتادة على ان لا اتناول طعام السحور، ولكن الحقيقة هي انني لم ارغب ان اكون على سفرة الطعام لوجبة أخرى.

في أول إسبوع الصيام تعبت كثيرا، وتناولي لطعام الإفطار كان قليلا، بسبب الحزن مما أنا وعائلتي فيه، والخجل الذي كان يرافقني من إستمرار وجودي ضيفة

ثقيلة. وشعرت خالتي بوضعي المتعب ومحاولة منها لإدخال البهجة، أرادت ان تفرحني وتفرح العائلة، وبدون معرفتي دعت عائلتي على وجبة الإفطار. قبل موعد الإفطار، بدأت عائلتي المشردة بالمجيء الى بيت خالتي التي كانت طوال النهار مشغولة بطبخ ألذّ أنواع الأطباق، وقمت بمساعدتها بعض الشيء، وحضرّت الكباب الذي ستشويه على «المنقلة»، فهي كانت طباخة ماهرة وخصوصا بعمل المشاوي.

كان أول الوافدين والدتي ووالدي، وبعد ذلك وعلى وجبات، حضر ما تبقى من العائلة، فرحت بلقاء أمي وأبي، وصدمني هزالهما البدني، فكانا متعبين، والإبتسامة الحقيقية قد فارقتهما، وبهذا شعرت بتحطم كامل لروحي، حاولت إخفاء هذا الشعور عن العائلة، ولكن بعد ان رتُبت سفرة الإفطار، ومساعدة خالتي في شي الكباب، وبعد تناول طعام الافطار، شعرت بطاقتي قد فارقتني، واصّفر وجهي الذي لاحظته والدتي والتي أصرّت على الذهاب بي الى الطبيب، وهنا نقلوني الى المستشفى يرافقني والدي وأخي الكبير وبعض أفراد عائلة خالتي، وكان بكائي شديدا وبدون إرادتي، وفي المستشفى إتضح هبوط حاد في ضغط دمي، وأعطوني المغذي الذي خلط فيه دواء آخر، رأيت والدي أمام باب غرفة الإنعاش وهو يجهش بالبكاء الحار الذي لربما قد فجّره فيه، مرضي وكان منظره ذاك مؤلما وقاسيا.

بعد علاجي اعطاني الطبيب حبوب الفيتامينات ومنع عني الصيام. رجعنا الى بيت خالتي، وهنا أوصاني والدي ان أكون قوية، فهي مرحلة مؤقتة، وكان يحاول بذلك إعطائي بعض الأمل، الذي لربما هو ما كان يفتقده، وأمضيت تلك الليلة بحزن كبير.

وهكذا أصبح شهر رمضان حزينا ومؤلما لكل المشردين الذين يفتقدون الفرحة في منفاهم، يتيما من الفرح الذي كان يعنيه حضوره بيننا، ليصبح أكثر ذكريات التهجير.... حزنا.

26

أشتات العائلة... بانتظار رنين الهاتف

بعد مرور أسابيع على قرار توزيع أفراد العائلة بين بيوت الأقرباء، لا زلنا مقسّمين، ولكل منا مشاكله النفسية وأحيانا الجسدية التي بدأنا بالإحتفاظ بها وإبقائها مخبأة عن بعضنا، كي لا نزيد هموم العائلة المشردة أكثر مما هي مهمومة.

في تلك الفترة كان أخوتي يشتغلون في أماكن بعيدة ولا نراهم إلا قليلاً، أما أختي طبيبة الأسنان وبعد محاولات الإتصال وكتابة الرسائل مع بعض أصدقائنا العرب، فقد حصلت على شهادة تخرجها وإثبات عملها عبر أختي المتزوجة في العراق. وبدأت سجواء، بتصديق شهادتها وكانت بعض أفراد عائلة والدتي يرافقونها الى الدوائر المختصة. وكان عليها من ضمن الشروط المطلوبة منها، هو إحضار اثنين من شهود الإثبات، لتصبح معاملة قبول دراستها وعملها في العراق بين مد وجزر وصعبة جداً، وهو ما جعل من سجواء، متألمة عصبية، حاملة لهموم عائلتنا وعازمة على إنقاذها من أوضاعها الصعبة.

اما انا فكنت أحاول العمل، ولكن عدم وجود أي إثبات او هوية لدي، كان من الأسباب التي تمنعني عن التقديم للعمل في المؤسسات الرسمية، وكذلك كانت اللغة عائقا كبيرا مضافا الى عوائق أخرى. لذلك كنت أطرق أبواب الشركات التجارية الخاصة للعمل كمترجمة أو سكرتيرة معتمدة على لغتي الانجليزية والعربية، وكان يصاحبني الى تلك الأمكنة، بعض أولاد أخوالي الشباب لعدم معرفتي بأمكنة العمل، وكلما رجعت مخذولة يبدأ ألمي وبكائي بصمت لعدم قدرتي على مساعدة نفسي وعائلتي، وكنت بين الحين والحين أكلم أستاذ الجامعة مستفسرة عن إمكانية العمل أو

الدراسة، ولكن لم يكن هناك تغير في الأوضاع، ولم تكن هناك بادرة أمل، وبهذا كانت أبواب العمل أو الدراسة مقفلة في وجوهنا نحن الشباب المشردين، وهو ما كان يزيد من تدهور حالتنا النفسية.

في طيلة فترة «التقسيم» تلك، كان إثنان من أخوتي في بيت خالي سليم الذي ساعدهم في إيجاد عمل، إذ ساعد خالي، أخي حامد، على إيجاد عمل (تورنجي) في ورشة أحد الإيرانيين، وأشتغل أخي بثمن بخس لا يكفي لوجبة غذاء رغم ان عمله على الماكينة، تطور من خلال دراسته في الجامعة التكنولوجية، وكان أخي يتألم لان المساعدة التي يقدمها للعائلة كانت قليلة بحكم الأجر الزهيد.

كان أخوتي يذهبون من بيت خالي الى العمل في الصباح الباكر، لقضاء يوم شاق يلهيهم عن التفكير وقضاء القليل من احتياج العائلة، ومساعدة الأخوات والوالدين في تلك الظروف، اما أخواتي وأفراد عائلتي ووالدنا، فقد كانوا في تنقل مستمر وغير منهجي بين العوائل، ونلتقي غالبا يوم الجمعة عند احد الأخوال او الخالات الكرام الذي كنا نشكر لهم مواقفهم، وسنظل مدينين لهم طول العمر، فلولاهم لكنا مشردين، وكان مصيرنا الخيام بل وما بعد الخيام، في ضياع رهيب.

في بداية الإسبوع الخامس، أخبرتنا خالتي أم ناصر، بان أختي المتزوجة في العراق تكلمت معها هاتفيا، (لاننا أرسلنا رقم تلفون خالتي مع المكاتيب الى أصدقائنا العرب وخصوصا صديق لبناني كان يعرف عائلتنا لذلك تمكنت أختي من مخابرة خالتي) من بدالة اتصالات عمومية في بغداد، وحددوا موعدا في اليوم الثاني في الساعة السادسة عصرا في بيت خالتي لإجراء المكالمة الهاتفية. وأخبرت خالتي الطيبة جميع أفراد عائلتي بالخبر الجميل ودعتنا الى بيتها الكريم للعشاء والمبيت.

في تلك الليلة، نام الجميع في الديار المختلفة على حلم سماع صوت أختي الذي اشتقنا، فالجميع كان خائفا عليها من يد ظالمة لا تعرف الرحمة. حضرت أشتات العائلة عصر اليوم التالي الى بيت خالتي أم ناصر التي فرحت لفرحنا، وهي تقصّ علينا مكالمتها مع أختي وكنا نسألها عن ما دار بينهما من حديث، فكانت تجيبنا بكل صبر ومحبة. والدي كان يوصينا مرراً وتكراراً في أن نحذر في كلامنا مع أختي لربما، بل هو

أكيد، ان التلفونات مراقبة في العراق، وأي خطأ ممكن تكون عاقبته وخيمة على أختي وعائلتها. لذلك كانت مفردة الحذر هي كلمة هذا اليوم التي رددناها مع بعضنا. كانت والدتي صديقة حميمة لأختي الكبيرة وكانت تراعي أحفادها خلال فترة عمل أختي، وكانت مضطربة جداً حتى قبل ان تمسك سماعة الهاتف. جميعنا كان ينظر الى الساعة وعقاربها وفرحة ولهفة صغيرة كانت تجمع العائلة ثانية، متذكرين الزمن القديم وجماله الذي لا زال يرافقنا ويعيش في يومياتنا السوداء في المنفى.

انتظارنا طال قليلاً والجميع يمر بجانب الهاتف ويحمله شوقه لسماع أختنا البعيدة. رنّ الهاتف عدة مرات لكن المتصل لم يكن أختي، فيما تتولى خالتي ابلاغ الطرف الآخر وبأدب شديد، بضرورة اغلاق الهاتف كوننا ننتظر مكالمة من العراق. وفي الساعة السادسة والنصف رن الهاتف وكانت اختي على الطرف البعيد، وسكت الجميع كي تكون المكالمة هادئة. كان اول المتكلمين معها والدي وكان يحاول ان لا يبكي رغم بكاء أختي الشديد، وأعطى التلفون الى والدتي التي كانت ترتجف ولكنها لم تبك، وحاولت مثل والدي إعطاء أختي نوعا من القوة والصبر والتحمل، وتكلمنا معها جميعاً واخبرناها بأن وضعنا جيد وحاولنا قدر الإمكان اعطاؤها صورة جيدة عن وضعنا، بإخفاء ما كانت تمر به العائلة من معاناة، كي لا نزيد من حزنها وقلقها. ورأيت والدي يبكي في باحة الدار ثم بكى الجميع لما تعانيه أختي من الفراق والألم لوحدها في السجن الكبير. بعد تلك المكالمة التي كانت مشاعر الفرح والحزن تتخللها في وقت واحد، تناولنا وجبة العشاء بإرتياح وشهية، وكان أخوتي يتمازحون مع إبن خالتي ناصر الذي كان يقارب أعمارنا، فيما كانت إبنة خالتي واسمها عالية، صديقة لنا، لتكون هناك سهرة جميلة، نمنا بعدها على نغمات صوت أختي، وكان حلمنا الكبير ان نلتقي بها قريباً.

في اليوم الثاني كنا مدعوين عند خالتي التي لا يمكنني وصفها ووصف إنسانيتها وكرمها ما حييت. بعد تناول الإفطار، ذهب أخوتي الى العمل، فيما بقينا في بيت خالتي التي أحضرت لنا سيارة الأجرة الخاصة بهم التي نقلتنا الى بيت خالتي معصومة الكريمة ام الدنيا، وهناك بقينا جميعنا في ضيافتها ثلاثة أيام، وغمرتنا بحبها مثل باقي العوائل الطيبة.

كان بيت خالتي يتكون من ثلاثة طوابق، ومساحة البناء خمسين متراً وكان المطبخ في القبو المليء بالخضرة وأنواع الطرشي، لان زوجها كان عنده محل كبير لبيع الخضار، وكانت هي وزوجها كريمين جداً، ولهما بنت اسمها نجمة، وعمرها حينذاك يقارب عشر سنوات، وولدان أصغر من نجمة، وبنت صغيرة اسمها نرجس. خالتي كانت بسيطة جداً وحدثتنا عن زواجها وعن حياتها السابقة، وعن جدي وأمور كثيرة، ومنها دخولها المدرسة رغم معارضة اخوتها، فكنا نحس بمرحها وحيوية شبابها الطافح.

لاحظت في بيت خالتي أدوات كهربائية جديدة غير مستعملة، وسألتها عن تلك الأجهزة الكثيرة، وعن الوسائد المطرزة والمصنوعة من قماش الستان الجميلة، واشياء اخرى مركونة في احدى الغرف، فأجابتني خالتي بان هذا الأثاث، هو جهاز عرس إبنتها الكبيرة نجمة ذات العشر سنوات، ورأت خالتي علامات التعجب والإستفهام في وجهي، وهنا أوضحت خالتي لي، تقاليد المجتمع الإيراني بان أهل العروس مسؤولون عن تجهيز البنت، ولذلك تحاول العوائل التي عندهم بنات ان تجمع جهاز عرس البنت منذ وقت مبكر، ووفقا لمستوى التجهيز، تكون المحبة، والعائلة التي لديها بنات كان همها كبيرا، لتحملها عبء المصاريف الباهظ.

تذكرت الزواج في بلدي الذي يثقل كاهل الشاب الذي يريد ان يتأهل للزواج يوما ما، وكيف عليه دفع المقدم والأثاث وطلبات أهل الخطيبة التي ليس لها نهاية، بينما هنا كان الأمر مختلفا والصعوبات على عكس عاداتنا. وتذكرت قصة زواج جدي، والتي كانت مشابهة لقصة زواج الفترة القديمة في الزمن العثماني (العصملي)، اذ يكون المهر الغائب طلبات تعجيزية، لا يمكن ايفاؤها لصعوبتها، لذلك كان الطلاق قليلاً تلك الفترة.

وحكاية جدي والمهر الغائب كما يلي:

كان جدي (والد أبي) ماهرا في حياكة أغطية الوجوه، او (الفوط) النسائية العراقية في بغداد، وتسمى تلك المهنة (الحايج) أو الحائك، ويقطن في مدينة بغداد وأراد الزواج بجدتي (والدة ابي)، من الكاظمية فكان عليه ان يكتب مهر الغائب تعجيزيا

وحسب طلب والدها، فكان المهر الغائب لجدتي هو كيلوان من أجنحة البرغوث، هذه هي حقيقة سمعتها من جدتي ومن عماتي.

فتخيلت جدي اذا أراد الطلاق من جدتي، فان عليه الركض العمر كله في طول البلاد وعرضها، ولربما يساعده الأهل والأصدقاء والجيران لجمع أجنحة البراغيث، ورغم ذلك فانه لن يستطيع دفع غائبها. ورأيت جدي مقيدا في زواجه بملايين من أجنحة البراغيث طوال العمر.

وبهذا دخل جدي وقصة أجنحة البراغيث كأظرف حكايات المنفى.

27

جريح ونحن مثله

كان الوطن لنا هو الانتماء الروحي والهوية، وهو طيبة أمنا الحنون التي تجمع أولادها تحت سقف واحد، هو الطفولة والحب والمستقبل، وها نحن في المنفى ولا زلنا نفكر بما يحدث وشعورنا ان بلدنا جريح ونحن مثله، حتى لو شردنا بأسمه، وكان كلانا كالغريق يبحث عن قشة النجاة. نشعر بجراحاتنا في صميم حبنا له.

في تلك الفترة الضائعة من عمرنا كانت أخبار الوطن قليلة وليس لنا من يخبرنا عما يحدث. كان التلفزيون الإيراني يبث الأخبار باللغة الفارسية التي لم نكن ضالعين بها. وكنا نسمع بعض الاخبار من خلال إخوتنا لتخالطهم مع الناس وكذلك من العمل، سمعنا منهم بان الأوضـاع في العراق لا تبشر بخير، وان التهجير كان يتم بصورة قاسية تحت ظروف مبهمة حيث يحتجز الشباب في الأمن العامة ويُسفر أهاليهم الى إيران، والشباب كانوا يُرحلون الى السجون بدون ذنب أو تهمة، وهناك أخبار عن إن إعدامات تتم في السجون العراقية وبدون محاكمات. وكذلك ان العلاقة بين العراق وإيران تسوء يوما بعد يوم والحرب أصبحت على الأبواب. هذه الأخبار وغيرها كانت تزيد همومنا وخوفنا على وطننا وأهلنا، اما الحلم الذي كان يدغدغنا بالعودة الى الوطن فقد أخذ بالإضمحلال وحل محله الخوف وعدم الإستقرار الذي رافقنا الى يومنا هذا.

في الوطن البعيد كنا نعيش في بيت ملؤه المحبة والدفء العائلي، وكان والدي شديدا وصارما في تربيته لنا كي يجعل منا أهلا لتحمل المسؤولية، وكان يحاول قدر إمكانه تلبية طلباتنا وطلبات البيت اليومية. والدي كان يعمل يومياً منذ طفولته

لتحمله مصاريف العائلة، وهذا كان معتاد عليه في الزمن القديم وهو تحمل الزوج لمصاريف البيت والزوجة عليها تربية الأطفال وإدارة شؤون البيت. لذلك كانت زمام الأمور الإقتصادية والعلاقات الإجتماعية من أكبر مهمات الوالد. وله الفضل الكبير في تعليمنا أمور كثيرة نفعتنا لاحقاً في كل مراحل حياتنا. اما والدتي فكانت مصدر المحبة والإنسانية كانت عطوفة طيبة كباقي الأمهات، ربتنا على المحبة والتآلف والصبر، وكثيراُ ما كانت تتحمل عصبية والدي وتقلباته النفسية الصعبة جدا، ولكن بصبرها وبحبها الفطري تحاول ان تهدئ من أمور الحياة الصعبة لتجعل عشها الصغير مصدر مودة وحب انساني.

يومياَ كان يذهب والدي مبكراً الى العمل لكسب الرزق لتوفير متطلبات الأسرة، في السنوات العشر الأخيرة كان يذهب والدي الى عمله في الساعة التاسعة صباحا معتمدا بذلك على عامله النشيط واسمه (قدوري) الذي كان يأتمن اليه لأنه أشتغل مع والدي لسنوات عدة، وأصبح مصدر ثقة كبيرة يُعتمد عليها.

أتذكر في كثير من مراحل حياتنا ان فترة الصباح في بيتنا لها متعة كبيرة حيث كان الجميع كبيرا وصغيراُ يجهز نفسه للذهاب الى الجامعة او المدرسة. وكان إفطارنا الصباحي يكون على وجبات وحسب مواعيد الدوام والشاي دائماً موجود مع الخبز الحار التي تحضره والدتي والجبن أو القيمر والمربى وحسب ما قسم الله به. كان بيتنا في الصباح ذا صخب وحركة الجميع فيه محسوسة، وصوت الراديو يبث اغاني جميلة ومن ضمنها اغاني فيروز، وهذا كان يعطي طعماَ جميلا للصباح في بيتنا. أحيانا تكون هناك مشادات بين الإخوة والأخوات على دفتر أو قلم أو أشياء مدرسية أخرى ووالدتي الحنون تحاول حل النزاع بدون إدخال والدي بالموضوع، لذلك كان الصباح في بيتنا حياً جميلا يملؤه صخب الحياة. والان بتشردنا نفتقد تلك الصباحات الجميلة الدافئة بل نتحسر عليها في منفانا القسري.

كنا الأولاد والبنات متحابين فيما بيننا، ووالدتي كانت مركز ذلك الحب والتفاهم وكثيراً ما كنا نتداول الشعر، ونشتري كتباً ثقافية ونذهب الى السينما، طبعاً بعد موافقة الوالد، كنا نساعد بعضنا في إعطاء النصيحة أو حل مشاكلنا الشبابية بالنقاش الحاد أحياناً بالرغم من وجود مشاكل أو اختلاف في الرأي بيننا. في مراحل التشرد التي

نمر بها في ديار مختلفة وفقدان الجو العائلي الذي اعتدنا عليه وفقدان بيتنا ووطننا كان حبنا لبعضنا لا زال موجوداً بل أخذ عمقاً آخر رغم تباعدنا الجغرافي، وأهم شيء كان مراعاة شعور والديّنا لانهما يمران بحالة نفسية متعبة لضياع الماضي وخوفا على أولادهما من المستقبل. كان حزننا كبيرا لأننا بعيدون عنهما، وكنا نشعر بهما ولكن لم يكن في ايديهما ولا في ايدينا حل سريع لذلك الوضع المزري.

إشتغل أخوتي بأعمال متعبة وبثمن بخس ولكنهم لم يجعلوا الحزن وخيبة الأمل تقلل من عزيمتهم لإنقاذ وضع العائلة، فكما ذكرت سابقاً إشتغل أخي الكبير كاظم في محل النجارة، وحامد وأحمد في محلات «التورنة» المتعبة. وبعد مرور أسابيع قليلة دخل أخوتي باب العمل الحقيقي وهو المهنة التي تعلموها من والدي وهي صناعة الأحذية. واعتمدوا على أنفسهم في البحث عن عمل لطلب الرزق دون الحاجة لمساعدة الآخرين ليثبتوا لأنفسهم انهم كفء لتحمل المسؤولية. وهكذا تركوا الأعمال القديمة ليدخلوا مجال المهنة. في الفترات الأولى كانوا ينتقلون من عمل الى آخر لأسباب ومنها ان مكان العمل بعيد او الأجرة زهيدة جداً لا تتناسب مع الجهد المبذول. المهم انهم لم يتقاعسوا في البيت ليوم واحد وكان أهم هدف لهم هو جمع الأسرة تحت سقف واحد. لكن كانت أجورهم بسيطة ولم يكن هناك مصادر رزق دائمي للتحرك من اجل استئجار غرفة تجمع العائلة تحت سقف واحد.

اما نحن البنات فلم نزل مشغولين بطرق أبواب العمل معتمدين على انفسنا دون الإعتماد على مضيفينا، كانت هناك حالة تحرر في حياتنا. بدأنا بالتعرف على المدينة وأرقام باصات نقل الركاب وأسماء المناطق المهمة كالوزارات والجامعة وبعض عناوين سكن أخوالي وخالاتي. طبعاً كانت وسائط النقل العامة مثل الباصات ذات أسعار زهيدة، وكان الباص مقسم الى قسمين النصف الأمامي للرجال والنصف الخلفي للنساء، ولم يكن هناك تزاحم في الركوب وانما نقف في الصف للركوب. حدثت تغيرات إيجابية بسيطة في حياتنا، ومنها ان هناك أملا في إيجاد عمل لأختي سجواء التي كانت تتابع قبول شهادتها يوميا، وأختي التي لو كانت قد أنهت امتحاناتها النهائية في العراق لأصبحت مهندسة، لكنها هي الأخرى كانت تطرق أبواب أعمال لا تمت بصلة الى دراستها، كسكرتيرة أو موظفة معتمدة على

قدرتها الحسابية وقوة لغتها الإنجليزية، وكانِ هناك أيضا أمل في أن تعمل سكرتير في شركة صديق خالي إسماعيل للإستيراد والتصدير، واما انا فكنت ايضاً ابحث عن عمل معتمدة على نفسي. ان التشرد لم يضعف إرادتنا بل العكس حيث احساسنا بالمسؤولية قد زاد، ووعينا في ان البدء من الصفر يضيف لنا الكثير من قوة التحدي وشق طريقنا الوعر في المنفى. ولربما سنواجه في بداية الطريق عوائق كثيرة ولكن قوة الإرادة وكلمات والدي التي حفظها من سياسي أو حكيم ما وكان يقولها دائماً مشجع إيانا «ليس الفخر ان لا نسقط، وإنما بأن ننهض كلما سقطنا»، ترنّ في أرواحنا وتعطينا زخما كبيراً للاستمرار رغم قساوة الظروف.

في بداية الإسبوع الثالث من شهر رمضان كنا مدعوين على مائدة الإفطار في بيت خالتي معصومة الطيبة الكريمة. كان هناك بعض الإستقرار في منافينا الجديدة، فكنا مقسمين بالشكل التالي: والديّ ووالدتي وأخي الصغير منصور وأختي الصغيرة في ضيافة خالتي معصومة الطيبة الحنون، أختي سجواء وأختي الأخرى في ضيافة خالي إسماعيل، أنا كنت في بيت خالتي الطيبة أم ناصر، واما أخوتي كاظم وحامد وأحمد كانوا في ضيافة خاليّ الكريمين سليم مكي.

حضرنا في ذلك اليوم الى بيت خالتي من أماكن مختلفة، وكان الترحاب بحضورنا كبيراً جداً من خالتي وعائلتها، والتقينا بوالدينا وإخوتنا الصغار. قبل موعد الإفطار بساعة أو اكثر طلبت أختي سجواء وأخي كاظم، ان نجلس مع بعضنا دون أبوينا واخوتنا الصغار كي نتداول بعض أخبارنا ومشاكلنا التي كنا نمر بها. تحدثنا عن أوضاعنا وقلة الحيلة، وهنا روى لنا أخي حامد عن حديث قصير دار بينه وبين والدي على الحدود ومغزاه هو خوف والدي من الذلة له ولعائلته، ومن سيصرف عليها وان أخي اجابه: «عهداً منا انا واخوتي سنعمل جاهدين ان لا يحدث هذا وسنكون على مسؤولية عالية فلا تقلق». وهنا بكى أخي لقلة الحيلة وهو الذي كان يريد مع إخوتي إيفاء الوعد لوالدي مهما كلف الأمر. بادرت أختي وأخي كاظم بإعطائنا الأمل وان لا نيأس، واذكر ايضاً اننا تعاهدنا ان نخوض تلك التجربة المرة بحزم وإصرار، وان لا يسقط أحدنا، لان بسقوط واحد منا ستسقط العائلة بأكملها، وكان ذلك اللقاء الذي لا زلت اتذكره الآن، مهما للغاية، فهو قد وضع المسؤولية على الجميع في الحفاظ على

بقاء عائلتنا متماسكة وقوية. أخوتنا وعدونا بأنهم سيحاولون قدر الإمكان الترفيه عنا الى جانب مساعدتنا فيما نحتاجه من مصاريف، وكذلك اتفقنا على ان نلتقي بوالدينا كل يوم جمعة كي ندخل عليهما الفرحة بوجودنا.

خالتي الكريمة أعدّت لنا إفطاراً عراقياً وتجمعنا مع عائلتها في بيتها الصغير في المساحة، والكبير بالمحبة والكرم. قضينا الوقت بشكل جميل وكانت خالتي تغمرنا بحبها وأمومتها المعروفة لدى الجميع. في تلك الليلة كان هناك إحساس جميل ساد الجميع، هو إنتصار المحبة والتفاهم على التشرد والضياع، وقضينا ليلة جميلة مع خالتنا في جو من المرح، ووالدنا كانا مبتهجين لوجودنا. اتفقنا ان نخرج، الأخوة والأخوات، للتسوق البسيط تهيئة لعيد الفطر وإدخال البهجة الى باقي العائلة في أيام العيد المقبلة بالرغم من حزننا الشديد لأخينا كاظم الذي يعاني فراق إبنه، ودعونا له بالصبر وتحمل البعاد الذي لا يعرف أحد نهايته.

في تلك الليلة إتفقنا ان نذهب انا واختي سجواء واختي الأصغر مع أخوينا حامد وأحمد الى السوق. وفعلا التقينا بعد يومين في بيت خالتي أم ناصر. وخرجنا من بيت خالتي بعد العصر ومشينا الى الشارع الرئيسي لركوب «تكسي النفرات» وهنا يحسب الأجر على عدد الراكبين، ولم نركب باصات المصلحة الرخيصة لانها تكون مكتظة بالناس في ذلك الوقت من النهار. كانت المنطقة مزدحمة بالمنتظرين لذلك لم نفلح بالصعود في تكسي يكفي لعددنا وفجأة اوقفت اختي سجواء تكسي نفرات كان جديدا واشارت لنا بالصعود ودخلت هي واختي الثانية في المقدمة وانا واخوتي دخلنا في الخلفية وسارت السيارة. كانت اختي سجواء قد ارتدت في ذلك اليوم ملابس جميلة زادت من جمالها. بدأ سائق التكسي الشاب بعد تحركنا بالحديث مع أختي باللغة الانجليزية بعد ان عرف من لهجتها انها ليست ايرانية ولم يكن يعرف اننا اخوتها فاخذ يتكلم عن نفسه بانه هو خريج جامعي وهو يعمل في أوقات فراغه في السياقة واستمر بالحديث، وأختي لا تجيب على أسئلته، والظاهر انه كان قد أعجب بها، اذ أصبحت أسئلته شخصية، وهنا بدأ صبر أخويّ ينفد، وقررا ان يضعا حداً له، وقالا «اذا لم يتوقف سنبسطه بسطة عراقية نظيفة». وحينها قالا للسائق «انها اختنا وعليك السكوت وان تحترم نفسك»، اعتذر الرجل عما بدر منه، وسكت طيلة الطريق عن الكلام. وكنت

اشاهد الخوف في وجهه من ردة الفعل، أعطاه أخي الأجرة وأسرع الرجل هارباً من العراقيين «الحمشين». ليبادر أخوتي بالمزاح مع أختي سجواء كطريقة لإنهاء الموضوع.

كانت الأسواق والمتاجر تبقى مفتوحة الى منتصف الليل، وخصوصاً في المناطق الراقية في طهران والتي يعتبر فيها السوق ملتقى للشباب والعوائل، وكان مثلاً في شارع «ولي عصر» التجاري والذي يعتبر من أرقى الأسواق، كازينوهات ومطاعم جميلة وكذلك مقاهي لشرب الشاي وأكل المرطبات. هذا السوق وغيره من المراكز كانت جميلة، واعداد الشباب والشابات من المتبضعين والمتنزهين كبيرة جدا.

مر ذلك اليوم بشكل جميل مع أخوتي وأخواتي. قضينا الوقت في السوق الجميل سوق «ولي عصر»، اكلنا سندويجات بسيطة ورخيصة حسب وضعنا الإقتصادي، واشترينا بعض الأشياء البسيطة جداً التي نحتاجها، وتكلمنا كثيراً مع بعضنا، وفي الحادية عشر ليلا أرجعونا أخوتي الى بيت خالتي أم ناصر وركبنا باصات المصلحة الرخيصة لأنها في الليل تكون غير مكتظة. وكان طعم ذلك اليوم لذيذاً فقد كان يوماً شبابياً عائلياً جميلا بامتياز.

28

لا بيت ولا وطن ولا... عيد

في آخر عشرة أيام من شهر رمضان المبارك، كانت والدتي وغالباً عمتي، تذهب الى السوق لشراء ملابس العيد للجميع، وكانت مهمة عسيرة، لان عليها مراعاة العمر والذوق والمناخ والسعر والجودة، وأغلب نسائنا متمرسات في المعاملة والذوق، وكن في الغالب يشترين قماشاً ويعطوه للخياطة أحياناً قبل رمضان، كي يجهز ثوبا قبل يوم العيد، الذي يكون موسما جيدا للخياطة الرجالية والنسائية وللأطفال أيضا. كان من المحبذ إرتداء الملابس الجديدة في أول ايام العيد المبارك، وكثير من الناس، كان يتبرع للعوائل الفقيرة بهدايا العيد ليتشارك الجميع بفرحه. وفي شهر رمضان الكريم تزدهر كل أنواع التجارة، وفي آخر الشهر الفضيل، لا يستطيع أحد الدخول الى الأسواق لازدحامها، وكثرة الناس التي تشتري الملابس والأحذية وأشياء أخرى، يتبارك الناس بشرائها في هذا الوقت. كانت العادة المتبعة هي الزيارات المتبادلة للعوائل في أيام العيد، فالكثير كانوا في أواخر الشهر يجهزون بيوتهم لتلك الزيارات ومنها شراء الأغذية والحلوى كي تكتمل فرحة العيد.

منذ صغري أجد والدتي وعماتي يتجمعون في بيتنا لعمل «الكليجة»، وهي من الحلويات المعروفة في أيام العيد، وكن يعدنها في آوان كبيرة ورائحة الهيل الطيبة تضوع في البيت، وبعد إعدادها بأشكال وحشوات مختلفة توضع في صوان كبيرة لغرض إرسالها الى الفرن لشيها، أو تقوم والدتي احيانا بشيها في التنور داخل البيت، وبعد ان تخرج من الفرن نأكل منها للتذوق وعندما تبرد يتم تخزينها الى أيام العيد، وأحيانا يعملون حلويات اخرى مثل «الشكرلمة» والكعك وأشياء أخرى لذيذة، وكنت أساعدهم بالتحضير كعنصر مساعد وتذوق، وكانت تلك الأيام تشعرني بالفرحة لتلك التحضيرات الجميلة، مثلما كان كل الأطفال يفرحون بحلول العيد.

في آخر ليالي شهر رمضان الكريمة وكثيراُ ما تسمى «ليلة الوداع»، ألاحظ كثيراً من الناس يقفون في وقت الغروب على سطوح بيوتهم لرؤية ظهور هلال العيد، معلنين بعد رؤيته ان الغد هو إنتهاء شهر الصوم وأول أيام العيد، وكذلك التلفزيون كان يبث خبر رؤية الهلال وحلول العيد. عندما نعرف (نحن الأطفال)، ان غدا العيد نفرح ونذهب الى النوم مبكراً واضعين ملابسنا الجديدة بقربنا كي نرتديها صباحاً مستقبلين العيد بملابس العيد الجميلة ومنتظرين «العيدية» ايضا. كان الوالد في اول يوم العيد يبقى في سريره، وعندما نستيقظ نعايد والدتي، ونعايد بعضنا، ونفطر ثم نلبس ملابسنا الجديدة كي ندخل غرفة والدي ونقبل يديه ثم نعايده، وهو بدوره يكون قد حضر العيدية من (النقود)، ليوزعها علينا ويبدأ شجارنا المازح له بفروق توزيع العيدية، وهو مستمتع بذلك ونخرج من غرفته كباراً وصغاراً فرحانين مستبشرين بالعيد. كان في اليوم الأول دائماً نستقبل ضيوفا من بيوت أعمامي أو عماتي، ونحصل على عيدية ثانية واما والدتي فكانت تطبخ منذ الفجر إنتظارا للضيوف الكرام، أيّا كانوا، وبيتنا يكون مكتظا بفرحة العيد ودفء طقوسه الجميلة.

في أول أيام العيد كانوا يمرون على بيتنا والبيوت الاخرى: الحارس الليلي، المسحراتي، منظف الطريق وجامع النفايات «الزبّال» وغيرهم، يعايدون أصحاب البيت والعوائل تعطيهم العيدية شاكرين لهم أعمالهم. بعد إستلامنا العيدية كنا نحن الصغار نذهب الى «الجوبة»، وهي عبارة عن مركز او مراكز للترفيه للأطفال أيام العيد، حيث تكون الأراجيح ودولاب الهوى الخشبي وغيرها من الألعاب منصوبة ونعطي مقابل تلك الألعاب نقودا، وكانت هناك مراكز اخرى للأطفال والشباب مثل «حديقة الأمة» وسط بغداد، ودور السينما. وهنا أتذكر «سينما الشارع» للأطفال، حيث توضع صفائح خالية (تنكات) نجلس عليها وغالباً كانت الأفلام المعروضة، مثل أفلام كارتون او فيلم «هرقل يحطم السلاسل» وغيره من أفلام المغامرات والفرسان، مما يخلق لنا عالماً مبهراً يستحق صرف العيدية لأجله. وهناك كذلك المأكولات الشهية ونصرف بعض نقودنا، ونأمل في عيدية أخرى حيث نذهب الى الأهل والأقارب لمعايدتهم والحصول على العيدية. كانت عطلة العيد 3 أيام ونسميه «العيد الصغير» وعيد الأضحى المبارك كانت 4 أيام عطلة ونسميه «العيد الكبير».

وفي العيد يلتقي الأحبة عبر تبادل الزيارات، وكثيراً ما تستغل أيام العيد لمصالحة المتخاصمين، وبهذا كان عيد الصلح والمحبة والتقارب بين الناس، ومراسيم العيد في بلادي كانت خيالية وأسطورية لجمالها ودفئها والفرحة التي كانت تكللها: فرحة الأطفال بيوم العيد. عندما كبرنا كانت مراسيم العيد مستمرة بالرغم من الإرهاب الفكري والخوف، فقد قلّت في السنتين الأخيرة زيارة الأقارب ولكن العيد كان حاضراً مبهجاً رغم كل الأحزان.

ليلة العيد في المنفى لم أستطع النوم، والذكريات الجميلة في بيتنا الصاخب بالحياة في وطني كانت تمر على روحي كفيلم سينمائي يزيد ألمي وشجوني وإشتياق كبير الى الماضي القريب، فكنت أرى روحي وهي ترحل الى بيتنا، وأجد نفسي مليئة بالفرح والفخر والاعتزاز، وأرى عائلتي مبتهجة في العيد وتستمر الذكرى الجميلة، لكن سرعان ما ترجعني الخيالات ثانية الى الحقيقة المرة، حيث لا بيت ولا عائلة ولا وطن ولا عيد، اذ يكون بعيداً هناك في دارنا المهجورة المختومة بالشمع الأحمر. وبدون وعي مني، كان دمع الحرمان والفراق يجري، ويبدأ فيّ نشيجاً وعتاباً الى الخالق: لماذا؟ وقرب الفجر نمت على حقيقة مؤلمة اسمها عيد الفطر المبارك الذي يفتقد الفرحة في قلوب المشردين عن بيوتهم في المنفى.

كانت مراسيم عيد الفطر المبارك في المجتمع الإيراني تختلف قليلا عن مراسيمنا، حيث لا توجد عيدية ولا يمر الحارس ولم يكن أصلاً هناك مسحراتي ولا «جوبة «للعب الاطفال، وكان حسب ما أتذكر يوم واحد لعطلة العيد. والعوائل لا تعمل الحلوى بل يشتروها جاهزة، وكانت أمكنة بيع الكيك والحلوى منتشرة كثيراً، ولا يعرفون البقلاوة والزلابية بل حلويات كثيرة ومتنوعة جداً. كانت هناك، رغم ذلك، مظاهر إبتهاجهم بالعيد وشراء ملابس جديدة للأطفال والمدينة تكون مضاءة اكثر بمصابيح ملونة تعطي منظراً احتفالياً. وتذهب العوائل الى الباركات الكبيرة التي توجد فيها الالعاب للصغار وللكبار والحدائق الغنّاء، الموجودة بكثرة حتى في المناطق الفقيرة، وكانت ايضاً من طقوسهم، الزيارات العائلية المتبادلة في يوم العيد.

في يوم العيد بعد ان استيقظت عايدت بيت خالتي جميعهم، وفي هذا اليوم جاء

أهلي المشردون الى بيت خالتي، وجوههم كانت تفتقد الفرحة، وبدخولهم عايدوا بيت خالتي ومن ثم عايدنا بعضنا وقبلنا والدينا بدموع التشرد، فهو أول عيد لنا نقضيه في منفانا القسري، ضائعين، بعيدين عن الديار والأحباب، نحس بأننا أسرى الذكرى وبواقع لا يبدو انه سيتغير، ولكن الحياة تستمر والزمن لم ولن يتوقف عن الدوران، وحاولنا ان نبتهج بهذا اليوم رغم المنغصات التي تحيطنا، ولم نرغب جميعا في ان نقلب الفرحة الى مأساة. كان التعب الجسدي والنفسي على وجه والدي يبدو واضحاً، وكان جسده قد نحل، وحتى الملابس كانت تبدو عليه واسعة. كنت أراه غائباً عنا في عالمه الخاص الذي حاولت ان ادخله بطريقة او بأخرى، وهكذا بدا لي والدي القوي الشجاع وقد أصبح فريسة الأحزان والخوف من المستقبل، وهذا الشعور قد أخافني في داخلي ولم اتحدث بالموضوع مع اخوتي، وآثرت ان يكون يوم العيد يوماً بسيط الفرحة، بدون كلام يأخذ الفرحة الربانية من أفراد عائلتي هذا، في حال كانت هناك فرحة موجودة فعلاً.

قضينا اول عيد الفطر لنا في المنفى في بيت خالتي، وتمنينا ان يحل العيد بفرحة ولو صغيرة على ناسنا المشردين في الخيام والآخرين الذين يهجّرون من بيوتهم، وعلى وطننا وشعبنا في الداخل، وتمنينا بقلوب صافية ان لا تكون هناك حرب يكون ضحيتها الناس البسطاء.

كان هذا إيقاع عيد الفطر المبارك كأول عيد في المنفى

29

والدي و... نفاذ الصبر

والدي هو الإنسان الكريم في عطائه، الدؤوب في عمله، المعتز بكرامته، الحكيم في أقواله، الشريف في مواقفه، هو والدي الحبيب الذي لعب دورا كبيراَ في نضوجنا الفكري، حين أعطانا كل ما يملك من روح وقوة كي نصبح عناصر بنّاءة في المجتمع وكان هذا هو حلمه الكبير. كان والدي رغم عصبيته وشدته، مزيجا من طيبة وحكمة وأدب. والدي كان له طباعه الخاصة التي تربى وربى نفسه عليها، ومن هذه الطباع، الإعتزاز بالنفس والإعتماد على النفس وهذه الصفات رغم جمالها لها سلبياتها ايضاً، فوالدي مثلا، لا يحب المبيت في بيت أحد، حتى لو كان بيت إبنته او أخيه لانه يشعر بالخجل الشديد وبالتقييد، ويعتبره نوعا من الإعتماد على الاخرين، وهو ما يرفضه تماما، لكن الآن وقد دارت رحى الأيام، بات مجبرا على ان يعيش ويتقيد في بيوت قد تكون قريبة له، ولكنه أصبح كحال أسير حرب عليه الرضوخ للأمر الواقع، مع تمرد كبير وألم دام في داخله.

منذ حداثة عمري كانت لي علاقة خاصة بوالدي، إذ كان يحب ان أقرأ له الشعر، وغالباً كان يصحح من إلقائي للأبيات وعليّ إعادة القصيدة من أوّلها، وأحيانا لم اكن أرغب في القراءة، ولكن حبي له الذي كان ممزوجا ببعض الخوف والهيبة، يجعلني أعاود القراءة بدون اعتراض، وأتذكر ان أحد قصائد بشارة الخوري المعروف بالأخطل الصغير، وتحمل عنوان «المسلول»، كنت أعيدها له مرات ومرات حتى حفظتها عن ظهر قلب، وكان هو المطلوب لديه وغيرها من القصائد لشاعرنا العملاق محمد مهدي الجواهري وكانت اشعاره صعبة جداَ، لكن كان والدي كان يشجعني على الحفظ والإدراك، وهذا كان رمزا لصداقتي الأبوية

الحميمة الجميلة معه. كما ذكرت قبلاً ان والدي في صغره كان قد حفظ القرآن الكريم، ومن عاداته الجميلة انه كان دائماً بعد الإستحمام، يقرأ سورة من القرآن الكريم بتجويد جميل، وكلنا نستمع اليه بإعجاب لفرط رقة صوته الشجي.

وفي كل يوم جمعة، كان والدي يشتغل الى الظهر، ويعود من عمله مبكراً وتكون هنا والدتي قد حضرت وليمة الغداء التي نتناولها معاً وبوجوده وسطنا، ليكون جواً عائلياً دافئا وعيداً جميلا. وبعد الغداء وشرب الشاي يضع شريط المطربة أم كلثوم، لتغني بصوتها الجميل واحدة من أغنياتها الخالدة، وننام الظهيرة على صوتها الرائع، وبعد القيلولة يجلس معنا، لنتحدث في مواضيع مختلفة. وكانت هذه الطقوس تعاد كل يوم جمعة، وكنا نفرح بها، والآن نفتقد تلك الأشياء الحلوة مثل يوم الجمعة وبهجته، فجميعا يحنّ إليها.

بعد تهجيرنا عن ديارنا، حدث تغير كبير ملموس في كياننا جميعاً، وأكثر شخص بدا عليه ذلك التغير، كان والـدي، فعلامات الهزال والتعب قد بدت واضحة عليه، وتغيرت ملامحه وتصرفاته الطبيعية التي إعتدنا عليها، وأصبح الحاضر الغائب بوجوده محاولاً كتمان آلامه وعذاباته، وإصطناع الضحكة كي يعطينا القوة في الاستمرار. كنت ألاحظ تلك التغيرات المحيرة والمثيرة للخوف، لذا كنت أحاول، وكذلك أخوتي أيضاً، التقرب منه وإشراكه بالحديث وتهوين الحالة المتعبة التي يمر بها. كنا مدركين الصعوبة التي يعانيها والدنا بالبقاء والمبيت عند العوائل الاخرى، ومأساة تشردنا والبعد عن الجو العائلي المعتاد كانت تثير قلقه، ناهيك عن فقدانه لدوره الأساسي في إدارة أمور عائلته. والأدهى من ذلك، انه لم يكن لدينا أي تخمين لمدة بقائنا على هذه الحالة المضطربة من التشرد والقلق، وهو ما كان يزيد من حيرتنا.

بعد مرور حوالي أسبوع على إنتهاء عيد الفطر المبارك، ظل وضعنا في التشرد كما هو، ولكن كانت هناك ثمة آمال قد ظهرت في سماء الحزن، ومنها هو ان أختي سجواء قد حصلت على وثيقة بقبول دراستها وهي على أبواب التعيين، وأخوتي لا يزالون يجتهدون كي يجدوا مكان عمل جيد بأجرة مناسبة، وانا أيضاً وعدني الأستاذ

في جامعة طهران بإيجاد فرصة عمل لي في إحدى المؤسسات البيطرية، وأختي الاخرى، وبمساعدة خالي إسماعيل، ستبدأ عملها كسكرتيرة في شركة إستيراد وتصدير مملوكة لأحد أصدقائه، لذلك كانت تلك البوادر الإيجابية قد أعطتنا بصيص أمل بسيط في الأفق، ولربما تساعدنا في تغيير وضعنا الحالي، وهنا حدث شيء مرعب هزّ وجود عائلتنا بشكل عنيف لم نكن نتوقع حدوثه. فقد كان والدي مع والدتي في ضيافة بيت خالتي معصومة، وكانت أختي الصغرى معهم، اما أخي الصغير منصور فقد ذهب بصحبة خالي مكي الى بيته ليكون في ضيافته، ومن عادة والدي أن يخرج الى قلب العاصمة طهران، وبالتحديد مكان يجتمع فيه العراقيون المشردون الكبار في السن، والمكان كان يدعى «بارك شهر»، اي متنزه المدينة، وكان والدي ذا ذاكرة قوية في معرفة الأماكن التي يزورها. كان يذهب يومياً الى هذا المكان كي يلتقي مع الناس ويعرف أخبار العراق والمهجرين، إذ ليس من عادة والدي البقاء في البيت وخصوصاً في ذلك الوضع وهو غريب الديار، وغالباً ما كان يعود الى بيت خالتي وقت الغروب لقضاء الليل، اما في الصمت او الحديث المقتضب مع والدتي وخالتي، لان زوج خالتي كان إيرانيا ولا يعرف اللغة العربية لذا كان الحديث معه صعباً نوعا ما.

كان يوم الاربعاء بعد الظهر، كنت حينها في بيت خالتي أم ناصر، وكنا انا وابنتها عالية نتحدث مع بعضنا بأمور مختلفة، وكانت خالتي تجلس معنا حين رن جرس الهاتف، رفعت خالتي سماعة الهاتف وتحدثت في الممر قرب غرفة الجلوس مع شخص ما باللغة الفارسية. في البداية كان صوت خالتي مرتفع وفيه نوع من الفزع، لذلك صمتنا أنا وعالية، ولكن فجأة أصبح صوت خالتي خافتاً لا نسمعه، بقيت أنا صامتة وكذلك إبنة خالتي، ومتلهفين لمعرفة محتوى المكالمة. عادت خالتي الينا محاولة الهدوء والإبتسام. كنت قلقة ولدي هاجس غريب بان تلك المكالمة كانت تخص عائلتي، لذلك عند دخولها الغرفة سألتها مستفسرة عما حدث، ولم يكن من عادتي سؤالها من كان على الهاتف؟ فهو نوع من الفضول لا أحبذه، ولكن نوعا من القلق كان بداخلي ودفعني للسؤال. حاولت خالتي ان تهدئني قائلة «لا ماكو شي بس ابن عمتي كان ضائع في طهران ووجدوه»، هي كانت تتحدث عن والدي فدهشت

لما قالته، وفي داخلي شيء يقول مستحيل لان والدي وكما أعرفه سريع الحفظ وفكرة الضياع هذه كانت غير منطقية. حاولت ان أخذ منها معلومات أخرى وهي بدورها تحاول تهدئتي بأنهم وجدوه وهو الآن في بيت خالتي معصومة وليس هناك أي داع للقلق.

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن، وبقيت صاحية وأفكاري تأخذني الى تصور حالة والدي بعد التهجير، ومقدرته على مواجهة هذه الصدمة العنيفة بفقدانه كل شيء وفقدان أولاده المستقبل والهوية، والتشتت الجديد الذي حصل وبقائه في بيوت الأحبة الاجباري. كان ذلك بالنسبة له فقدانا لأرضية الحياة التي تعودها وكابوسا مستمرا. والتهجير وما بعده كان فوق طاقة هذا الرجل المقدام كي يواجه ذلك الضياع لعائلته وعجزه في تلك الظروف عن إيجاد حل لعائلته التي كان الى وقت ليس بالبعيد مسؤولا عنها.

عزمت مع نفسي أن أذهب في الصباح الى بيت خالتي معصومة للإطمئنان عليه وقضاء وقت طيب معه. وبقيت في حالة السهاد والقلق الى ان أشرقت الشمس. خلال تناولي للفطور الصباحي، اخبرت خالتي باني سأذهب لزيارة أهلي وخالتي هذا اليوم. خالتي شعرت بقلقي الشديد لذلك لم تجبرني على البقاء في دارها، ووافقت ولكنها طلبت مني ان اخبرها بوصولي فوعدتها بذلك، وودعتها وخرجت من البيت حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

اتجهت صوب بيت خالتي معصومة وأنا متعبة من التفكير وكانت أفكار سوداوية تحاصرني، بعد ذلك وصلت ظهراً الى البيت الذي يحتضن جزءاً من عائلتي، وانا متعطشة لمعرفة ما جرى وكي أطمئن على والدي. فتحت لي خالتي الكريمة الباب وبدأت بالترحيب المعتادة عليه، ودخلت البيت وعيني تبحث عن والدتي فوجدتها في باحة الدار، وجهها يبدو متعبا جداً لكنها فرحت بوجودي. بعد مرور بعض الدقائق سألتها عن والدي فقالت انه قد خرج مع أخي الكبير. كانت مضطربة وحاولت الحديث معها عن أبي ولكنها ظلت تحاول تغيير الموضوع، وشعرت بانها تخفي شيئاً فسألتها ان تخبرني بكل شيء، وفعلا بعد إلحاحي أخبرتني بما حدث

محاولة إخفاء مشاعرها ولكنها تعبت من مقاومة الدموع التي كانت تملأ كيانها، فراحت تتكلم بصوت متدهج وقالت: ان والدك خرج على عادته صباحاً في يوم الاثنين، وذهب الى المدينة وكان متعبا بعض الشيء ونفسيته متعبة، فهو في الليالي الأخيرة لم ينم جيداً وعندما أسأله كان لا يجيبني، بعد خروجه مر اليوم بشكل عادي وانتظرنا رجوعه في المغرب كي نتناول طعام العشاء، ولكنه لم يعد وطال إنتظارنا لعودته وأصبحت الدنيا ليلا وكنت خائفة عليه كثيرا فلربما ضاع أو حدث له حادث أو أي شيء آخر؟ وقلقي بدأ يزداد عليه لتأخر الوقت، فذهب زوج خالتك معصومة يفتش عليه في الساحات والطرقات في سيارته، ورجع بعد ساعات الى البيت ولم يجده فكانت ليلة ملؤها الخوف والقلق. وقررنا ان ننتظر حتى الصباح وعلينا الصبر فلربما التقى بأحد أخوالي او أولاده، وبقى معهم ناسياً ان يخبرنا. تلك الليلة لم يرتح أحد منا والوساوس كانت تملؤنا.

في فجر اليوم الثاني بدأ زوج خالتي بالبحث عن والدي ثانية في المستشفيات وأقسام الشرطة ولم يكن هناك لوالدي أي أثر. بعد تردد كبير أخبرت والدتي بعض إخوتها بما حدث، لمساعدتها على إيجاده. واخبرت كذلك أخوتي بما جرى بعد صلاة المغرب. وهكذا ذهبت كل مجموعة من العائلة الى الأمكنة التي يذهب اليها، والتفتيش عنه لكن دون جدوى، اذ لم يظهر له اي اثر له، وهذا قد زاد من تأزم الوضع للجميع. قضينا تلك الليلة ايضاً في البحث والبكاء في طهران الكبيرة. وفي صباح اليوم الثالث لم يذهب أخوتي الى العمل وقرروا مع بعض أخوالي ان يستمروا بالبحث عنه تاركين والدتي منهارة نفسياً. وهنا فكر أحد أخوالي لربما يكون أبي موجودا في الحسينية النجفية أو الكربلائية، حيث كثير من المهجرين العراقيين حتى اصبحت مكانا لنوم المشردين. وفعلا بعد ذهابهم وجدوا والدي في إحدى تلك الحسينيات وهو يتوضأ كي يصلي العصر، وأقنعوه بالعودة رغم عدم قبوله، لإحساسه بالخجل من ثقل وجوده على العوائل القريبة، وحاول أخوتي شرح التأثير السلبي لغيابه على عائلته مذكرين إياه ان هناك املا في تغير الوضع الى الأحسن.

استمرت والدتي بحديثها الحزين وقالت ان والدي قد عاد مع أخي الكبير الى بيت خالتي معصومة، وكان متعبا وشعور الإنكسار يبدو عليه، وقضى ليلة ثانية في

بيت خالتي بمرافقة أخي الكبير كاظم فيما أمي وأختي الصغيرة فكانتا متعبتين من شدة الصدمة.

استمعت اليها وفي داخلي ألم كبير لواقعنا المؤلم، وعدم وجود القدرة على تغيير هذا الواقع الذي لم يكن في حسبان أحد منا، وهكذا صارت هذه الحادثة المفزعة ونفاذ صبر والدي لتصبح من أاخطر مؤشرات التهجير والمنفى.

30

الملاك... وجمع العقد الفريد

التألق للانسان، هو شبيه بالظاهرة الفيزياوية، اذ يتألق جسم ما بعد تزوده بالطاقة، فالكثير منا يحب ان يتألق في حياتنا الإجتماعية، فبعضنا بحديثه أو بقدرة ما يمتلكها، بريعان الشباب، بالإناقة، في الدراسة، والخ من أنواع التألق وأشكاله التي نحب إبهار الآخرين بها. وهذا التألق بمختلف أنواعه يحتاج دائما الى مصدر طاقة ما تمده وتجعله متميزاً ومزدهراً. والتألق الذي أشير اليه، مصدره الإنتماء الى بلد وشعب ما، وهذه حقيقة لا ندركها في داخل الوطن ولكن بالإبتعاد عنه ولو لرحلة ترفيهية خارجه، حين يكون الإدراك هنا بذلك الإنتماء موجودا وقوياَ، وبما يجعل المواطن فخوراً متألقاً، فعندما نقول نحن من العراق ومن شعب العراق، هنا نشعر بالتألق والزهو لهذا الإنتماء. وللأسف يفقد هذا التألق بريقه في المنفى القسري، لأنك منفي عن الوطن، مقهور بما جرى وبما عشت وعرفت وخبرت. في المنفى القسري، تفتقد الشعور بالتألق، فيصبح الوجود كالحاً هامشياً، ليس له أصول أو امتداد، وكان ذلك مؤلما جداً، والمحاولة للتأقلم مع مجتمع اخر في بلد اخر يكون ذا مرارة في داخل الإنسان المنفي الذي يحاول بطرق أخرى ان يبرز، كمعادل موضوعي لفقدانه ذلك التألق، وحتى هذه المحاولات لا تستبدل الألم الدفين الذي يزداد مرارة وعمقاً كلما سألك أحدهم عن انتمائك.

في المنفى تفقد الأيام بريقها اللامع، لتصبح أياما نكرة، ضائعة في تاريخ من التشرد، إذ تكون آثارها مكللة بالبؤس والحرمان وفقدان الأمل. اما الزمن عند المشردين فكأنه فقد مداره الطبيعي بالسير قدماً، وأصبح يهيم ويتعثر في مدارات مختلفة بين الماضي البعيد والحاضر السقيم والحلم المفقود وغيرها، من مدارات التوهان، تاركاً خلفه فراغا أهوجا ليس له حدود أو معالم تعطيه نكهة خاصة.

بعد تهجيرنا من ديارنا، لم يصبح للأيام معنى أو أهمية، فهي الأخرى ضائعة مثلنا في دروب التشرد. كنا نذكر أسماءها ناسين تواريخها، اذ ليس هناك ارتباط معين بها مثل العمل او الدراسة او مواعيد اخرى، وهكذا فقدت الأيام تواريخها ليصبح مرورها سيان بل عذابا مديدا، ناهيك عن ان التاريخ في البلد المضيف يعتمد على السنة الإيرانية وشهورهم المختلفة، لذلك عمّقت هذه أيضاً من فقدان التأريخ واهميته.

بعد حديث والدتي شعرت بحزنها وقهرها، وجدتها تائهة في دروب الزمن، ضائعة في خضم الضياع، متشبثة بالدعاء لله أن يلطف بعاقبة الأمور لنا وللناس المشردة تحت الخيام. هنا أصبح تغيير حالتنا التشردية ضرورة كبرى. لم أرغب ان أسبّب حزناً إضافيا لوالدتي بالسؤال عن موقف عائلتها وهم يروننا نتشبث باي شيء كي نستطيع السير مع عجلة الزمن، اذ ان قرار التقسيم والتشرد الجديد كان، كما تصورنا، حلا مؤقتاً ولكن للأسف، لم يكن بأيدينا ان نغير وضع العائلة الكبيرة، فإيجاد العمل لم يكن أمراً يسيراً ولأسباب كثيرة، نوهت اليها سابقاً، وبالإضافة الى ذلك وجود المنافسة الكبيرة من اهل البلد أنفسهم لإيجاد عمل. وتساءلت مع نفسي: هل فكّر أخوالنا عندما أخرجونا من المخيم بما سيحدث بعد ذلك؟ أين نسكن؟ وما ستكون عليه الأمور؟ لا أدري ان كانت أسئلتي منطقية أم هي نتيجة ما كنا نمر به من أزمات نفسية وصلت شدتها، حدّ ان والدي لم يعد يطيق تحمل تشرد أولاده وبعدهم عنه، وفقدانه للسيطرة على عائلته وكذلك قلة حيلته بعدم توفر القدرة لديه لقيادة العربة ثانية، بالإضافة الى الإحساس بثقل الضيافة وفقدان الخصوصية، مضاف اليه ما فقده من الحياة الكريمة التي اعتاد عليها. ولكني عندما أقارن وضعنا بوضع عوائلنا والآلاف العوائل العراقية المهجرة التي تسكن الخيام وأوضاعهم المعيشية المزرية، ناهيك عن انقطاعهم عن العالم الخارجي وبقائهم في المخيمات، يجعلني أشعر بالإمتنان لعائلة والدتي، وأشعر ان وضعنا، كما نقول في العراق، «ملوك»، وللأسف كنا ملوكا بدون مملكة.

رغم خوفي من ان أجرح والدتي التي كانت تبدو لي محطمة من كل النواحي، بادرتها وسألتها: هل لها ان تجد حلاً بالمشاورة مع اخوتها؟ فبادرتني بالإجابة «لا أريد ان أحرجهم بأي طلب وخلف الله عليهم، طلعونة من المخيم ولا أريد ان

اضيع احداً منهم والشكوى لغير الله مذلة». لم أتعجب من جواب والدتي، لأنها طيبة وصبورة، ولربما لا ترغب بالدخول بمشاكل مع اخوتها هي في غنى عنها الآن. وهي لا تريد ان ترغم أحداً في مساعدتها اكثر بما قاموا به، لذلك كانت كسيرة حزينة مأسورة بشعور التشرد. كنت أفكر مع نفسي بحل هل أسال أحد أخوالي عن الموضوع، وما سيكون جوابهم هل هم مسؤولون عنا؟ هل أصبح هذا واجبهم؟ لم أجد جوابا لأسئلتي الكثيرة، فتركت تلك الفكرة.

بقيت ذلك اليوم في بيت «خالتي معصومة» التي كانت تشاركنا الحزن بوجدانية كبيرة، وبعد العصر رجعت الى بيت «خالتي ام ناصر» يحاصرني الهم والتعب وقلة الحيلة، ووجه أمي الحزين الباكي لا يغيب عن مخيلتي، وكان الحل بعيداً جداً ببعد بيتنا الذي أصبح ذكرى وحلما. «خالتي أم ناصر» كانت من جانبها ايضاً، تحاول تقليل شدة الحدث بقولها «الصبر مفتاح الفرج». بقيت في بيت خالتي الأيام التي تلت الحدث، وأنا مبعثرة في تفكيري حائرة في تدبيري.

ان فقدان صبر والدي وتمرده على حالته ووضع عائلته، قد كان مؤشراً خطيراً في حياة الأسرة المشردة. لقد انتشر خبر ما حدث لوالدي لجميع أفراد عائلتي والعوائل المضيفة، وكانت ردود الفعل عنيفة مؤلمة ليس فيها بوادر حل سوى تعميق مأساتنا. كان خوفنا كبيراً من ان يتكرر الحدث ولربما مع فرد آخر من أفراد العائلة نتيجة حالة اليأس والتشرد والضياع بالإضافة الى سوء حالتنا النفسية في إيجاد مخرج من تلك الأزمة وصعوبة تقبل وضعنا الحالي، اذ ان تكون ضيفاً في عائلة معناها ان تضغط على العوائل المضيفة في حريتهم، وان يتقيدون في أمورهم الأسرية، يعطونك من وقتهم ويقدمون ما لديهم، محاولين ان تكون فترة ضيافتك، التي ليس لها نهاية، ميسورة، ولكن الضيف هو ايضاً له شعور بثقل الضيافة والحساسية المفرطة المرتبطة بالتشرد وصعوبة تأمين الحاجيات اليومية كاستعمال الحمام، غسل الملابس، مكان النوم، وإخفاء المعاناة، محاولا ان تكون «خفيف ظل»، لذلك الأمر كان شاقاً وعسيرا للطرفين. ومع وفير الإمتنان لتلك العوائل التي آوتنا، ولكن توزيع عائلتنا على أطراف كثيرة، قد بدأ يأخذ محوراً آخر، والوضع النفسي الذي عاشه والدي، كان الإشارة الأولى لخطورة الحالة المزرية المتعبة التي نعيشها.

خلال الإسابيع الماضية، أخذنا خالي اسماعيل مع عائلته في رحلة لزيارة مدينة كرج التي تبعد حوالي اكثر من 20 كيلومتراً غرب العاصمة طهران، وتقع أسفل جبال البرز، للتمتع بمناظر تلك المدينة، وادخلنا خالي الى «كاخ شمس» أو «قصر شمس» أخت الشاه المخلوع، وتعجبنا لجمال القصر وفخامته وحدائقه الجميلة، وزاد انبهارنا المعمار الجميل والفخم للقصر، كما زرنا المعبد الحجري الزرادشتي، وكذلك «سد كرج»، وهو من السدود المهمة في ايران اذ يحصر هذا السد المياه العذبة المنحدرة من أعالي الجبال، وكان الهواء عليلا فيه نوع من البرودة، وتحولت زيارتنا كرج من ترفيهية الى تعليمية وتعريفية بالحضارة الحديثة للبلد المضيف.

في الإسبوع الذي تلا حادث إختفاء والدي، كان هناك خبر مفرح بين تلك الأحزان، وهو تعيين أختي سجواء كطبيبة أسنان في مستشفى قرية «زور آباد» التابعة الى مدينة كرج، وقد باشرت عملها رغم صعوبة المواصلات، وكذلك ان أختي الأصغر التي باشرت عملها في شركة صديق خالي، كسكرتيرة تحت التجربة، اما انا ايضاً تم تعييني تحت الإختبار في مؤسسة كبيرة لإنتاج اللقاحات في مدينة كرج، مسؤولة لمكتبة المؤسسة، وعليّ في بداية الشهر التاسع بالالتحاق في الوظيفة الجديدة، وهذا كان لنا بداية الطريق.

بعد مرور ثلاثة أيام من الحدث، التقيت بأخي أحمد الذي زارني ليطمئن عليّ في بيت خالتي «ام ناصر»، وتبادلنا أطراف الحديث عن وضعنا وقلة الحيلة على الحاضر وما ستؤول له الأمور، وهنا اخبرني اخي احمد ان والدتي قد ذهبت بمرافقته وبدون علم والدي الى احدى المسافرخانتين (الفندقين)، والتقت بأحد اخوتها، وقال اخي:

«عندما التقينا بأحد أخوالي، تحدثت والدتي مع خالي وهي تبكي، قائلة انها تشكر لهم ضيافتهم واخراجها وعائلتها من المخيم ولا تريد ان تكلف أحداً منهم بشيء، ولكن توزع عائلتها في بيوت مختلفة بعيدين عن الجو العائلي يزيد الطين بلة، لانها تخاف عليهم جميعا نتيجة ضياعهم وخجلهم ان يحدث شيء ما لا يحمد عقباه، فهم بعيدون عن أبويهم وعن حالة الإستقرار، فاقدون اي تلويحة أفق في مستقبلهم، وهي لا تعرف من تمرض منهم أو هل عندهم مشاكل، مضيفة انها لا تنام لفراقهم وخشية عليهم، ولهذا تريد ان تأخذ غرفتين في «المسافرخانة» وليكن ذلك

مقابل جزء من إرثها من أبيها بدون تكلفة أحد، وصرخت والدتي مستنجدة بأخيها بقولها «اريد أولادي فارحموا بحالي مهما يكن انا اختكم، لقد ظلمنا حاكم لا يخاف الله ولا يرحم، أرجوكم ان تساعدونني، فليس لي احد سوى الله وانتم اخوتي الأحبة». كانت والدتي تطلب جمع شمل عائلتها لا غير، وهنا أجابها خالي «انت اختنا العزيزة وكلنا يحبك ويحب عائلتك وانتم ضيوفنا الاعزاء، وعليك التمسك بالصبر، وارجوك ان تصبري وحتماً سنجد حلا عن قريب». وكان خالي ضد فكرة السكن في «المسافرخانة»، فيما وعد والدتي بانه سيبحث الامر مع اخوته، وسيخبرها بالنتيجة. رجعنا الى بيت «خالتي معصومة»، ووالدتي كانت منهارة مهدمة القوى، محاولة فتح باب الصبر على مصراعيها، لربما يدخل فيها أملها المنشود بضم عائلتها ثانية. كان أخي يتكلم بحرقة وألم وهو كسير الخاطر لعدم قدرته على انتشالنا من التمزق الذي حصل للعائلة».

تمالكت نفسي عن البكاء، وحاولت أن افهم ما يدور من حولي، وقلت لأخي: لنصبر ونرى ما يحدث، وعلينا ان نكون أقوياء، ونبقى على ارتباطنا القوي، فهو أساس لقوتنا وبقائنا. ولكن ثمة سؤال كان يدور في نفوسنا: هل سيستجاب لطلب والدتي وكيف ستكون أحوالنا اذا لم يكن هناك حل يجمعنا من جديد؟ وهنا يتعمق معنى الوطن والدار، لأنه كان مصدر الإستقرار، والإحساس بتألقنا المفقود يجعلنا نشعر بنقص كبير في وجوديتنا، وتصبح الحاجة الى الوطن والدار عذابا مستمرا.

بعد مرور أقل من إسبوع على ذهاب أمي وحديثها مع أخيها، وصلني الخبر في الليل، وكنت حينها في بيت «خالتي ام ناصر»، حيث اتصل احد اخوتي وابلغني، ان احد اخوالي وهو «خالي الكبير مكي»، قد بادر بالسماح لنا بالسكن في مسكنه مخصصا لنا غرفتين في الطابق الثالث من بيته، الى جانب إبنه «صاحب» الذي كان يسكن في الطابق ذاته.

الان اصبح ممكنا لمعظم افراد العائلة، السكن في بيت خالي العزيز مكي. كان وقع الخبر علينا، مفرحاً بل انتظرناه طويلاً لجمع شتاتنا والرجوع لجونا العائلي، الذي اصبح احتياجنا واشتياقنا اليه كبيرا، فكنا لمبادرة خالي شاكرين طوال العمر،

فهو انقذنا من التفكك الأسري. وبعد يومين جاء اخي الكبير الى محل اقامتي في بيت «خالتي ام ناصر» لاصطحابي الى مقرنا الجديد، فجمعت حاجياتي البسيطة، وشكرت خالتي الطيبة وعائلتها لحسن ضيافتهم ومحبتهم وكرمهم، وودعتهم على امل زيارتهم بين الحين والآخر. خرجت مع أخي لركوب الباص باتجاه بيتنا الجديد وطيلة الطريق لم اسأله عن البيت أو شكله وموقعه (لانني لم أذهب سابقاً الى بيت خالي فلم يكن لدي اي انطباع عن السكن الجديد)، فليس مهما حال البيت، قدر أهمية وجودنا كعائلة مع بعضنا، الوجود الذي سيزيد البيت بهجة وحياة، فهي فرصة أهديت الينا من السماء لجمع عقدنا الفريد مرة اخرى.

وبهذا دخل خالي مَكي كملاك الرحمة لجمع العقد الفريد ثانية، وإن كان في المنفى.

31

كفاءة عراقية في المنفى

كنت مع عائلتي نسكن في بيت في «مدينة الحرية الأولى» ببغداد، كانت مدينة شعبية تسكنها فئات مختلفة من الشعب، في خليط جميل كقوس قزح: عرب الجنوب، الأكراد، المسيحيون والتركمان والخ من العوائل الطيبة البسيطة المعطاء. في شارعنا نبض متدفق للحياة، حيث الأطفال في لعبهم الإجتماعية البسيطة التي تعبر عن محبتهم وطفولتهم، والنساء يمضين الى السوق بالعباءات العراقية السود المميزة، وفي المساء يقف شبان الحارة للتحدث او النقاش. كان بيتنا لا يبعد كثيراً عن الشارع العام، واسمه شارع الزهاوي، حيث تمر باصات «مصلحة نقل الركاب» المتجهة الى الميدان، و«الفورتات» (باصات صغيرة اسمها مشتق من مصنعها أي شركة «فورد») التي تصل بمسيرتها الى مدينة الكاظمية حيث مقام موسى الكاظم عليه السلام.

كان الشارع العام مكتظا بالمحلات الكثيرة، من ضمنها المخصصة للأكل والمقاهي حيث يلتقي الرجال لشرب الشاي، ولمعرفة اخبار البلد والعالم، او ممارسة لعبة الدومنة (الدومينو)، واحياناً مشاهدة مسلسل شيق يتابعونه على التلفاز، وغالباً تسمع في تلك المقاهي، اغاني قديمة مثل ناظم الغزالي او ام كلثوم، فكانت مدينتي هي مركز الحياة الإجتماعية والألفة. لم يكن سهلاً علينا في منفانا ان ننسى تلك الحياة الجميلة بكل معانيها، وذكراها تجعلنا نحس باننا كنا في كوكب اخر، وتجذبنا تلك الذكرى، دون إرادة منا، الى العيش في الماضي المفقود.

بيتنا المزروع في الذاكرة المنفية، هو تاريخنا، فهنا في هذه الغرفة ولد اخي

الصغير، هناك مكتبتي وسريري بجانب الشباك المطل على الحديقة، هنا في غرفة الجلوس كنا نستقبل الضيوف، وهناك في المطبخ طهت والدتي غذاءنا المجبول بحبها، وتنورك يا أمي فوق سطحنا لا زال ساخنا بناره ولم يبرد، اما نخلتنا الباسقة التي كانت تعبر عن شموخنا لا زالت تحاول ان نتكأ عليها في تعبنا، واشجار النارنج الأربعة المثمرة، كانت عند حلول الربيع تعطّر برائحة القداح اللطيفة المنبعثة منها هواء البيت وتجعله ذا نكهة طيبة، ويباري عطره عطر شجيرات الياس (الآس) في أسوار الحديقة، الباب كانت تؤدي الى الحديقة حيث عريشة جميلة من العنب، حيث تنشر وريقات العنب الأخضر الجميلة، ظلالها الناعمة في أوقات الصيف الساخنة، وكانت هناك شجرتا تكي (توت)، واحدة منهما كانت مثمرة، وفي الصيف كنا ننام فوق السطح وكنت من سريري أراقب النجوم، وأعدّ طابوق السياج، وهنا وهناك في كل مكان من أرجاء بيتنا المفقود، كانت هناك ذكرى فرحة او ألم، وتبقى الذاكرة تتصفح أوراق العمر بكل فصولها وبجغرافية بيتنا المهجور الذي يبدو ان أساسه سيبقى قائما في أرواحنا وذاكرتنا الى الأبد.

في وقت وصولنا الى طهران، كان الطقس فيها ربيعياً معتدلا وجميلا، وبعد شهر من وصولنا حلّ فصل الصيف، وكان الجو حاراً كما هو حال الصيف في بغداد، ولكن لم تكن هناك عواصف رملية وكان أكثر إعتدالاً. في العراق كان الناس ينامون في فصل الصيف على سطوح المنازل ولكن الإيرانيين لم تكن من عادتهم النوم على الأسطح، بل كانوا ينامون تحت أجهزة التبريد، وكثيرا ما كنا نشتاق لـ«نومة السطح» الجميلة في وطننا وبيتنا العراق، وكثيرا ما نتذكر أهلنا وأصدقاءنا ويزيد الشوق الى الماضي، الذي يبدو لنا وكأنه لن يعود ثانية، ولكن الأمل لا يزال في قلوبنا بان نرجع الى ديارنا وأهلنا ثانية.

في الفترة التي مضت، تحدثت معنا، أختي المتزوجة التي بقيت في العراق لعدة مرات، وغالبا ما كان الاتصال يتم في بيت خالتي ام ناصر او في بيت خالتي معصومة. وقد سافرت اختي الى الكويت مع زوجها خصيصاً لغرض مكالمتنا هاتفيا دون خوف وضغط نفسي وكانت تبكي كثيرا، وباحت لنا بالقول ان بعض الناس في عملها كانوا يضايقونها بصورة غير انسانية بسبب تسفير عائلتها، واحيانا هي تفكر

بترك البلد لان الحياة اصبحت فيه لا تطاق، وتشعر بالوحدة والأسى لفراقنا، وكانت تبكي كثيرا على الهاتف، رغم محاولاتنا بتهدئتها وحثها بالصبر، واخبرت اخي الكبير (ابو علي)، بان ابنه وزوجته بخير، وهناك خطورة عليهم في حالة ترك العراق، وعليه بالصبر ريثما الوصول الى حل ما. الصبر كان بداية الحديث ونهايته دائماً رغم علم الطرفين، بان الصبر ليس هو الحل، في سماء قد بدا فيها آله الحرب شاهراً سيفه.

ذهبت الى مقرنا الجديد مع اخي، وكان البيت يقع في قلب طهران التجاري، وهو تقاطع (جهاراه سيروز)، وكان ليس ببعيد عن بازار(سوق) طهران الكبير، وقريب من شارع (ناصر خسرو) التجاري. وحين شاهدت المنطقة، وجدتها عبارة عن ورش عمل كبيرة، ولاحظت انها لم تكن منطقة سكنية، ولربما كانت منطقة سكنية قديمة وبمرور السنوات أصبحت منطقة للمعامل والتجارة. كان البيت يبعد عن الشارع العام حوالي 300 متر، اذ كان علينا الدخول في زقاق ضيق وفي آخره كان بيت خالي مكي.

البيت كان كبيرا ومتين البناء، رغم قدمه، ومكونا من ثلاثة طوابق، يسكن خالي وعائلته في الطابق الارضي، اما الطابق الاول فكانت تسكنه مؤقتاً ابنة خالي (حميدة) وزوجها وطفلهما، وكان الطابق مغلقا لان ابنة خالي كانت قد اشترت بيتا في منطقة اخرى، وفعلاً انتقلت الى بيتها الجديد خلال عشرة أيام. فيما الطابق الثاني يسكنه ابن خالي مكي (صاحب) وزوجته (زينب) التي هي ابنة (خالتي ام ناصر)، وكان لها ولدان (عادل وعارف) وعمرهما يتراوح بين عشرة وأحد عشر عاما، وابنة صغيرة اسمها (سبيدة) عمرها سبع سنوات. وكان الطابق مكونا من أربع غرف كبيرة، كل غرفتين على جانب، ووسط الغرف كانت هناك صالة كبيرة مفروشة للجلوس وفيها تلفزيون. لم تكن هناك دورة مياه في هذا الطابق بل في الأول، وكذلك ليس هناك مكان للإستحمام فهو في الطابق الأرضي، اما المطبخ فكان صغيرا جداً خارج الغرفتين وفي نهاية الممر الذي تكون بدايته السلم الرئيسي للبيت.

كان لخالي مكي ثلاثة أولاد، أوسطهم كان متزوجا وله بيته، وأكبرهم (صاحب) واصغرهم (مصطفى)، وله ست بنات ثلاث منهن متزوجات. حين

سكنا في الغرفتين المقابلتين لغرفتي ابن خالي، اعطانا صديق ابن خالي خمسة فرش اسفنجية جديدة للنوم عليها، واشترى اخوتي باقي الفراش، وكذلك بطانيات قليلة الجودة، لكل واحد منا. ارض الغرفة لم تكن مفروشة، لذلك اشترى اخوتي حصيرة كبيرة وضعناها على الأرض. الغرف كانت كبيرة، فكانت غرفة لأبي والاولاد وغرفة للوالدة وللبنات. سكنا مع بيت ابن خالي (صاحب)، الذين كانوا قد اشتروا بيتا وانتقلوا اليه بعد 6 اسابيع من وجودنا. في مدة سكننا كانت ابنة خالتي زينب طيبة جدا، وكانت والدتي تطبخ معها في المطبخ الصغير مستخدمين الطباخ الغازي وادوات المطبخ، ولم يكن فيه انابيب غاز، لانه من البيوت القديمة، فكانت مشاركة في الطبخ، وشعرت والدتي بالراحة مع زينب الطيبة، وتتذكر فيها طيبة زينب، أختي المتزوجة. كنا نتناول وجبة العشاء معاً، ونجلس معهم في الصالة لمشاهدة التلفزيون، وكان اخي الصغير منصور قد تصادق مع أولادهما: عادل وعارف وراح البيت يعج بضوضاء الحياة، وكنت أشعر بارتياح بسيط لوالدي الذي بدأ يذهب لشراء إحتياجات البيت الغذائية احياناً، فيما كان اخوتي يسألونه في مساعدتهم للاستفادة من خبرته في تجارة جلود الحيوانات، وكذلك اشغاله بعض الشيء كي لا يعود للعزلة ثانية، وكان والدي يذهب كعادته الى «بارك شهر» للقاء العراقيين وسماع آخر الأخبار. كان خالي مكي ودودا، ويحب والدتي جداً لطيبتها، ويدعونا احيانا الى بيته لتناول وجبة العشاء، وكانت زوجته وهي ابنة عمه انسانة طيبة وكريمة، وتصادقنا نحن البنات مع بنات خالي لأنهن كن قريبات من اعمارنا، ونتفاهم معهم بلغة هي مزيج من العربي والفارسي والانجليزي!

كان أخوتي الثلاث يذهبون الى العمل في الساعة الثامنة صباحاً لان محل عملهم قريب من البيت، وكانوا يشتغلون في مكان واحد ضمن سرداب له شباك صغير رطب وخانق، واصبحت المهنة المتعبة منقذة في تلك الظروف، ويرجعون في التاسعة مساء متعبين لنتناول وجبة العشاء، أيديهم الشابة قد بدت عليها الجروح والبثور وتغير لون البشرة نتيجة استعمال الجلود والصمغ والألوان، من شدة تعبهم كانوا ينامون بعد حوالي ساعتين من مجيئهم. اما اختي سجواء فكان مكان عملها بعيداً في مدينة كرج، ولهذا السبب، فبقيت 6 اسابيع بين بيت (خالي اسماعيل) و(خالتي

ام ناصر) وبعد معرفة الطريق بصورة جيدة سكنت معنا وكانت تذهب في الصباح لوحدها واما في رجوعها كان يذهب ابي عصراً الى كرج ليرافقها في العودة.

بعد مرور حوالي اسبوعين، بدأت انا في عملي، وكان عليّ ان اخرج مبكرا من البيت، حوالي السادسة صباحا، بمرافقة والدتي لان الشارع مخيف بالنسبة لفتاة وحدها في الصباح المبكر. وبعد تبديل باصين لنقل الركاب، أصل الى مكان معين في «شارع جمهوري اسلامي» لاستقل باص الدائرة كي ينقلني مع باقي الموظفين الى المؤسسة في مدينة كرج. وبعد انتهاء العمل في الرابعة عصرا، ارجع في الباص ذاته لأصل الى البيت في السادسة مساء.

كنت أعمل كموظفة في مكتبة في مؤسسة كبيرة، تابعة لوزارة الزراعة، اسمها مؤسسة «سرم سازى رازى» في (حصارك) الواقعة جنوب مدينة كرج، لإنتاج اللقاحات وكانت مركزا للبحوث العلمية. كانت المؤسسة كبيرة جدا وقديمة وفيها أقسام كثيرة، وهي تعمل على غرار «مؤسسة باستور» الفرنسية، حتى البناء كان على الطريقة الفرنسية، والتعاون كان كبيرا بين المؤسستين العلمتين حينها. كان عملي في المكتبة الكبيرة التي تتكون من طابقين وفيها من الكتب، القديمة والجديدة الفريدة وباللغات الانجليزية والفرنسية والفارسية والعربية. كان زائرو المكتبة من الأساتذة الكبار في علوم البكتريا والفايروسات والسموم والباثولوجي والخ من الفروع المتعددة، طيبين جداً معي. وكانت تصل الى المكتبة اسبوعيا أعداد كبيرة من المجلات العلمية الحديثة التي كنت اسمع بها في بلادي فقط دون معرفتها. كنت أعمل مع مساعد بسيط ليس له صلة بالعلم والطب، وبذلك اصبحت المسؤولة فعليا عن المكتبة وما فيها. قد كان عملي في المكتبة قد افادني جداً في استمراري وتعمقي في دراسة الطب البيطري، لوجود الكتب والمجلات الحديثة بهذا المجال، وكذلك تحسنت لغتي الانجليزية، بالإضافة الى مناقشتي مع الاساتذة الذين يرتادون الى المكتبة، فيما كان مرتبي متوسطا مقارنة بدرجتي العلمية التي بقيت في العراق دون ان انهيها.

لقد تعرفت في عملي على أستاذ عراقي، وهو رئيس قسم انتاج مضادات السموم،

واسمه دكتور محمود لطيفي. كان دكتور لطيفي، رجل علم وله كتابات كثيرة في مجال الثعابين والعقارب وسمومها، وكانت له هيبة كبيرة في الأوساط العلمية، وكان يهتم بي ويشجعني على الدراسة وعدم فقدان الأمل. لقد دعاني الى قسمه العلمي، ورافقني في زيارتي لرؤية انواع الثعابين المختلفة وسباتها، واندهشت كثيرا لما رأيته من تقدم علمي، وراح يشرح لي كيف يستخلص السموم من الثعابين وانتاج مضادات لها، وكانت زيارتي ذا فائدة كبيرة واستطلاعا قيما على الخبرات في ذلك المجال. وتعرفت على اساتذة، مثل (دكتور يوسفي) و(دكتور تميجي)، وايضا تعرفت على اطباء بياطرة، بعضهم كان يعمل في المؤسسة، والاخر كان يطبق عمليا ما كان قد درسه، مثل (خانم مصفا) التي كانت صديقتي، ولأنني اجتماعية، كما أوصف دائما، فقد كان الأغلبية يحرصون على معرفتي والتعامل معي بأدب واحترام.

كان لقائي بدكتور لطيفي، قد جعلني افكّر، كم من الكفاءات العلمية والأدبية والتجارية وغيرهم قد فقد العراق نتيجة الضغط السياسي من قبل النظام الحاكم حينذاك وأزلامه الجهلاء وغبائهم للضغط على هؤلاء الناس المبدعين؟ فالكثير منهم قد فروا من العراق مع عوائلهم الى بلدان العالم او الى دول المجاورة هربا من نظام حاول ان يضع العلم والعلماء وكل شيء في خدمة غاياته غير الانسانية، وبهذا بدأ بلدي يفقد الكوادر العلمية البناءة، واحدا تلو الاخر ممن كانوا يخدمون المجتمع العراقي الذي هو في أمس الحاجة لهم في كل المجالات، وليجعل الجهل والفقر والعذاب والموت البديل الاوحد.

تألمت كثيرا لبلدي وما يجري فيه من إهدار بشري وعلمي، وزرع التفرقة والجهل محله. وبهذا كان (دكتور لطيفي) كأروع شخصيات المنفى.

عمي و... بريد المحبة

أدت عملية التهجير القسري للعراقيين الى ظواهر سلبية عدة، ومنها خوف كثير من العوائل العراقية على مصيرهم ومصير أولادهم لعدم وجود قانون يتم التهجير على اساسه. وفي واقع الامر كانت اغلب العوائل التي هُجّرت ضمن مخطط خاص لإبعاد عناصر معينة من البلد بطريقة لا إنسانية. ومن نتائج هذه العملية الإرهابية فرار أعداد كبيرة من العوائل هرباً من ملاحقة النظام بعد نفي جزء كبير من عوائلهم وكانت قصة عمي احدى تلك القصص.

كان جدي الذي يقطن في مدينة بغداد في منطقة الكرخ متزوج من زوجتين، زوجته الأولى (اسمها هدية) التي لم تنجب له الأطفال خلال السنة الاولى بعد الزواج. وفي ذلك الزمن كان انجاب الاطفال من احدى متطلبات الزواج الرئيسية، لذلك تزوج جدي ثانية وحسب الشرع والقانون بزوجة ثانية (اسمها خجة وهي والدة أبي). شاءت الأقدار ان الزوجتين بدأتا بالإنجاب واصبح لجدي عشرة أولاد كل زوجة لها خمسة من الأولاد والبنات، وكان جدي فرحاً بذلك لان الأولاد سيكونون حاملين لاسمه وايضا يساعدونه في كسب الرزق..

كان لجدي ولدان وثلاثة بنات من زوجته الأولى ويسمونها «أم فخري» (وهذا ما كان متعارف عليه في مجتمعنا العراقي بشكل خاص حيث يسمى الاب والام باسم وليدهم الاول للاحترام والهيبة) ووثلاثة أولاد وبنتان من الزوجة الثانية جدتي «أم صادق». ولجدتي ام والدي ثلاثة أولاد اكبرهم عمي صادق رحمه الله «ابو زكي» الذي توفى بمرض سرطان الرئة في بداية السبعينيات بسبب عمله بترتيب الحروف

في المطبعة وبعمر لم يتجاوز 45عاماً، ووالدي «ابو كاظم»، وعمي محمد «ابو سمير» الذي كان اصغرهم سناَ، وعماتي الكبيرة «ام جواد» والثانية الصغيرة الحجية «ام غائب» التي لم تخلّف أطفالا لذا تدعى باسم الطفل الغائب، وهو كنية محبة بالزوج والزوجة الذين ليس لهم اطفال.

عمي محمد كان من الشباب المحظوظين في تلك الفترة .بدخوله المدرسة، وكانت قدراته التعليمية ممتازة، ورغم كل المصاعب استطاع ان يكمل دراسته وكان دائماً متفوقاً على اقرانه في المدرسة، وقد نجح بتفوق عال في مرحلة الاعدادية، وكان من العشرة الاوائل لذلك كانت هناك فرصة بان يمنح منحة لإكمال دراسته في الخارج. وفعلا حصل على منحة الدراسة في «كارديف يونفرستي» في انجلترا بكلية الهندسة عام 1957. وكانت فرحة أبي وجدتي وأخواته كبيرة جداً، وحسب ما ذكرت لي عمتي الحجية بان ولادتي كانت قد صادفت في يوم حصول عمي على المنحة الدراسية فاسموني «هناء» تعبيراً عن فرحتهم.

كانت الأسماء في بلادي في الزمن القديم دائماً لها دلالة خاصة، وغالباً تؤخذ الاسماء من القرآن الكريم او اولياء واوصياء الله الصالحين، وكذلك كانت للأسماء دلالات اخرى مثل الفرح، الحزن، او حدث سياسي او ثورة حدثت، او على اسم رئيس جمهورية عربية او عراقية. وبهذا كانت اسماء العراقيين قديما مرتبطة بحدث ما، واطرف الأسماء والتي لا يشعر حاملوها بالراحة هي الاسماء التي تطلق على الوليد بعد فترة انتظار حيث تنذر الأم اذا ولد لها طفل وعاش، فتسميه باسم متدن مثل زبالة، جريدي، دعبول، مطشر والخ من الاسماء وهذا ما خبرته وسمعته من كبار السن في عائلتي.

لقد سافر عمي محمد وبعض الطلبة المتفوقين حينذاك لإكمال الدراسة الجامعية على حساب الدولة في انجلترا. وكان يبعث الرسائل حسب ذاكرتي وما سمعته بانتظام، لإبلاغ العائلة وخصوصاً جدتي واعمامي عن وضعه الصحي والدراسي، واتذكر في مراحل طفولتي الاخيرة عندما كان يأتي ساعي البريد حاملا مظروفا ازرقا، كانت العائلة تفرح وخصوصا جدتي التي كانت تعطي ساعي البريد «البشارة»، وهي

عبارة عن نقود او حلويات كانت جدتي تحتفظ بها لهذا الغرض. عند قراءة الرسالة كانت جدتي وعماتي وباقي افراد العائلة يتجمعون حول قارئ الرسالة، وكانت غالبا اختي الكبيرة وعلينا نحن الأطفال الصمت كي ينصت الجميع الى محتواها. بوصول الرسالة تعم الفرحة بيتنا، وبمجيء والدي من العمل كنا الأطفال نسارع بأخباره بالحدث للحصول على البشارة وذلك اليوم يكون الجميع فرحين، وكان عمري حينذاك أقل من خمس سنوات.

خلال فترة الدراسة التقى عمي بفتاة ألمانية اسمها «ريناتا»، وأحبا بعضهما وتزوجا في ألمانيا، وكانت الفرحة كبيرة حينها في بيتنا لهذا الحدث الجميل.

بعد انهاء عمي لدراسته الجامعية رجع الى العراق ثانية في خريف عام 1962، وتعبيرا عن الفرحة نُحرت الذبائح لوجه الله تعالى وكانت من عادات العراقيين الجميلة، ان يستأجروا، في الأعراس وفي حفلات الختان او مناسبات فرح أخرى، فرقة موسيقية عراقية شعبية وتسمى «المزيقة»، وكانت تعزف موسيقى الاغاني الشعبية والشباب والاطفال ترقص على انغام الموسيقى المبهجة، والنساء تهلهل ويقولون حينها كلمة «شوباش» (وتعنى كما اتصور العطاء والمنحة)، وهنا تبدأ النساء بنثر الحلويات على رؤوس الراقصين، والرجال كذلك ينثرون قطعا نقدية صغيرة، واما نحن الاطفال فكنا نتزاحم على جمع الحلويات او النقود، وكان الجيران والأقرباء يعبرون عن فرحم بإعطاء الهدايا لأصحاب الفرحة.

احتفاء برجوع عمي وسلامته وحصوله على الشهادة الجامعية، جاء والدي وأعمامي وعماتي بفرقة «المزيقة»، وحوالي كل ثلاث ساعات يأتي احد الأقارب مع الفرقة الموسيقية الشعبية، في أجواء فرحة جميلة ولطيلة ثلاثة أيام كان بيتنا مليئا بالبهجة وصوت الموسيقى الشعبية التي تجذب الأطفال الذين ملأوا دارنا برقصهم وفرحهم، ما اجمل عادات شعبنا بالأفراح.

في الشهر الاول بعد رجوعه كان على عمي اداء «خدمة العلم»، فدرس الشؤون العسكرية لمدة 6 اشهر في كلية الإحتياط، وبعدها جاءت زوجته الألمانية عمتي «ام سمير»، وكانت هناك ايضا فرحة بقدومها لتصبح جزءا من عائلتنا، سكنوا معنا في

البيت، وبعد شهرين تعين عمي في مدينة خانقين النفطية كمهندس في حقول النفط، فانتقل هو وعائلته الى تلك المدينة. مع انتقال عمي الى خانقين رافقتهم المرحومة جدتي وسكنت معهم اكثر من سنة، وكذلك ذهبت اختي سجواء وبقيت لمدة سنة واحدة ودرست في مدارس خانقين، واتذكر اني زرتهم لمدة اسبوعين وخلال زيارتي اصطحبني عمي بنزهة في المدينة الصغيرة الجميلة، شاهدت في شوارع مدينة خانقين حينذاك شيئا جميلاً وهو الاعلان عن فيلم سينمائي، واتذكر اسم الفيلم كان «هرقل» والاعلان كان جميلا، اذ كانت مجموعة من الشباب يجوبون شوارع المدينة حاملين لافتة كبيرة كُتب عليه اسم الفلم وصورة لهرقل(الممثل) وعضلاته المشدودة، وبعض من الشباب ينقرون على الطبل ويمجدون ببطولة هرقل ومغامراته وقوته، وكان احد الشباب يرتدي ملابس شبيهة بالبطل والناس يشجعونهم بالتصفيق، وكانت هذه اول مرة ارى فيها دعاية حية لفيلم سينمائي.

بعد ثلاث سنوات انتقل عمي الى العاصمة بغداد ليعمل مسؤول المعمل الالي للعُدد الجيولوجية في بغداد. وفي عام 1973 نُقل الى البصرة ليشغل بعد ذلك منصب رئيس مهندسين. كان عمي انساناً وطنيا يحب عمله وبلده، ولا يحب الانتماء السياسي، وهذا امر كان معروفا عند جميع من عمل معهم. ويعتبر عمي حينها من الكفاءات المهمة في عمله، وعاش مع زوجته التي احبت العراق وشعبه الطيب وتعلمت اللغة العربية، ولعمي ولد اسمه «سمير» وبنت اسمها «هناء»، درسا في المدارس العراقية وكانت اللهجة البصراوية واضحة في كلامهم لتأثرهم بالمجتمع الذي عاشوا فيه.

عائلة والدي كان تربطهم مع بعضهم البعض علاقة وثيقة يسودها الحب والطيبة والحنان. وكان والدي يحب عمي محمد مثل ابنه، وعمي بدوره يبادله الحب والاحترام، وكان لعلاقتهم الاخوية القوية في كل المجالات تأثيرها على تربيتنا جميعاً. كان عمي ديمقراطيا على عكس والدي المتزمت في تربيته، لذلك كان له دور كبير في تغيير مفاهيم والدي واضفاء نوع من الحرية في بيتنا. وفي كل مراحل تنقلات عمي بين امكنة عمله وسكنه، كان يزورنا ونزوره وخصوصا نحن البنات كانت لنا معه علاقة حميمة.

عندما انتقل عمي محمد الى مدينة البصرة كان يزورنا في العطل، او عندما يكون عنده إيفاد الى الخارج، وكان صديقاً لنا نحن البنات فيدعونا الى المطاعم او شارع ابو نؤاس وحديقة الزوراء، زرناه في البصرة مرتين او اكثر في العطل الصيفية، وتمتعنا كثيراً في رؤية مدينة البصرة الجميلة وابو الخصيب والعشار.

وصل عمي خبر تسفيرنا الى ايران، الذي فوجئ بالخبر واصيب بحالة هستيرية لا يستطيع فيها التوقف عن البكاء لفقدانه لعوائلنا التي كانت عائلة له وخوف على الجميع من المجهول وكذلك علم بما حدث لأختي سجواء الذي زاده هما وحزناَ. اصبح وضع عمي وعائلته غير مستقر وكان يخاف على اولاده: سمير(17 سنة) وهناء (15سنة)، وحينها استدعاه المدير العام بعد تسفيرنا، واخبره ان لا خوف عليه من التسفير قائلا «لا تخف، لقد سفرت عوائل اخوتك واخواتك ولكننا لن نسفرك فالأمر معك يختلف»، وهنا حاول عمي ان يخفي غضبه وشعوره بالإستنكار لما يجري لعائلته وما يجري في البلد لخطورة الموقف. لأنه في قرارة نفسه فكر ان بقاءه وعائلته في الوطن الذي يملأه الارهاب وغياب الانسانية اصبح من المستحيلات. قرر الخروج مع عائلته بأسرع وقت من العراق للتخلص من ظلم وجبروت النظام واهانة الانسان فيه، وبمساعدة بعض اصدقائهم هَربوا ابنة عمي من البصرة الى الكويت بعد تسفيرنا مباشرة، تلاها ابن عمي في ظروف قاسية مليئة بالخوف والرعب لما ستؤول له الامور لو كُشف الامر لدى سلطات الامن الارهابية. حاول عمي الخروج بطريقة طبيعية الى المانيا وكان ذلك شيئا مستحيلا لذلك اخذ اجازة من دائرته وسافر الى الكويت في يوم 1/ 6/ 1980 وبقى فى الكويت لمدة شهر وهنا التقى بأولاده الذين ساعدتهم السفارة الالمانية في الكويت للسفر الى المانيا لانهم من حملة الجنسية الالمانية ايضاً.

اما زوجة عمي «ام سمير» بقيت في البيت في البصرة بعد سفر عائلتها تحت ظروف نفسية سيئة لانها قد فقدت كل ما بنته في تلك الأعوام، وحاولت ان تبيع بعض اثاث البيت، وفعلاُ باعت بعض اثاث البيت بثمن بخس جداً، وبعدها سافرت الى بغداد كي ترحل الى المانيا من مطار بغداد الدولي، ذهبت عمتي ام سمير الى بيت عمتي «ام وسام» في مدينة الحرية، ولعدم معرفتها موقع البيت نزلت من التكسي مع

حقيبة السفر قريب بيتنا وهنا سالت احد الشباب عن العنوان ولعدم معرفته، طلبت منه بادب ان يقف بجانب الحقيبة كي تسأل شخصاً اخر ولكنه رفض وانصرف خائفاً. وهنا بكيت زوجة عمي لانها كانت تحب العراقيين لمواقفهم الطيبة متسائلة هي الأخرى ماذا حصل لهذا الشعب الطيب؟ سافرت زوجة عمي الى المانيا والتقت بأولادها، اما عمي فخلال وجوده في الكويت تكلم معنا عدة مرات تلفونيا، ليخبرنا بخروجه من الوطن الذي اصبح بيد غير وطنية، وكان الحديث معه فيه لوعات كثيرة والبكاء على مصيرنا ومصير اخواته وعائلة بيت عمي السبايا تحت رحمة الخيام. ومن الكويت بعث عمي مبلغا مادياً لمساعدة والدي المنكوب وكذلك ارسل لنا كمية كبيرة جداً من الملابس المستعملة الشتوية عن طريق احد اصدقائه وكانت الملابس من مساعدات الكنيسة، وفعلا استفدنا بجزء منها والآخر استفاد منه بيت عمي وعمتي وبعض سكان المخيم، وكنا له جميعا شاكرين جدا لوفائه وللمساعدة التي جاءت في وقتها.

عندما وصل عمي الى المانيا والتقى بعائلته التي تركت البلاد على عجل، بدأ من الصفر، وكان ذلك ليس بالشيء اليسير، لان عمي خدم العراق وطنه بكل محبة ووطنية، وفي النهاية اضطرته ظروف الارهاب للنظام، ترك البلد للتخلص من عذابات وملاحقات الحكومة الظالمة، لتبدأ عذابات الغربة وفقدان الوطن والاحبة. فقدان عمي لعمله الذي كان له خبرة كبيرة فيه واصبح عاطلا، يبحث عن عمل وفعلا بعد مدة اشتغل في الخليج لعقد كانت مدته سنتين وزوجته اشتغلت في اختصاصها والاولاد بدأوا دراستهم في المداس الالمانية وبدأ الجميع حياة ملؤها الكفاح والتعب.

في المنفى يزيد الحنين الى الاهل والاصدقاء والوطن، ويصبح الانسان المنفى بحاجة ماسة الى لمسة حنان تأتيه عبر الرسائل او الهاتف من اناس احبهم من أصدقاء وأهل، لتقلل من قسوة الغربة والشعور بالتعاطف الوجداني. وكنا نحن المنفيين من الوطن قسريا وفي ظروف غير عادية بل مروعة يكون احتياجنا الى لمسة الحنان أكبر واعمق والى كلمة طيبة او تربيتة على الكتف كي تعطينا طاقة للاستمرار واامل في الحياة. وللأسف كان صعب جدا التراسل والتواصل بمن نحب لان الهواتف كانت

مراقبة في العراق من قبل جهاز الامن العامة، مما يجعل الناس من الطرفين في العراق وايران يخافون من الاتصالات لعواقبها الوخيمة على الموجودين في الوطن تحت ظلم من لا يرحم، وكذلك اصبح تبادل الرسائل من المستحيلات، لذلك كنا نبعث الرسائل في البداية لاصدقائنا العرب كي يوصلوها الى العراق وتصلنا الرسائل على عنوان المسافرخانة.

بوصول عمي الى المانيا اصبح للجميع دائرة البريد المركزية (الاهل والاصدقاء)، فكنا نرسل رسائلنا اولا الى المانيا على عنوان عمي الذي بدوره كان يبدل ظرفها الخارجي، وكذلك يقرأ المحتوي فلربما هناك شيء لا يمكن ذكره في العراق خوفاً على المستلم احياناً، فكان يمحو ما هو غير مناسب ويرسلها الى العراق، ليأتيه الرد من العراق ومن ثم يرسله الى ايران فكان دوره في اتصالاتنا كبيرا وحيويا، واصبح عمي بريد المحبة لنا ولعوائل اخرى كانت ترسل رسائلها عن طريقه. وبهذا أصبح عمي بريد المحبة في المنفى.

33

عماتي و.. مدينة قم

الحياة في المخيمات كانت بائسة ومحزنة من كل النوحي، كان الأمل لدى سكان الخيام ان تحل قضية تهجيرهم القسري ورجوعهم الى ديارهم، يضمحل على أرض الواقع المفزعة، وللأسف يعانى الكثير منهم من اللوعة الروحية بضياعهم والمعاناة كانت أكبر لصمت العالمين الدولي والاسلامي المريب الذي يدعّي بالإنسانية، ازاء ما يجري ولا زال غياب اي بادرة ولو صغيرة من منظمات حقوق الانسان لإنهاء هذا الظلم الذي يحدث في عصر كانت الأصوات ترفع ضد انتهاك حقوق الانسان، ولكن يبدو ان المُهجرين تحت ضغط السلاح والموت وتشريدهم لم يعتبر انتهاكاً انسانياً من قبل تلك المنظمات. سكان الخيام كانوا متعبين من ظروف الحياة اليومية القاسية والتي يعاني منها خصوصاً الاطفال وكبار السن. اغلب العوائل المهجرة ليس لها أهل او أصدقاء في البلد الذي سمعوا به سابقا والآن هم على أرضه بتهمة عنصرية لفّقها نظام ليس له خلفية وطنية او انسانية. وهكذا اصبحت تلك العوائل من سكان الخيام الدائمين لعدم وجود من يتكفلهم في ايران. والجدير بالذكر ان بعض العوائل الايرانية قد اخذت على عاتقها مساعدتهم وتكفلت بعض العوائل العراقية من سكان الخيام رأفة ورحمة بهم.

سكان الخيام الرمادية كان عذابهم الروحي والجسدي يزداد قسوة ومرارة، ولا زالت موجات من المهجرين العراقيين تحت أقسى الظروف تصل يوميا الى المخيمات، ولقد سمعت من مصادر موثوقة (من المهجرين في طهران) بان مسجد خسروي قد أغُلق لخطورة الوضع على الحدود التي أصبحت غير آمنة، وان المهجرين الذين يتركون على الحدود الجرداء، ومن خلفهم تطلق عيارات نارية

من قبل أزلام الامن العامة لتخويفهم، لذا كان عليهم المسير المضني على الأقدام وبدون هدف وكثير من المهجرون كانوا يتركون أمتعتهم على الطرق محاولين النجاة بأنفسهم وبأطفالهم ولا احد يعرف كم من هؤلاء المشردين قد وجدوا حتفهم في هجرة العذاب. الباصات الايرانية لنقل المهجرين توقفت عن المجيء الى الحدود العراقية الايرانية لان التناوش الناري بين البلدين اصبح على مدار الساعة، وهذا ما كان يعرقل المساعدات الايرانية ويجعلها شبه مستحيلة، ومن ضمن ما سمعت بان الرجل الذي كان يساعد المشردين في مسجد خسروي وحسب ما ذكرت اسمه «رمضان» قد قُتل خلال المناوشات النارية محاولا انقاذ عائلة عراقية، وأحزنني الخبر كثيراً لما يجري وما سيجري في بقعة منسية من عالمنا الحضاري الكبير.

كنا مشغولين بالتعود على الحياة في بيت خالي مكي وكذلك على الأعمال التي بدأ بعضنا بمزاولتها من اجل ان تستمر الحياة، ولكن التفكير بمحطات الماضي، واهمها وطننا واهلنا واصدقاؤنا لم يضمحل بل كان غالباً يأخذ حيزاً كبيراً من حياتنا وأحلامنا.

في احدى الليالي الاولى رجع أخوتي من العمل والألم والحزن قد كان ظاهراً عليهم، ولم يأكلوا وجبة العشاء وألححنا عليهم بالسؤال عن السبب، وعندها روى أخي حامد ما حدث قائلاً «ذهبنا انا واخوتي الى الحسينية لان كان هناك اعلان بزيارة مدينة مشهد وبأسعار مخفضة. ولأننا نرغب في زيارة الامام الرضا عليه السلام لذا تركنا عملنا مبكراً وذهبنا صوب الحسينية التي نشرت الاعلان. عندما دخلنا الحسينية كان هناك كثير من الشباب في ساحة الحسينية لأجل حجز بطاقات السفرة في الباص الى مشهد. ونحن واقفون مع الشباب في الانتظار واذا برجل متوسط العمر ذو هيبة يدخل الى الحسينية وهو يصرخ بصوت عالٍ مخاطباً الشباب الموجودين قائلاً «حق الشباب على الشباب ادعوا لي ان يخرج ابني الوحيد عباس سالما من سجن الظّلام». عند ذلك دعينا لابنه بالنجاة ولوالديه بالصبر ولكن الحزن قد اخذ ماخذه الى قلوبنا على هذا الاب الذي قد يكون فقد ابنه الوحيد، فأين العدل والحكمة من ذلك؟». كان اخي يتحدث بصوت متهدج عن إحدى المآسي التي حطمت قلوب العوائل بحجز وقتل اولادهم ظلماً، وأخوتي الباقون يبدو على وجوههم الألم العميق وبكت والدتي ووالدي على

هذه المأساة. مرت الأيام والسنوات وعرف اخي بعد سنوات عن طريق اصدقائه في طهران، ان ابو عباس قد توفى وبعد مدة توفيت زوجته، وهما بانتظار عودة ابنهما. ترى هل نجا عباس من السجن؟ ام ذاب كما ذاب الكثير من الشباب في براميل التيزاب؟

بعد حوالي اسبوعين من انتقالنا الى بيت خالي «مكي»، علمت من عائلتي بان خالتي الانسانة الكريمة «معصومة» قد تكفلت بيت عماتي وعائلة ابنتهم واخرجتهم من حياة المخيم ومآسيه في اصفهان والان هم يسكنون في بيت خالتي. فرحنا بذلك الخبر لأننا كنا عاجزين عن اخراجهم ولان وضع المخيم سيء جداً وان الشتاء على الابواب. ان هذا الموقف الانساني الكبير الذي قامت به خالتي رغم صَغر بيتها وعائلتها الكبيرة جعلها من الشخصيات الانسانية الكبيرة المميزة التي عايشناها في محنتنا في المنفى، فان كفالة 6 اشخاص لم يكن امراً يسيراً ولكن العاطفة الانسانية التي كانت تمتلكها خالتي كانت فريدة من نوعها.

بعد مرور ايام قلائل، ذهبت مع والديّ وأحدى اخواتي لزيارة خالتي وشكرها على موقفها الكبير ولتفقد أوضاع عماتي. لقد فوجئت ان صحة عماتي السبايا لم تكن على ما يرام وبدأ الضعف والوهن والنحول واضحاً على وجوههن ومحياهن اكثر مما شاهدته عند زيارتي لهن في مخيم اصفهان. وعند اللقاء كان البكاء هو الغالب في تلك المواقف اذ يشعر الانسان منا نفسه ضائعاً يتوكأ على اي سند يلاقيه كي لا يسقط، وهيهات ان يكون البديل عوضاً عن البيت والوطن، مهما كان البديل طيباً ومحباً.

كانت عمتي الكبيرة «ام جواد»، حزينة ويائسة لفقدانها أولادها وبيتها، كان البكر من اولادها يعيش في العراق ولم يعلم حينها بتهجير والدته واخته، الاصغر منه كان قد اختار المنفى للتخلص من ملاحقات السلطة الدائمة له لكونه يسارياً، واما الثالث فضاع في دنيا الله وفي الهرب من وجه الدولة البغيضة، واما اصغر ابنائها واسمه «نضال» وكان قريب جداً لأعمارنا وصديقنا، وكان بالأخص صديق اخي حامد فقد ترعرعا معاً منذ الطفولة وكانا متلازمين ويشتركان في كل شيء، كان نضال وحامد قد درسا في نفس المدارس وحتى انهما دخلا الجامعة المستنصرية لكن في فروع مختلفة. في بداية عام 1980 كانت ملاحقة ابن عمتي نضال من قبل الاتحاد الوطني

وأمن المنطقة رهيبة ومخيفة لشاب في بداية العشرين من عمره، لذلك لم يكن يأتي الى البيت لزيارة والدته التي حُرق قلبها مثل باقي الامهات العراقيات اللواتي فقدن أولادهن بسبب بشاعة ما يحدث لهم، وخوفهم من عواقب ما سيحدث لو اعتقلتهم السلطة الحاكمة. كان نضال يتنقل بين الأقارب والاصدقاء للاختفاء والعمل بعيداً عن أخطار ملاحقة النظام له، وآخر مرة التقيت به كانت قبل التهجير بشهر وحدثني قليلاً عما يمر به من عذابات في تلك الفترة. لقد اختار ابن عمتي الشاب طريق النضال السلمي بنشره التوعية بين الجماهير ضد ما يجري من إرهاب في البلد، واضعاً ايمانه وشبابه وامله في خدمة الوطن ومن اجل تغير النظام وبناء مستقبل مضيء للأجيال.

حين هُجرت عماتي من بيوتهن، لم يعلم نضال بذلك لأنه كان مشردا بين البيوت، بعد ذلك سمع خبر تهجير عوائلنا من الاقارب وكانت صدمة قوية لفقدانه عائلته، وها هي عمتي تبكي اولادها خوفاً عليهم من ضربة الظلم، وتبكي كبرتها التي اصبحت في النهاية عالة على الاخرين، وهي في امس الحاجة الى اولادها فكان منظرها محزن وكنت احاول ان أمدها بأمل خيالي لا مستقبل له. اما عائلة بيت عمي صادق فبقوا في المخيم وبؤسه لعدم وجود من يتكفلهم من جحيم حياة الخيام، لذا كان واقعاً حزيناً بائسا للجميع حتى الذين يعيشون في داخل الوطن الحبيب.

كنت أرى الخجل في وجوه عماتي في بيت ابنة خالهم، بالرغم من ان خالتي كانت كريمة ومحبة. رأيت حاجياتهم قد وضعت في احدى غرف البيت الصغير، وكانوا شاكرين لتكفلهم من قبل خالتي لان وضع المخيم لهن وللأطفال وابنة عمتي الحامل سيئ جداً لان صحتها لم تكن على ما يرام. قضيت ذلك اليوم في بيت خالتي ومع عماتي وكان حديثهم لما جرى لهم وحال باقي العوائل المشردة يزيد الروح هماً وحزناً. وبعد الغروب رجعنا الى بيتنا في بيت خالي مكي وقد هدنا التعب والمرارة. لقد مكثت عائلة عمتي لمدة شهرين او اكثر في بيت خالتي وقمت بزيارتهم عدة مرات لوحدي او مع العائلة. كان والدي الذي قام بزيارة أخواته عدة مرات مع الوالدة، شاكراً خالتي على موقفها الانساني النبيل، ولكن احساسه بالعجز كان يؤذيه جداً لأننا مهما يكن فقد سُلب منا كل شيء ومن ضمنها الحرية الشخصية

والاستقلال. زارونا عماتي بعد أكثر من اسبوعين في بيت خالي مكي مرتين، وكنا نتبادل أحزاننا المشتركة. في احد الأيام قامت ابنة خالي الحاج رسول المتزوجة واسمها حجية مريم وزوجها بزيارة عماتي مع زوجها الحاج مهدي في بيت خالتي معصومة، وكانوا ميسوري الحال وكلاهما له الروح الانسانية والمساعدة. لقد تأثروا جداً للواقع الذي يعشنه عماتي وما مررن به من عذاب فصعب عليهم حالة التشرد التي يمرون بها. وبعد ايام جاءت ابنة خالي وزوجها للزيارة ثانية وعرضوا على عماتي عرضاً انسانياً سخياً. كان لعائلة بنت خالي بيتاً ملك في مدينة «قم» يسكنوه فقط في مناسبات الزيارة، واما باقي ايام السنة كان البيت خالياً. فكان عرضهم السخي باسكان العائلة المشردة(عماتي) في بيتهم في مدينة قم. وفعلاً انتقلت عماتي وعائلة بنت عمتي بعد ايام الى هناك وسكنوا في البيت الذي كان يحوي على اغلب الاثاث، وفيه مطبخ ومعظم ما يحتاجونه من ادوات منزلية. كانت عماتي وعائلتي شاكرين لتلك الالتفاتة الانسانية التي اعطتهن بعض الاستقرار والحرية الشخصية. اما المعيشة فقد تكلفت بها عائلة بنت خالي وخصصوا لهم مبلغاً شهرياً كانوا يقتاتون منه.

جميعنا كنا شاكرين لهذا المد الانساني لعائلة قد سُلب منها كل شيء ومنها بيت عمتي المسلوب الذي دفعت عمتي ثمنه من الشقاء والتعب.

لاحقا زرنا عماتي في بيتهن الجديد في مدينة قم (مدينة قم تقع جنوب العاصمة طهران). وكانت من المدن الدينية لوجود مرقد السيدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى الكاظم عليها السلام، وهي مدينة حولها كثير من البساتين وكثير من سكانها يتكلمون اللغة العربية، وكذلك يسكن فيها كثير من المهجرين العراقيين، وبهذا كانت مشكلة اللغة اقل لعماتي. وبحسب ذاكرتي فكانت مدينة قم، تشبه مدينة النجف الاشرف.

وجدنا البيت بعد ان سألنا عن العنوان وكان في احد الازقة. دخلنا البيت وهو بيت جميل على الطراز الشرقي، فيه ثلاث غرف ومطبخ وباحة جميلة فيها نافورة وحوض وسط الدار، كان البيت يقع قريب من مرقد السيدة المعصومة، وكانت عماتي مرتاحات ومستقرات من ناحية السكن ولكن عذاب فراق الاحبة من الاولاد والاهل

والخوف عليهم مما يمارسه النظام، وكذلك الخوف من المستقبل ومن سيتكفل معيشتهن، ظل يشغلهن ويقلقهن. وخلال زيارتنا تلك، ذهبنا الى المرقد وشاهدت كثيراً من النسوة العراقيات الباكيات على أولادهن. بادر زوج ابنة عمتي بالبحث عن عمل وهو انسان بسيط لا يملك شهادة عالية ولكنه سعى لإيجاد اي عمل، لذا وبعد مدة وبمساعدة بعض الناس، عثر على عمل بسيط وهو عمل الدفاتر للكتابة، وبهذا كان يساعد بيوميته البسيطة عائلته بالمصاريف، وهذا اثبات على ان إرادة الإنسان قادرة، بل ومبدعة، رغم القهر والمعاناة على صنع والحياة. كذلك فالمحنة تقرّب البشر لبعضهم وتفتح قنوات التواصل الإنساني رغم تغير البيئة واختلاف اللغة.

وبهذا اصبحت مدينة قم، مكان استقرار لعماتي في المنفى.

34

الشعوب المسالمة و.. طبول الحرب

الحياة في بيت خالي مكي اعطتنا هـدوءا بسيطاً رغم الانكسار الروحي المستمر، فأفراد العائلة الآن بدأوا وبصعوبة ممارسة عمل ما، كي نعتمد على أنفسنا في إدارة امورها. لكن ظلت بعض الامور الحياتية في البيت شاقة ومنها الاستحمام، والدي والاخوة كانوا يذهبون الى الحمامات العامة والباقي من اسرتي كنا نستحم في بيت خالي، والحمام كما ذكرت كان في الطابق الارضي كان موقعه في باحة الدار بعد ان يدعونا بيت خالي للاستحمام وكنا نخجل كثيراً واحياناً كنا نغتسل بالماء البارد في احدى الغرفتين كي لا نكون ثقيلين رغم محبة بيت خالي وكرمهم. الحياة كانت تمضي بشكل أو باخر رغم المتاعب، وثمة ارتياح كبير بين الأسرة بتجمع شتاتها.

الأخبار التي كنا نسمعها وتردنا من بعض المهجرين العراقيين في الأسابيع الاخيرة، كانت غير مطمئنة لان المناوشات والاشتباكات الحدودية بين المدن العراقية والايرانية مستمرة، وكذلك كما سمعنا ان هناك زحفا عسكريا كان يزداد اتساعاً، وليس هناك بوادر دولية للصلح او ان يتوصل البلدان الى اتفاق سلمي يضمن حلاً للنزاع القائم. كانت مشاعرنا نحن العراقيين المهجرين تجاه الحرب التي لربما ستندلع، محيرة، وكان الاضطراب يملانا، لان من جانب العراق هو بلدنا واهلنا بل هو كل ذكرياتنا رغم وجود الحكم الدكتاتوري الذي يزيد في ظلمه وغطرسته، كنا لا نرغب بل نرفض ان يكون بلدنا والبلد الجار ساحة حرب ودمار، في الجانب الاخر كانت ايران هي البلد الذي احتضننا وحمانا من الموت والضياع بعد تهجيرنا الظالم من ديارنا، لذلك كنا ندعوا الله بان تسلم شعوبنا من حرب يهلك بها الشباب الذي

كان من الافضل توجيه طاقته للبناء من اجل حياة ومستقبل افضل وازدهار للبلد. الحكومة الايرانية بدأت بتهيئة شعبها نفسياً واقتصادياً وبدأت حينذاك بنشر التعليمات والارشادات للتعامل في حالة نشوب الحرب ومن ضمن التعليمات، كانت كيفية التعامل في حالة سماع «صفارة الإنذار»، وذلك بإطفاء المصابيح، وإيقاف السير والخ من تعليمات للسلامة العامة وكذلك نظام الحصة التموينية والتي تدعى «الكوبون» لبيع بعض المواد الغذائية. كل عائلة كانت تستلم بطاقة التموين حسب عدد افرادها، وهنا جاء دور الكارت الاخضر الذي اعطونا اياه كوثيقة اثبات شخصية. مما رأيته وخبرته ان الشعب الايراني كان يتضامن مع حكومته في تلك الفترة ولم يكن هناك تزاحم على شراء السلع او خوف من نفاذ اي شيء، لان كل شيء متوفر وحماسة الناس بالدفاع عن بلدها كبيرة ومؤثرة.

ان العيش في ظل السلام هو ما يتمناه كل انسان مسالم، لان الحرب وكما هو معروف على مدى العصور هي اهدار للأرواح ودمار شنيع للإنسانية والحضارة لما لها من عواقب وخيمة ومنها الخسائر الفادحة في الارواح بالإضافة الى الانهيار النفسي والسياسي والاقتصادي والبيئي، والكثير من العواقب التي قد يطيل شرحها. كم من حرب طاحنة مرت في تاريخ البشرية تاركة خلفها الدمار. وحسب تفكيري ان في الحروب لا توجد هناك انتصارات كبيرة، بل كانت الخسائر أكبر وللأسف فان الإنسان لا يتعلم من تجاربه السابقة بان الحروب هي آفة الدمار الكبرى.

لقد قرأت في بعض الكتب عن الحروب التي نشبت على مدى التاريخ والتي تستعر لأسباب عدة اما اقتصادية، استيطانية، عقائدية او رغبة في اشغال الشعب عن التمرد. لم تكن لي وحتى لعائلتي تجربتنا الخاصة عن الحرب وماهيتها لأننا كنا نعيش في سلام ومحبة كما اننا عايشنا ثورات بذاكرتنا وهي تختلف كل الاختلاف عن الحرب وسعة آفاقها في الدمار. كنا قد قرأنا عن حروب كثيرة ذُكرت في التاريخ وما سببته من دمار كبير. ومن الحروب الحديثة التي عاصرناها بشكل غير مباشر هي حرب تحرير فلسطين وكانت نتيجتها تشرد لأشقائنا الفلسطينيين ودمار كبير لكل من عايشها بشكل مباشر، هذه الحرب «حرب التحرير» سمعنا عنها الكثير من جدي وأبي وأعمامي وعاصرها جيلنا اي ان اجيال متتالية شاركت في تلك الحرب، وللأسف

لم يحصل الشعب الفلسطيني على حقه في العيش بسلام ولم يتم التحرير بل ان اثار الحروب والخراب لا زالت واضحة جداً.

ان الحرب بين العراق وايران قد باتت حقيقة لا تخفى لمن كان يتابع الأخبار. في بداية الاسبوع الثالث من شهر أيلول/ سبتمبر كانت هناك خطوات سريعة نحو الحرب ومنها تمزيق المعاهدة التي ابرمت بين العراق وايران في زمن الشاه السابق، وكان توقيعها لإخماد الثورة الكردية مقابل تنازل العراق عن جزء من اراضيه، وبنظري الشخصي هي جريمة بحق الشعب. كان هناك معاهدات سرية لا نعرف عنها شيئاً. (طبعاً كانت هناك معاهدات تبرم بين القوى السياسية للوصول الى غاية معينة، وغالباً محتوى تلك الاتفاقيات واسبابها تكون غير معروفة وغير مطروحة على الشعب، ولكن في حالة نقض المعاهدة من احد الأطراف كانت الشعوب هي التي تدفع الثمن).

في صباح يوم 22(يوم الاثنين) من الشهر التاسع، أخبرنا ابن خالي ان الحرب قد اعُلنت وان الجيوش العراقية قد توغلت عمقاً في الأراضي الايرانية، وان ايران الان في حالة حرب. كان ذلك الخبر صدمة قوية لنا لأننا لا زلنا نعيش في حلم السلام. في ذلك اليوم المشؤوم قُتلت أحلامنا بالسلام وبالعودة الى وطننا الحبيب والأدهى من ذلك كانت مشاعرنا مزدوجة: مع من سنكون؟ كنا نرفض الحرب تماما، وكما ذكرت، كنا محتارين ففي الجانب العراقي هناك اهلنا ووطنا الذي نحبه، وفي الطرف الاخر كان البلد الذي حمانا من اعتداء بربري علينا من قبل الدولة العراقية. لذلك كانت مشاعرنا ضد الحرب أقوى لان ضحاياها هم من اناسنا البسطاء في البلدين.

في ذلك اليوم ذهبنا الى أعمالناً وخيبة الأمل والشقاء والاضطراب كان يرافقنا. ذهبت الى عملي وكنت متعبة ومهدورة القوى، كنت اتخيل ما سيحدث لأحبتي واصدقائي في بلدي، كم من الايتام وكم من ام ثكلى والعوائل التي ستحطم في البلدين ناهيك عن تحطم البنية التحتية. هذا التفكير كان يشغلني ويؤلمني، رغم ان زملائي في الباص كانوا يتحدثون عن الحرب القائمة وتحليلهم لما يحدث، ولكني كنت منعزلة في عالمي الخاص الحزين. طبعاً كانت هناك اسئلة من قبل زملائي

الايرانيين عن مشاعري عن الحرب وفي اي جانب اقف؟ فكان ردي على ذلك السؤال صريح وواضح لانه يمثل موقفي اتجاه اي حرب مهما كانت واينما كانت، «نعم انا بالتأكيد ضد النظام القائم في العراق والانتهاكات الانسانية التي تمارس ضد ابناء شعبنا ولأبعاده فئة من الشعب، ولكني ارفض الحرب لان شعوبنا هي التي ستدفع الثمن واما الحكام فسوف لا يمسهم من الحرب أي اذى.

بعد ان رجعت من عملي كنت متعبة من التفكير وحزينة، كانت امسيتنا لذلك اليوم يطغي عليها شعور اللوعة والتأهب لحدوث الكارثة. أتذكر اننا كنا نجلس مع ابن خالي وعائلته في الصالة نتابع اخبار البلدين على التلفاز. وكان ابن خالي يترجم لنا بعض ما يحدث مراعياً مشاعرنا. كنا ننتظر رجوع أخوتي من العمل وكان ابن خالي وعائلته يجلسون معنا في الصالة حين بدأ صوت صافرة الانذار في طهران تأهباً لحدوث هجوم الطائرات العراقية على طهران. بعد سماعنا لصافرة الانذار كان الاحساس الحقيقي لحدوث الحرب لأول مرة واقعاً نشهده، اطفئت الأضواء في المدينة الكبيرة ومن ضمنها بيتنا، وساد الظلام في كل مكان، وبعد مرور دقائق بدأت اصوات دوي مضادات الطائرات المفزع وكأنها دوي قنابل اهتزت لها جدران البيت وافزعت الاطفال بشكل مرعب. خالي بدأ بحثّنا على النزول الى بيتهم كي نكون في أمان اكثر، وفعلاً نزل الجميع الى الطابق الارضي وكانت والدتي آخر النازلين فسقطت من السلالم الاخيرة وجرحت ساقيها. دخلنا في صالة الجلوس وكلنا خائف مما يحدث وبكيت حينها من الظلم رافعة عيني صوب الخالق راجية منه اللطف بما يحدث.

استمرت دوي مضادات الطائرات المفزع، ولا اعرف كم من الوقت قد مضى علينا ونحن في حالة خوف، بعد مضي حوالي نصف ساعة قلّت اصوات مضادات الطائرات المخيفة، وبعد دقائق عاد صوت صافرة الانذار معلناً بانتهاء الغارة الجوية وبهذا الاعلان، عادت اضواء البيت ثانية وفتح خالي التلفاز لسماع الاخبار وعن نتائج الغارة الجوية، وحسب ما اتذكر اعلن التلفزيون الايراني ان الطائرات العراقية قد هدمت مواقع خارج طهران وان الخسائر كانت بسيطة.

وهذه كانت اول مرة نشعر ونعيش الحرب بدقائقها المخيفة عن كثب في المنفى.

التهجير و.... بذور الطائفية

بغداد عاصمة العراق، هي المجد والحضارة والف ليلة وليلة ودار السلام، في كتب التاريخ كان لبغداد الصدارة كمركز للعلم والادب والعمران، وموقعها الجغرافي المهم جعلها من المدن المهمة في التجارة. كتب التاريخ تروي لنا عن فترات ازدهار وانتعاش لتلك المدينة الساحرة بشطآنها ونخيلها واساطيرها الممتعة، وعق تاريخها الحضاري الممتد وكرم ساكنيها. ويروي لنا التاريخ ايضاً عن حقب مظلمة مرت على بغداد نتيجة غزو بربري او فيضان او مرض تركت اثار الدمار عليها وجعلت منها خرائب. ولكن بغداد تولد دائماً من جديد لتكون السحر والحلم والحياة. لقد كتب كثيراً من الشعراء عن سحر وبهاء تلك المدينة العريقة، اذ كُتبت فيها قصائد العشق والحنين.

كنت من المحظوظين لأنني ولدت وترعرعت في بغداد وشربت من ماء دجلة والفرات. وهكذا كانت ولا زالت بغداد لي الوطن والطفولة وجمال الكون كله.

البعد عن بغداد وما فيها من احبة نفتقدهم، والشوق والحنين الذي يزداد ويتعمق يوما بعد يوم، يجعل منها كوكباً لامعاً بعيد المنال، بالرغم من ادراكنا ان العيش فيها كان صعبا جداً، مع عصابات الاستخبارات التي لم ولن تترك احداً يعيش في أمان، وملاحقاتهم الدائمة وزرعهم الخوف والفتنة بين الناس. أصبح الخوف والشك، تحت ظل النظام المستبد، يستفحل بمجتمعنا البسيط وهنا كانت ظواهره حيث الجار يخاف من جاره، والاخ من أخيه. الأمان والمحبة التي رافقتنا منذ طفولتنا قد بدأت ذئاب السلطة بقتلها يوم بعد يوم، ويحل محلها الشك في كل من حولك. التهجير

والحرب واضافة الى ما يقوم به أزلام النظام من قتل وتعذيب لأبناء شعبي جعلتني أسترجع محطات حياتي في بغداد وابرز احداثها، محاولة في ان اجد سببا لما يحدث من ظاهرة التهجير الى نشوب الحرب المدمرة.

ولدت في بغداد ضمن عائلة متكونة من تسعة أولاد، وكان ترتيبي الرابع بين أخوتي وأخواتي. الحياة كانت حينذاك بسيطة من كل النواحي. اتذكر في طفولتي كنت ألعب مع اقراني في شوارع مدينتي المشمسة الجميلة، ألعابنا الطفولية البريئة، وعندما كبرنا اصبحنا اصدقاء واخوة غير آبهين لاختلافات تربوية لغوية او عرقية، لأننا في المراحل المتقدمة ايضاً لم نكن نعيرها الاهتمام. كان جيلنا والأجيال التي سبقتنا عُجنت بماء الحب والتفاهم والانسانية، اكملت دراستي للمرحلة الابتدائية في مدينة الحرية، وكانت المدارس حينها غير مختلطة حتى دخول الجامعة. كان هناك عمق إنساني جميل للعلاقات الاجتماعية بين الأهل والجيران، لذا كان جيلنا مليء بالمحبة والوعي والتفاني الانساني، وكان الوطن ومنذ حداثة عمرنا هو الزاد والهواء الذي كنا نتنفسه، وكان الوطن هو يومياتنا التي نعيشها، منذ طفولتي عاصرت أحداثا مختلفة تركت تأثيراً خاصا في شخصيتي التي لها ميلاً انسانياً بحتاً.

بعد انهائي للمرحلة الابتدائية اكملت دراستي للمرحلة المتوسطة في مدرسة ضمن مدينة الحرية ذاتها، وبعد ذلك انتقلت الى المرحلة الاعدادية واختيار عائلتي كان الفرع العلمي (على النقيض من رغبتي في دخول الفرع الادبي) والذي درسته واكملته في مدرسة اعدادية البنات في مدينة الكاظمية. درسنا انا واخواتي في نفس المدرسة، وكنا في مراحل مختلفة. كان علي ركوب الباص الذي يوصلني لمدرستي كل صباح، وكانت المدرسة تبعد حوالي أقل من نصف ساعة عن بيتنا بالباص. في تلك المرحلة الدراسية زادت معرفتي واطلاعي على المجتمع في كثيراً من النواحي نتيجة تقدمي في السن والوعي وكذلك نتيجة الاختلاط بشرائح اخرى من المجتمع. بعد انتهاء المرحلة الاعدادية كان عليّ اختيار الجامعة التي سأكمل دراستي فيها وستكون اول درجات السلم لبناء المستقبل. طبعاً كان معدل الدرجات حينذاك له تأثير كبير في القبول الجامعي ويؤثر احيانا على اختيار الطالب نفسه. في نهاية المطاف حصلت على مقعد دراسي في كلية الطب البيطري جامعة بغداد. كانت

كلية الطب البيطري بعيدة نسبيا، لذا كان باص الجامعة يقلني وزملائي كل صباح من مناطق محددة، وكان صوت فيروز يرافقنا تلك الرحلة الجميلة ويزيد من طاقتنا الشبابية، وبعد انتهاء الدوام نتجمع في ساحة الكلية ثانية كي نرجع بنفس الباص الى بيوتنا. كانت المرحلة الجامعية نقلة جديدة وجميلة في حياتي. الدراسة في الجامعة كانت مختلطة والعلاقات بين الزملاء كان يسودها الاحترام والمحبة.

واتذكر ان مدينتي بغداد عاشت وعشنا معها، فترة مميزة منذ بداية السبعينيات والى قرابة نهايتها، واغلبنا كان يطلق عليه العصر الذهبي. في تلك الفترة كان احمد حسن البكر رئيساً للجمهورية العراقية وخلال مدة رئاسته كانت هناك نهضة كبيرة في مجالات عدة اتذكر منها، منح الحكم الذاتي للأكراد، تأميم شركات النفط، التعليم الالزامي، قانون محو الامية وقانون الاصلاح الزراعي وغيرها من الانجازات الايجابية التي فرح كافة الشعب بها. في تلك الفترة تم تشكيل الجبهة الوطنية بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي وقوى وطنية اخرى ساهمت بشكل مباشر بتلك الجبهة. ان تلك المنجزات التي ساهمت بتحقيقها القوى الوطنية بصورة مباشرة لأنها كانت تمثل معظم فئات الشعب، اذ جعلت من العراق بلداً مستقراً بانفتاح ثقافي واجتماعي. كان هناك انتعاش حضاري واقتصادي وعمراني ملحوظ. اتذكر عند دخولي الى الجامعة واختلاطي بزملائي كنت ارى تلك الانعكاسات الايجابية بشكل اوضح ومنها تعدد الصحف اليومية، انتشار الكتب الادبية والثقافية، كذلك افتتاح دور السينما والمسرح التي كانت ذات عروض ثقافية مميزة، وكان التلفزيون والراديو العراقي حينها يبث برامج ثقافية وعلمية وترفيهية، ازدياد حرية الفرد وارتفاع مستوى المعيشة.

كانت بغداد تعج بالسواح الاجانب، وكذلك تم فتح ملحقات ثقافية مشاركة مع دول لها صداها مثل روسيا (الاتحاد السوفياتي) والمانيا، ازدهار معرض بغداد الدولي الذي كان يستقطب زوار من بلاد العالم. وقد اهتمت امانة العاصمة حينذاك بالبناء والتشجير. وكان دخل العائلة العراقية في تزايد ومن هنا انتعشت التجارة والسياحة الى الخارج. ولحسن حظي عايشت تلك الفترة الجميلة التي تركت بصمتها المميزة على ذاكرتي. لو استمرت تلك النهضة الجميلة (التي كانت في

بداياتها) باشراك جميع فئات الشعب في مقاليد الحكم وعُمقت الديمقراطية السليمة في السياسة لكان عراقنا من اقوى الدول واكثرها استقرارا. ولكن هيهات اذ قُتل حلم العراقيين بان يكونوا شعباً حراً متآخيا ومتقدما اسوة بباقي الشعوب، فالحكم صار متفردا بقيادة حزب واحد ثم ضمن نهج عشائري ودكتاتوري إرهابي.

حينذاك كان من الملاحظ ان مقاليد الحكم كانت بيد الدولة التي يرأسها حزب البعث فقط. في السنة الاولى لدخولي لكلية الطب البيطري عام 1974 كان طلاب الاتحاد الوطني لطلبة العراق (وهو احد مؤسسات حزب البعث) يقوم بمحاولة كسب الطلاب الجدد بشتى الطرق. كانت طريقة كسب الطلبة في تلك المرحلة للدخول في صفوف الاتحاد الوطني، وحسب تجربتي الشخصية لم تزل اختيارية ولكن كان فيها الحاح بشكل مزعج وفج. كان الطلاب المنتمون الى الاتحاد الوطني لهم امتيازات خاصة اعلى من باقي الطلبة، وانتماؤهم للاتحاد الوطني يعطيهم الحق بممارسة السلطة ومنها ملاحقة بعضهم الطلاب المعارضين والمستقلين، كان أغلبهم متغطرسين في تصرفاتهم وتعاملهم مع باقي الطلبة، وكانت تصرفاتهم تشعرنا بفراغهم الفكري وانتهازيتهم التي كنا ندفع ثمنها. طبعاً بعد مرور سنتين او اكثر على وجودي بالجامعة كانت هناك بوادر ملحوظة لملاحقة الطلبة الشيوعيين، الاسلاميين، الاكراد والمستقلين، والنتيجة كانت وخيمة اذ بدأ الجو الطلابي الديمقراطي يضمحل ليحل محله الخوف والملاحقة بطريقة غير انسانية.

لم اكن اغضب او احقد على زملائي البعثية، لانهم ابناء وطني المغرر بهم، على العكس كنت اشفق عليهم لضياعهم الانساني وكانوا يعرفون ذلك جيداً، لان تعاملي مع زملائي كان انسانياً ولم تكن لي مواقف سيئة معهم رغم تجاوز بعضهم الحدود الفكرية والزمالة، واتذكر مرة اني هددت بالضرب من قبل احد زملائي المنتسبين للاتحاد الوطني في جلسة استجوابية عن سبب رفضي للانتماء، وكانت جلسة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية، حينها شكرت زميلي على اخلاقه وديمقراطيته كرد فعل على ما بدر منه، فخجل حينها من نفسه واعتذر لي عن موقفه، وهنا اشعرتني تلك الحادثة بتغير اخلاقي سلبي لمجتمعنا التي اصبحت تلك الممارسات فيه دخيلة، وسيكون لها دور في تحطم كل بناء اخلاقي ورثناه من الاقدمين.

في نهاية السبعينات وبعد فشل المحاولات في استمرار الجبهة الوطنية التي كانت تعاني من هيمنة النظام ومحاولة انهاء اية مشاركة للأحزاب الاخرى، والهيمنة على الحكم من قبل حزب البعث، كنا حيال فشل سياسي وفكري ادى الى ملاحقة واعتقال وقتل عناصر الاحزاب التي كانت حليفة يوما ما. كم تمنيت حينها ان تنبثق انتفاضة سلمية او مسيرة سلمية تقودها القوى المعارضة بكل احزابها وبمساندة الشعب، لان في تلك الفترة وحسب ذاكرتي لا زالت للمعارضة شعبية واسعة داعمة، لربما كان لتلك الحركة الشعبية السلمية شأن كبير من اجل رفع صوت الحق والحد من المأساة التي اصبح المواطن العراقي اكبر ضحاياها. لو حدث ذلك لربما غيّر من دفة التاريخ الى اتجاه اخر ولربما غيرت الحكومة نهجها لإرضاء الشعب، ولكن الذي حدث هو العكس اذ تم اخلاء الساحة كاملاً امام الحكومة الجائرة في ان تحكم قبضتها بشدة وبالكامل على الشعب، والنتيجة اصبح المعارضين وقوداً لاستمرارية النظام. كنت اسال نفسي هل تورطت المعارضة بتشكيل الجبهة؟ ام ان هناك اسباب تكتيكية ادت الى ذلك؟ لعدم ضلوعي بالسياسة، تركت تلك الاسئلة واجوبتها للتاريخ. اتذكر كنا كثيراُ ما نستعمل مصطلحات لربما كنا نفهمها ولا نفهمها مثل مصطلح الاستعمار، ولو كان لدينا الوعي الكافي حينها، لعرفنا اننا كُنا مستعمرين من داخل انفسنا وعبر الخوف وعدم الثقة. طبعاً في سردي هذا، أوجّه ما كنت أحس به للطبقة المثقفة التي كانت هي احدى ركائز الأمة واملها في التغيير.

اتذكر، بالإضافة الى تصفيات المعارضين، كانت ايضاً ناك تصفيات داخل الحزب الحاكم نفسه وهذا ما اتذكره جيداً اذ تم اعدام من هو معارض لسياسة ونهج الحكومة الاستبدادية من اعضاء حزب البعث، وعرضت في خريف 1979 مسرحية قرار اعدام هؤلاء المعارضين ووصفهم بالخونة داخل الحزب الحاكم مما ادى الى خلق حالة رعب مخيفة للجميع، وحتى لمن كان مع الحزب الحاكم، وهذا بالنسبة لي دليل قاطع على الخوف وانعدام الثقة في داخل صفوف السلطة الدموية، وان هناك معارضة دال حزب البعث لما يجري في البلد نتيجة انحراف السلطة الى مسار همجي دكتاتوري دموي. وبهذا تحول الحكم بيد فئة ليس لها أيديولوجية سوى الهيمنة على الموارد المهمة وخنق الشعب وقتل ابنائه، واصبح

حكمهم في وضع يشابه شبكة اجرامية قوتها السلاح وفريستها الشعب. وقد استغلت طبقة الانتهازيين الذين لا يردعهم اي رادع في نشر الرعب بين الناس، وطبعا فالانتهازي من صفاته، القدرة على التملق، وهو قادر على نزع جلده الى جلد اخر في حالة التغير في دفة الحكم، ومن طرف اخر كان هناك مساندات من خارج البلد لتقوية النظام ولأسباب معروفة لا اريد الخوض بها. لو رجعنا الى شريحة المجتمع العراقي في تلك الفترة كانت العائلة العراقية تمر باضطراب كبير لوجود قوى سياسية مختلفة في نفس العائلة. ان سياسة الترغيب والترهيب وكذلك التبعيث التي اتبعتها الدولة كانت نتائجها انعدام الثقة بين الناس وفقدان حرية الاختيار، لذلك تم محو شخصية الفرد العراقي كانسان حر له كرامة.

اتذكر تلك الفترة الرهيبة في حياتي، اذ بدأت في السنوات الاخيرة لدراستي الجامعية ملاحقتي الدائمة والشرسة من اجل الانتماء الى حزب البعث التي كانت تؤذي نفسيتي وكياني لأني انسانة حرة، اذ لم تكن لي روابط سياسية مع احزاب معينة، كنت اكره ارغامي على شيء ليست لدي القناعة فيه او لا اريده، لأنه لا يتوافق مع تفكيري، لذلك مرت تلك الفترة من دراستي بشكل متعب بل ومخيف. بدأ الخوف والشك وعدم الثقة يأخذ طريقه في العوائل العراقية التي اصبحت تعاني الويلات، وكانت الحياة كابوسا مريرا للعراقيين الذين ليس لديهم القدرة على مواجهة الاعتداءات الشرسة من قبل النظام على افرادها.

ان إستراتيجية «تبعيث» الشعب بأساليب غير انسانية وملاحقة الغير منتمين، ادت الى ان الكثير من الناس كان ينتمون الى حزب البعث اكراهاً، نتيجة الخوف من العواقب او للتخلص من الملاحقة وعواقبها الوخيمة على عوائلهم. كي اكون منصفة في ذكرياتي وسردي لا اريد ان ارفع اصابع الاتهام لكل من كان بعثياً، لان بعضهم كان منتميا بالاسم فقط للأسباب التي ذكرتها، او كان منتمياً سابقاً ولكن خمد صوته في حركة التغيير خوفاً من الاعتقال والاعـدام الذي كان من اسهل الأحكام. اتذكر كان لي زملاء من المنتمين ولكنهم كانوا يحاولون مساعدتي من الملاحقات الشرسة. كما ذكرت سابقاً كانت السجون مليئة بالسياسيين المعارضين بل وحتى المستقلين، وكانت هناك اعدامات واختطافات كانت تجعل المجتمع في

حالة رهبة دائمة، وهنا اتذكر جارتنا التي كان زوجها في غياهب السجن لأنه شيوعياً كانت تكمل ما يردده البعثية «صدام الورد سوانة بعثية»، بقولها «لطمن زين نسوان الشيوعية»، كذلك كان في نهاية شارعنا عائلة متدينة، اعدم اغلب افرادها والباقون تركوا بيتهم الى منطقة اخرى.

ان مخطط تهجير العوائل العراقية والاستحواذ على ممتلكاتهم وهويتهم ورميهم خارج الحدود هي اكبر دليل على بشاعة الجرائم اللاإنسانية للنظام الحاكم. ان مخطط تهجير العوائل العراقية كان، حسب ما توصلت اليه من قناعة، ذا خطورة مستقبلية كبيرة، لأنه كان اول بذور الطائفية والعنصرية التي نثرها النظام في ارضية المجتمع العراقي المضطرب، الذي كان حينها مشغول بحماية نفسه، وهيأ بصورة غير مباشرة مناخاً مؤاتيا لنمو تلك البذور المسمومة. اما نشوب الحرب فهي الاخرى ستحطم الانسان العراقي وتجعله لقمة سائغة بيد الذئاب، ومن طرف اخر ستكون لهذه الحرب اثار نفسية وزرع للكراهية بين الشعبين. كان هذا التفكير لما سيحدث في المستقبل لوطني، بالإضافة الى خوفي عليه من نشوب حرب أهلية ملؤها الانتقامات لو حدث تغيير في النظام، وتمنيت لو كان لدي عصاً سحرية لأرجعت الزمن البغيض الذي نعيشه الى الوراء الى زمن كان الحب والمساواة اهم ركائزه. كنت احاول ان اخفي تلك الافكار السوداوية التي تغمرني بالكآبة وأحاول ان اجد أملاً بل آمالاً معتمدة على الوعي الجماهيري الذي عمّقه ما جرى من ظلم في بلدي الحبيب، وهكذا أصبح التهجير ليكون أول بذرة من بذور الطائفية في وطني.

أخي الصغير.... وتحمل المسؤولية

بعد مرور عدة اسابيع من سكننا في بيت خالي مكي، انتقل ابن خالي صاحب وعائلته الى بيتهم الجديد، تاركين فراغا كبيراً في حياتنا اليومية، لأننا تعودنا عليهم خصوصاً الوالدة واخي الصغير منصور. الحرب كانت لا زالت مستمرة بتفاصيل مؤلمة وكان خوفنا معها مستمر على عوائلنا وعى شعوبنا في كل مكان. بعد انتقال عائلة ابن خالي صاحب، افتقدنا هنا ايضاً اخبار الوطن لان التلفزيون وابن خالي كانوا مصدراُ جيداَ للأخبار. لذا اشترى أخوتي جهاز راديو مستعملا لكنه من نوع جيد لأنه كان ضرورياً لمتابعة الأخبار. كان والدي يتابع أخبار الحرب بشكل دائم بسماعه لقنوات أجنبية باللغة العربية مثل اذاعة (بي. بي. سي)، وهكذا أصبحت الحرب وتداعياتها من همومنا اليومية، وأصبح الراديو من أهم اثاث البيت قيمة.

تهجير العوائل العراقية كان مستمرا رغم وقوع الحرب، وتحت ظروفها المخيفة التي زادت بدورها من عذاب المهجرين الذين كان عليهم السير في العراء ومن خلفهم يطلق الرصاص، من فوقهم احياناً قنابل الغارات الجوية، من تحتهم على الأرض هناك الألغام (الارض قد زرعت بالألغام لأسباب حربية) التي في أية خطوة لربما تنفجر وتقتل أو تعوق المشرد، وفعلاَ سمعنا قصصا مروعة عن موت أعداد غير معروفة من المهجرين تحت تلك الظروف المخيفة ومنها ظروف الحرب، فضلا عن سوء الظروف الجوية، لذا مات البعض نتيجة الجوع وعدم معرفة الطرق الجبلية الوعرة.

بعد انتقال عائلة ابن خالي الى بيتها الجديد، تحوّلنا الى السكن في الغرف التي

كانت تسكنها عائلة ابن خالي لقربها من المطبخ، اما الغرفتان اللتان كنا نسكنها سابقاً فقد اصبحتا مخزنا وضعنا فيهما الاشياء الاخرى، مثل طشت الغسيل الذي اصبح بديلاً عن الغسالة الكهربائية التي سرقت مع بيتنا وكذلك اشياء اخرى وحقائب الملابس التي لا نحتاجها، وكذلك لنشر الملابس المغسولة، واستعملنا احدى تلك الغرف كحمام، فكنا نجلس في طشت الغسيل ونستعمل المدفأة لتسخين الماء لان الغرفة كانت باردة جداً لسعتها، وكذلك الهواء البارد الذي يمر من الشبابيك، كنا حذرين جداً عندما نستحم كي لا يسقط الماء على الارض، كنا نفرغ ماء الاستحمام بسطل اشتريناه لهذا الغـ ـرض في بالوعة المطبخ، طبعاً في البداية جربنا استعمال المطبخ كحمام، ولكن لم نفلح لان الهواء كان باردا لعدم وجود باب وكذلك كان مكان الطبخ لذا استعملنا الغرفة لغرض الاستحمام، وكانت تلك المعاناة حينها كبيرة. بانتقال ابن خالي ظهرت نواقص في البيت، وكان علينا شراء الضروري منها، واتذكّر ان بنت خالتي زينب الكريمة قد تركت لنا كنتور ذا ثلاثة أبواب لونه اخضر في احدى الغرف، استعملناه حينها كدولاب لحفظ ملابسنا. وبدأنا نشتري بعض الأمور المنزلية التي نحتاجها مثل قدور الطهي والصحون، فاشترى أخوتي زوالي (سجادات) مستعملة لان ارضية الغرفة كان صلدة وباردة، واتذكر ان خالي اسماعيل الطيب اهدانا حينها سماور كهربائي. واشترينا ايضاً ثلاجة قديمة بعد مدة لحفظ بقايا الاطعمة، كذلك صوبة نفطية وبريمز (موقد) نفطي للطبخ، واستعملنا اوراق الجرائد في البداية كبديل للستائر التي اشتريناها بعد ذلك من مرتب اختي التي خيطتها بيدها. طبعاً الشراء كان يتم على مراحل ونشترك به جميعاً، ولكن اخوتي واختي سجواء كانوا يدفعون الجزء الكبير منها وكنا نشترك في مصرف البيت الذي كان نسلمه بيد الوالد الذي اراد العمل وبإلحاح ورفضنا جميعاً ذلك لان صحته لم تكن على ما يرام وكذلك تقدم سنه.

اشتريت من اول مرتب استلمته بطانية من النوع الجيد (طبعاً باقي اخوتي واخواتي اشتروا ايضاً بطانيات لضرورتها لان الجو اصبح بارداً) وكذلك اغطية للفرش،، وصحون بلاستيكية للبيت وكنت سعيدة لأنني أساهم في تأثيث بيتنا الجديد. لذا كنت احاول قدر الامكان ان اقضي جزءا من متطلباتي ومنها الملابس

والأحذية والمناشف، لان ما اتينا به من العراق قد قارب على الاهتراء والجو بدأ يبرد لحلول فصل الخريف.

من المصاعب التي اتذكرها هو الحصول على النفط (الايرانيون يستعملون الغاز بدل النفط). وكان شراء النفط من المهمات العسيرة التي كانت تقوم بها الوالدة (لأننا كنا في العمل). كان مكان بيع النفط في مكان بعيداً نوعا ما عن بيتنا ويباع في أوقات معينة. لذا كانت والدتي تذهب لشرائه وكان عليها بعد شراء النفط في صفيحة معدنية فارغة (تنكة)، صعود درجات السلم المؤدية الى الطابق الثاني وكانت عالية وكثيرة كي تصل الى مطبخها ولم يكن امراً يسيراً حينها. وفي احد الايام رجعت الى البيت مبكراً بسبب توعكي لأجد والدتي تبكي وعباءتها مشبعة بالنفط، فعرفت منها انها سقطت في نهاية السلم والنفط قد انسكب ولا تستطيع الطبخ للعائلة، وكانت امي تبكي بلوعة لفقدان الحياة الكريمة التي اعتدتها. لقد تألمت على والدتي وذهبت وبدون تردد الى بائع النفط واشتريت منه خمسة ليترات وكذلك اشتريت غالون كوعاء بدل الصفيحة كي يحمله دون ان ينسكب، غسلت اختي الصغيرة عباءة والدتي وهي تبكي حزناً على ما نمر به، فقررنا ان تشتري اختي الصغيرة وبمرافقة اخي الصغير النفط كحلاً مؤقتاً لإراحة الوالدة.

في الشهر الثاني من مباشرتي العمل، ذهبت الى السوق واشتريت من مرتبي طباخ كهربائي صغير ذي عينين، من معرض قريب عن بيتنا، وحملته رغم ثقله الى البيت كي أفرح والدتي واريحها من الاحتياج الدائم الى النفط. عند وصولي الى البيت وجدت خالي اسماعيل في زيارتنا، وعندما شاهد الطباخ الكهربائي بيدي ابدى امتعاضه، موضحاً ان استهلاك الكهرباء في ايران مكلف كثيرا، وهذا النوع من الطباخات سيستهلك كهرباء بشكل كبير، لذا نصحني باستبداله بطباخ غازي. رافقني خالي اسماعيل الى المتجر وتحدث مع البائع، ارجعنا الطباخ الكهربائي واخذت بديله وكان غازيا له عينان وفرن صغير. ساعدني خالي في حمل الطباخ، رجعنا الى البيت وفرحت والدتي وباقي اخوتي من تخلصها من البريمز النفطي المتعب، واشترى احد اخوتي قنينة غاز واختي سجواء القنينة الاخرى كي تكون احتياطا في حالة فراغ القنينة الاولى. وضعنا الطباخ في المطبخ الصغير على

احجار(طابوق) جاء بها اخي الصغير منصور لهذا الغرض قريب من المغسلة (التي هي عبارة عن حنفية وتحتها حوض ابيض لغسل الصحون)، وبعد ذلك اشترينا منضدة صغيرة مستعملة اصبحت كقاعدة للطباخ. المطبخ الصغير لم يكن يحتوي على دواليب لحفظ معدات الطهي. لذا كان اخي منصور يأتي بصناديق خشبية من سوق الخضرة، وكان اخي يرتبها بشكل جميل كي تكون بديلا عن الدواليب كي تضع والدتي الاشياء الضرورية فيها. هذه الذكريات الصغيرة رغم عذاباتنا فيها كانت تعطينا صورة رائعة للمحبة والتلاحم والاحساس بالمسؤولية التي تعلمناها منذ صغرنا في بلدنا بلد الحب والعذاب.

في العراق لم تكن لنا خبرة بمصاريف البيت لان والدي كان يلبي طلبات البيت بأكملها، لذا كان لتلك التجربة القاسية والمريرة التي علمتنا الاعتماد على انفسنا بتحمل المسؤولية وزادت من اصرارنا على الاستمرار. كنا نذهب الى العمل صباحاً بعد الافطار ونرجع بعد انتهاء العمل لنلتقي بباقي افراد العائلة. كان اخي الصغير منصور يشعر بالضجر في البقاء في البيت، لعدم وجود اصدقاء له وكذلك فقدانه لاصدقائه القدامى، والنتيجة انه بدأ يرفض البقاء في البيت لعدم وجود المدارس ولشعوره الكبير بالمسؤولية اتجاه العائلة كان الحاحه شديدا لإيجاد عمل ما رغم رفضنا لفكرته. بمساعدة خالي مكي وجد اخي منصورعملا قريباً من البيت. كان عمله هو انتاج الاحزمة الرجالية وبأجر زهيد جداً. كان العمل شاقاً جداً لطفل سُرقت منه طفولته. كان صاحب العمل يحث أخي على الانتاج السريع وبطريقة استغلالية، ولم يكن لنا علم بذلك ومنصور كان مندفعاً الى العمل لذلك لم يتحدث عن ظروف عمله البائسة. كان منصور منذ طفولته يحاول تقليد والدي في اشياء كثيرة ومنها طريقة الكلام والمشي وتحمل المسؤولية. والدتي روت لنا ان منصور في الاسبوع الاول من عمله في الاحزمة كان يستلم اجره اليومي الزهيد ويذهب الى سوق الخضار القريب ليشتري الفواكه. وعندما يرجع ويصعد الدرج الى الطابق الثاني محاولاً تقليد والدي بمناداته وقوله «يمة تعالي ساعديني ايدي تعبت»، فتهرع والدتي لمساعدته وكان يتصرف برجولة ادهشت الجميع.

ظروف عمل اخي الصغير كانت قاسية اذ كان يجلس في مكان عمله على الارض

الباردة بدون اي فراش او شيء يحميه من البرد وهذا ادى بعد اقل من اسبوعين الى مرضه الشديد وادخاله المستشفى مصاباً بدزنتري حاد، وضعه كان خطراً حينها لضعف بنيته. مرض منصور اصابنا بالحزن الشديد عليه الذي بدوره زاد من غضبنا على النظام الذي سرق منا كل شيء. القلق على صحة اخي كانت كبيرة، مكثت والدتي معه في المستشفى الى ان تماثل الى الشفاء (دفع اخوتي تكاليف المستشفى) وحمدنا الله على سلامته.

كان اخوتي كما ذكرت سابقا يعملون في سرداب لصناعة الاحذية عمقه متر ونصف وبدخولهم عليهم الانحناء ومبشرة الجلوس على مقعد العمل، وفيه شباك صغير وعملهم الشاق كان يبدأ من الصباح وحتى آخر الليل لا يرون الشمس طيلة النهار، يتنفسون رائحة الجلود والاصباغ وقد اثر ذلك على صحتهم لاحقاً. بعد مرور اكثر من شهر من شفائه زاد الحاحه ثانية فاصطحبه اخوتي معهم للعمل في صناعة الاحذية وكان بذلك تحت رعايتهم وعلموه المهنة وكان منصور ذكي جداً فتعلم المهنة بسرعة، كان والدي يذهب الى مكان العمل كي يُرجع منصور الى البيت في الساعة الرابعة عصراً. الاجور كانت حينها منخفضة ولكنها لوضعنا التشردي كانت جيدة، لذلك حاولنا جميعاً شراء الاشياء البسيطة للبيت ومساعدة الوالد في الصرف على مستلزمات البيت اليومية.

كانت مهام البيت وشؤونه قد وزعت على أفراد العائلة على النحو التالي: والدتي عليها مسؤولية الطبخ وشراء بعض الاشياء الضرورية، والدي مسؤوليته توصيل سجواء من عملها في كرج الى البيت ليلاً وكذلك شراء المواد الغذائية، اختي الصغيرة عليها تنظيف البيت ومساعدة الوالدة، وفي يوم الجمعة كان غسل الملابس وهذا كان من مسؤولية البنات. ليلياً كنا نجتمع على السفرة لتناول وجبة العشاء وخلالها نتحدث بما مر بنا في العمل ونتبادل الاخبار عن الحرب والحديث عن عوائلنا والوطن. اخوتي كانوا رغم تعبهم، كانوا يحاولون خلق جو فيه ولو قليل من الفرحة، وكثيرا ما كنا بعد وجبة العشاء نستعيد ذكريات الاهل والاصدقاء وبين الضحك والبكاء كانت أمسيتنا تنتهي بأمل الرجوع الى الوطن السليب. كانت الحياة تمضي رغم العمل بشكل يختلف عما كنا نعيشه في بيتنا في العراق لانعدام وجود

افاق للمستقبل بالإضافة الى ان فراق الاهل والاصدقاء له تأثير سلبي على انفسنا، اذ انقطعت الاتصالات التلفونية مع اختي في العراق وحل محلها تبادل الرسائل التي لا تشفي غليلنا بمعرفة مسيرة حياتها وكنا قلقنا يزداد عليها وعلى عائلتها من جبروت النظام المجحف ومن عواقب الحرب المدمرة. في كثير من الاوقات كنا لا نصدق ما حدث لنا وكانت كوابيس الذكرى تلاحقنا كي تحل محل الاحلام المستقبلية الجميلة التي كانت في يوم من الايام تطير مرفرفة في اجواء بيتنا، الحلم المسروق من عيون دفعت ثمن ذلك الحلم عذاباً وألما.

اخي الصغير منصور كان ومنذ صغره يحمل روحاً مرحة وقلباً ملؤه الحب والتضحية، ورغم مأساة التهجير ويومياتها الكئيبة كان منصور يدخل الفرحة في قلوب الجميع لسعة صدره، واثبت للجميع بانه رغم صغر سنه، رجل مقدام في تحمل المسؤولية، وبهذا دخل منصور ومواقفه الرجولية ليكون شمعة منيرة في غياهب ظلمات المنفى.

37

والدتي ولغة التعامل في السوق

كانت حياتنا مستمرة وتمر برتابة بين العمل والبيت والذكرى، وكنا نتابع اخبار الحرب البغيضة عن طريق الراديو وعن طريق خالي مكي الذي ينقل لنا ما كان يبثه التلفاز، حيث تصريحات من الطرفين بتحقيق انتصارات لا نعرف مدى صحتها. أخبار بيت عمي ومن معهم في المخيم كانت غير مطمئنة لان مناطق القصف الجوي قد شملت اصفهان ايضاً. وأخبرتنا احدى صديقاتنا التي زارت المخيم بان الوضع فيه خطر ولا يطاق نتيجة البرد والحرب والضياع، وقالت ايضاً عند حدوث هجمة جوية كانت صفارات الإنذار تطلق، وتطفئ أضواء المخيم وحتى الفوانيس ليصبح الجو في المخيم ولساكنيه ذا رهبة قوية، وان الوضع النفسي للمهجرين وخصوصاً الاطفال سيئ بشكل كبير. كنا نشعر بألم كبير لعدم قدرتنا بإخراج بيت عمي من المخيم، فقام أخوتي بزيارتهم ورجعوا وهم متألمون لما شاهدوا من حالة الضياع وعمق المأساة لسكان المخيم.

الحرب وتداعياتها قد شملت مدن وشعب البلدين، وكانت هجمات ارضية وجوية على المدن الايرانية الحدودية مثل مدينة الأهواز والمحمرة وعبادان، وحتماً شملت الحرب ودمارها كذلك المدن الحدودية العراقية. طبعاً كثير من العوائل الايرانية ونتيجة قصفها فروا من تلك المدن، تاركين بيوتهم وحالهم ومالهم محاولة لإنقاذ عوائلهم من الموت، وبدأوا بالنزوح الى مدن اخرى ومنها طهران وسميت تلك المجموعة «جنك زدة»، وتعني متضرري الحرب، وكان على الدولة مساعدة هؤلاء الناس الذين اصبحوا بليلة وضحاها مشردين وهذا كان مؤلما جداً.

الحرب كان لها ايضاً تأثير سلبي على الجانب الأخلاقي للناس، وخصوصاً

الجنود المقاتلين العراقيين الذين كان عليهم الدفاع عن انفسهم، لذلك كانت هناك اخبار عن قتل النساء والاطفال العزل وهناك حالات إنتهاك للأعراض وسطو على الممتلكات، وهي حالة تحدث في الحروب غالباً لان أخلاقية الإنسان في مثل تلك الظروف تتغير الى الوحشية منه الى إنسان طبيعي. الأخبار كانت تنتشر بين المهجرين الخائفين على عوائلهم في العراق، ورغم ظروف الحرب المخيفة، ظل التهجير مستمرا بشكل وحشي، وبعض المهجرين لاقوا حتفهم في مسيرتهم نحو إيران، ولا أحد يعرف عددهم أو مكانهم، لان الحرب تخلق جواً آخر ملؤه الخوف والرهبة.

يوميات الحرب كانت بائسة، ملؤها الدم والتهديم من كل النواحي، كانت هناك غارات جوية على طهران بشكل متقطع وقليل، لكنه اصبح جزءا من حياتنا. كنت افكر كثيراً بسلامة الشعبين من الدمار، وللأسف ليس لدي سوى الحزن والدعاء. ومن المؤلم لم تكن هناك بوادر صلح جدية عربية، إسلامية أو أجنبية، بل كان إحساسي ان هناك بلدانا وتجمعات تساند استمرار الحرب، ومما سمعته وفهمته من الأخبار، كان هناك مد مادي وربما عسكري من دول مختلفة لمساعدة العراق لاستمرار الحرب، وهذا دلالة ان الحرب كانت ذا منافع على بعض الدول، ولكن على حساب هدر الأرواح والممتلكات، وان سوق تجار الحرب مزدهر، فهم مستفيدون من استمرارية الحرب لعقد الصفقات المشبوهة، وهذا بالنسبة لي أمر مشين، يفعله ممن هم غير ابهين بالأرواح والممتلكات.

قبل وقوع الحرب كنت افكر كثيراً بوطني الذي كان جزءاً كبيراً من حياتي وكان خوفي كبيراً عليه. وفي احدى الليالي حلمت في بيت خالي بكابوس مخيف اتذكر تفاصيله لحد يومنا هذا، وهو اني على السطح العالي لبيتنا القديم، كنت جالسة وانظر من حولي، لم تكن هناك منازل ولكن كانت هناك خرائب تندلع منها النيران، ودخان في كل مكان واشلاء اجساد متناثرة، وكان هناك قدر كبير فيه زيت يغلي، ثم رحت أولول ولم يكن هناك من يسمعني، اذ كنت لوحدي ونظرت الى حضني ورأيت صدر رجل محروق دون جسد، وعندها بدأت بالصراخ الشديد واستيقظت من نومي وانا لا زلت تحت وطأة الكابوس المرعب. تحدثت لوالدتي بما رأيت فبكت بصمت، وقالت «إبعدي أفكار الحرب عنك الله كريم وحتماً سيلطف بأمته». وفي ذلك

اليوم دفعت والدتي الطيبة الصدقة للفقراء، كي تبعد الشر عن الأمة والوطن. فكان هذا الكابوس هو دلالة من الخوف على الوطن الذي نحبه بأرواحنا، وكان حسب قول اخي أضغاث أحلام، نتيجة الخوف الذي اصابنا عند التهجير. وهنا فكرت بنفسية الأطفال التي تعيش تلك المناظر الرهيبة للحرب وكيف سيكون تأثيرها على مستقبلهم المجهول؟ وهل هناك علاج لتلك الصدمات من قتل وموت، وكم من أطباء نفسانيين يحتاج شعبي لعلاج انواع الصدمات التي اصابت الاطفال والشباب؟

رغم مآسي الحرب كانت الحياة مستمرة بحلوها ومرها، والأعـراس كانت مستمرة ايضاً وقد دعُيت عائلتي مرتين لحضور حفلات أعراس الأقارب، وكنا فيهما متحررين نسبياً من الممنوعات من قبل والدنا الغالي لان النساء في صالة والرجال في صالة أخرى، ولم تكن قاعة كبيرة وجلسنا على الأرض المفروشة بالسجاد الإيراني، وتمتعنا بصحبة بنات خالي مكي الطيبات بتلك الأعراس الجميلة المشابهة نوعاً ما حفلات لأعراس بلدنا الحبيب، وكانت النسوة يغنين أغاني الفنانة كوكوش الجميلة، وغنينا لهم بعض الأغاني العراقية المرحة التي تغنى في الأفراح، وشاركنا في الغناء بعض الشابات العراقيات المهجرات من أقاربنا، فاصبحنا في الحفلتين بمثابة فرقة طرب عراقية، لنرفهّ بذلك عن قلوبنا المحتاجة الى شيء من الفرح.

من الاشياء التي لاحظتها في البلد المضيف، ولم اعرف عن امكانية وجودها في العراق، هي وجود الضمان الصحي، وحسب ذاكرتي كل من كان يعمل في مؤسسات الدولة او مؤسسات تجارية خاصة يدفع من مرتبه قسطاً ضئيلا للتأمين الصحي، والذي يسمونه «البيمة»، وبهذا يكون الموظف هو وعائلته مؤمناً صحياً في حالة المرض. وهناك مستشفيات عامة يكون العلاج فيها شبه مجاني ولكن العلاج لم يكن بالشكل الجيد، كما سمعنا من الآخرين، لذا يلجأ الناس بمرضاهم الى العيادات الخصوصية. والصيدليات كانت كثيرة ومنتشرة وتباع فيها الأدوية بعضها بوصفة من الطبيب، والبعض الاخر بدونها ومنها المضادات الحيوية. وكما اتذكر ان اصحاب الاعمال الحرة ليس لهم تأمين صحي يكفل لهم العلاج لذا عند المرض كما في بلدي عليهم دفع الإجور كلها. عائلتي لم تكن مشمولة بالتأمين الصحي لان عملنا نحن البنات كان بدون هوية وبعقود مؤقتة، اما اخوتي كانوا يعملون في مهنة حرة

ليس فيها تأمين، فكان علينا دفع اجور الأطباء، اذا تمرض أحدنا، ولم تكن زهيدة في بعض الأحيان.

طبعاً في العمل للموظف الحق في أخذ الإجازة العادية، وكذلك الإجازات المرضية التي على المريض فيها إثبات مرضه. في يوم من الأيام، أخذت يوم إجازة عادية من عملي، واتفقت مع والدتي للذهاب بعد الظهر معها الى السوق القريب من بيتنا لشراء بعض الملابس الشتوية، فالجو بدأ يبرد، ثم بعد ذلك الذهاب الى سوق الأغذية. وفعلاً ذهبت مع والدتي حسب الاتفاق وكنت اعرف الطريق الى السوق للقريب من بيتنا نوعاً ما واسمه «بزار طهران». كان البازار سوقاً كبيرُ ومسقفاً وتباع فيه البضائع المختلفة بالجملة واحياناً بالمفرد، حسب تصميم وقرار صاحب المحل، للبازار كانت له شوارع فرعية كثيرة، وكان الازدحام كبير فيه، ولان هذا السوق كبير وواسع فمن الممكن جداً الضياع فيه، لذا كنت امسك بعباءة امي لأنها لو ضاعت ستكون مشكلة كبيرة لعدم معرفتها في العالم الخارجي وعدم معرفتها للغة.

دخلنا السوق الكبير ومضينا فيه مدة أقل من ساعتين، وكان تجولنا فقط بداية السوق لأنه مزدحم وكنت خائفة ان تضيع والدتي في الزحام، ولأني لا احب التسوق لفترة طويلة، لذلك اشتريت بعض الاشياء البسيطة التي هي ارخص ثمناً من الاسواق الاخرى. خلال تجوالنا رأينا نساء عراقيات وعرفناهم من خلال عباءاتهم السود. خرجنا من السوق بعد التسوق واتجهنا نحو محطة باص نقل الركاب، وخلال توقفنا بانتظار الباص، تكلمت والدتي مع احدى النساء المنتظرات وكانت ترتدي العباءة العراقية. طبعا الاسئلة معروفة لدينا نحن المهجرين، فيكون أول سؤال بعد التحية: انت منين من العراق؟ السؤال الثاني مهجرين من قبل (القصد بداية السبعينات)؟ والسؤال الثالث شلون هجروكم؟ وين ساكنين؟ هذه الاسئلة وغيرها اصبحت مفتاح وطريقة للتخفيف مما يدور من ألم وقهر في داخل نفوس المهجرين.

تعرفت والدتي على المهجرة العراقية واسمها «ام نجم»، وتبادلا وسردا قصة تهجيرهما الأليمة. (أم نجم) كانت في بداية الثلاثين من عمرها وهي كردية فيلية، كانت طويلة القامة بيضاء البشرة وممتعة الحديث، وقصة تهجيرها هي: كانت عائلتها تسكن في بيت أهل زوجها في بيت كبير ببغداد، حيث يسكن الاخوة وعوائلهم

والاخوات. كان أخو زوجها واسمته ابو علاء، من نشطاء الحزب الشيوعي العراقي، لذلك كان البيت دائماً موضع تفتيش من قبل الأمن العامة للقبض عليه، وازداد التفتيش في السنتين الأخيرتين، وكان ابو علاء ينام في بيوت اخرى كي يمنع اعتقاله. في يوم 7 نيسان 1980 كان يوم التسفير وجاء حوالي اربعين مسلحا احاطوا البيت وفتشوا البيت بطريقة وحشية بحثاً عن ابو علاء. عندما لم يعثروا عليه، خرجوا وكان امام باب الدار لوري كبير، أمروا كل عوائل البيت بالصعود في اللوري وكان عددهم 17 نفرا من نساء واطفال وشباب صغار، اقفل مسلحو الأمن البيت واخذوا المفتاح معهم. اتجه اللوري، بحمولته البشرية، الى مركز الشرطة القريب، ومن ثم الى مديرية الامن العامة. بعد ساعتين أرجعوهم الى البيت، وعند رجوعهم خرج الجيران وكان الشارع والبيت يعج بالجيران الباكين. أزلام الامن العامة اعطوهم فرصة ساعة واحدة لأخذ ما يحتاجونه. اخذوا القليل من أمتعتهم مثل الملابس وبطانيات وسط هرج ومرج ساد البيت، ليركبوا في اللوري ثانية، وهنا جاء شاب من اولاد العم لزيارتهم وصعد هو الاخر في اللوري معهم، هرباً من الملاحقات التي كان يتعرض لها. تحرك اللوري واتجه مرة اخرى الى الامن الامة وادخلوا المهجرين في قاعة كبيرة مكتظة بعوائل اخرى. استدعوا زوجة (ابو علاء)، وهي شابة جميلة عدة مرات لغرض الاستجواب عن مكان زوجها وكانت تجيب بالحقيقة: انها لا تعرف شيئاً عن مكانه. قضوا تلك الليلة دون ان يناموا في القاعة المزدحمة وصوت بكاء الاطفال والنساء يملأ القاعة المكتظة، ولم يكن هناك مكان لكثرة العوائل وحتى الجلوس كان صعباً. في اليوم التالي حاول أزلام الامن العامة بالضغط على (أم علاء) إذ أخبروها بانهم سيرجعونهم الى البيت اذا دلتهم على زوجها، واذا لم تخبرهم، فسوف يأخذون ابنها الشاب علاء ويسفروهم الى ايران.

وعندما أيقن رجال الأمن، ان (ام علاء) تقول الحقيقة، وهي لا تعرف شيئاً عن مكان زوجها، تم تسفيرهم الى الحدود العراقية الايرانية بعد أخذ هوياتهم. وبعد ذلك نقلتهم الباصات الايرانية الى مسجد خسروي من ثم سفروهم الى مخيم أزنة التابعة لمدينة كرمنشاه، وبعد عدة ايام نُقلت العائلة الكبيرة الى (مخيم سربول ذهاب)، حيث اطلاق النار الشديد بين العراق وايران. احد اقارب ام نجم تكفلهم لمدة عشرة

ايام وبعدها رجعهم الى المخيم، وبعد مرور ايام قلائل رحُلوا ثانية الى مدينة اصفهان في مخيم ابرشيم، وبعد مرور شهر من العذاب والتعب جاء احد اقربائهم الذي سُفر في فترة السبعينات وتكفلهم بالخروج من المخيم. كانت أم نجم تتحدث عن مرارة التهجير الوحشي وتشردهم وتشاركها والدتي بالنقاش والبكاء. كان حديثها مسهبا عن حالة التشريد القسري، وما كتبته هو خلاصة للحديث. مرت السنوات وشاءت الأقدار المفرحة ان يتزوج اخي احمد بإحدى بنات (ابو علاء) واسمها ايمان بعد قصة حب جميلة.

بعد الحديث المؤلم الذي دار بوقوفنا لقرابة ساعة كاملة، ودعنا العزيزة (ام نجم) داعين لهم بالسلامة، افترقنا كل الى بيته. ركبنا الباص انا ووالدتي للرجوع الى البيت. بعد نزولنا من الباص ذهبنا الى سوق الخضار القريب من بيتنا، توجهت والدتي الى بائع البطاطا وسألته (باللغة الايرانية سيب زميني وتعني تفاح الارض) وبدأت والدتي تتعامل مع البائع باللغة الايرانية عن سعر الكيلو وانا واقفة الى جانبها، فسألت البائع «اغا كيلو سيب زميني جقدر مفروشي؟ وتعني ماذا يكلف سعر كيلو البطاطا فأجابها «خانم كيلو شيش تومان «وتعني الكيلو بست توامين، ولكن والدتي قالت له متعاملة ومحاولة تخفيض السعر «اغا هشت تومان نميشة»؟ البائع اعاد عليها السعر الذي ذكره ووالدتي تريدها بالسعر الآخر، وكنت أحاول ان افهمها الغلط، ولكنها كانت مستمرة وفجأة بدأ الرجل بالضحك بصوت عالي قائلا باللهجة العراقية «هاي شبيك اختي اقول لك ستة توامين وانت تلحين بشرائها بثمانية، تعلمي العملة الايرانية ترة تنغلبين»، وتوضح لنا ان البائع كان عراقيا. ضحكت والدتي وشكرته على امانته. رجعنا والضحك رفيقنا، وتحدثنا بمرح وسرور في البيت عن المعاملة التجارية للوالدة التي كانت ضعيفة بسبب عدم معرفتها باللغة الفارسية.

38

كوجه مروي.... والفلافل

كانت الفصول تمر على بغداد بشكل متباين، اذ كان الشتاء باردا ويتميز بهطول الأمطار وهبوب الرياح أحياناً، وتتركز برودة الشتاء في شهرين تقريبا، اما الصيف فكان أطول فصول السنة ويكون شديد الحرارة وخصوصاً في حزيران، تموز، وآب، لذلك كنا نتناول أغذية تساعد على الشعور بالبرودة مثل المرطبات والفواكه الصيفية كالرقي والخيار، وكنا ننام في الليل على سطوح منازلنا للتخلص من حرارة البيت الخانقة، وأحياناً تهب عواصف صحراوية رملية متعبة خصوصاً لمرضى الجهاز التنفسي. اما فصلا الخريف والربيع فكان مرورهما على بغداد مرور الكرام. كان فصل الخريف يتميز بهبوب الرياح واحيانا الامطار وتساقط اوراق الاشجار، ولكن حرارة الجو تكون اقل من الصيف. وأجمل فصول السنة التي اذكرها في بغداد، كان فصل الربيع الذي يبعث الفرحة والبهجة في قلوب الناس، وكانت الحرارة فيه معتدلة، وفيه تورق الأشجار وتزدهر الأزهار بألوانها الجميلة ناثرة عطورها في فضاء مدينتنا الجميلة. كان الربيع عيداً بألوانه وبهجته، وتخرج العوائل الى الحدائق والمتنزهات العامة ويجلسون على الحشائش وتحيطهم الزهور الزاهية الجميلة، وللأسف كان فصل الربيع قصيرا، ولكننا كنا ننتظره بشوق كبير كل عام.

بعد تهجيرنا من العراق، ثم انتقالنا الى طهران، كان الجو هنا ربيعياً جميلاً معتدل الحرارة، وبعد مرور أسابيع قليلة، حل فصل الصيف الذي كان حاراً جداً وخصوصاً بعد الظهر، لان طهران تقع في وادي محاطة بسلسلة جبلية شاهقة، وكذلك لزيادة وجود السيارات القديمة منها وكثرة دخانها، مما يتسبب بان يكون الجو داخل المدينة خانقاً متعبا. ولهذا السبب كان أغلب الناس يمكثون في بيوتهم

وقت الظهيرة تحت اجهزة التبريد، وتقل حركة الناس في الشوارع هذا الوقت من النهار، والمتاجر تكون شبه فارغة من زوارها. بعد العصر تبدأ حركة الناس بكثرة وتزدحم الأسواق لبرودة الجو وانخفاض درجات الحرارة. الاسواق في طهران مفتوحة طيلة النهار وحتى بعد منتصف الليل. وكانت هناك الكثير من المتنزهات والباركات والحدائق الغنّاء، حيث تذهب العوائل لأجل الراحة والاستجمام والتمتع بأجواء الرحلات التي كانت العوائل الايرانية تهتم بها.

اتذكر في فترة الصيف (قبل شهرين او اكثر من سكننا في بيت خالي مكي)، دعانا خالي اسماعيل انا وأختي سجواء لمرافقته مع عائلته للسفر الى شمال ايران (رامسر وجالوس السياحيتين التابعتين الى مدينة مازندران) للحصول على الراحة والابتعاد عن الحزن والألم الذي اصبح الجزء الكبير من يومياتنا التشردية. استأجر خالي شقة في مدينة رامسر لهذا الغرض، فلبينا دعوتهم وكنا لهم شاكرين لمحبتهم. سافرنا في سيارة خالي وعائلته وكان الطريق جميلا، حيث كنا مندهشين من المناظر الخلابة والسلاسل الجبلية والغابات الكثيفة، والشلالات، وكانت الشوارع فيها صعوداً ونزولاً ومنحدرات وكنت احيانا اخاف من ان تسقط سيارتنا في الوادي، وتذكرت حينها سفرتي مع الاهل وكذلك في الجامعة الى اقليم كردستان الجميلة ومناطق مثل بيخال، وكلي علي بيك، ودهوك والعمادية ومناطق اخرى وهنا كنت اتحسر على ما مضى، وشجوني الى وطني كانت تكبر نتيجة حرماننا منه، ويبقى هو أجمل بقعة في الدنيا. بعد وصولنا لرامسر، ادهشنا جمال طبيعتها وكأنها جنة الخلد. كانت الشقة مبنية على سفح جبل، ومن خلال نوافذها كنت اشاهد الغابات الخضراء الكثيفة. ذهبنا بعد وصولنا في جولة الى مركز رامسر المكتظ بالفنادق السياحية، فالمدينة تقع على ساحل بحر قزوين. بقينا ثلاثة ايام في رامسر، واصطحبنا خالي اسماعيل خلالها لرؤية الأماكن الأثرية مثل قصر الشاه الاول، وكذلك حديقة رامسر الغنّاء، وكذلك رؤية الينابيع الطبيعية الكثيرة. كانت رامسر حينها مليئة بالسواح. بعد ذلك سافرنا الى منطقة جالوس، وكانت ايضاً مدهشة بطبيعتها وبقينا يومين ضمن إجازة من حالة الشرد التي نمر بها، وأعطتنا تلك الرحلة طاقة إيجابية للاستمرار في مجابهة الضياع.

بعد مرور فصل الصيف الحار، حلّ فصل الخريف، وبدأت درجات الحرارة

بالانخفاض، وأصبح الهواء يتسم بالبرودة، فقد بدأ الثلج بالهطول على الجبال المحيطة بطهران. بعد مرور اقل من شهرين حلّ الشتاء البارد جداً، الذي لم كنا قد عرفناه من قبل. كان البرد قارساً لذا اشترينا الملابس الشتوية السميكة كي تحمينا من البرد والمرض. اشترينا لوالدي معطفا ثقيلا وشالا، كذلك مدفأة اضافية لهذا الغرض. في آخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سقطت الثلوج على مدينة طهران، وهنا سقطت الثلوج البيضاء النقية على سطوح المنازل والشوارع ولبست المدينة ثوبا ابيضا جميلا. لاول مرة في حياتنا نشاهد هطول الثلوج فكان لنا متعة جميلة ولعب الأطفال في الشارع برمي بعضهم البعض بكريات الثلج البيضاء وهم يتضاحكون. سكان المدينة كانوا مهيئين لسقوط الثلج، فكان لديهم مجارف يدوية يزيلون الثلج من على سطوح منازلهم والشارع الذي يسكنون فيه. في كرج التي تقع غرب طهران تكون البرودة اكثر، وهطول الثلج يكون اشد، لذلك كان الذهاب الى العمل بالنسبة لي ولأختي سجواء، تحت ظروف مناخية باردة جداً.

بعد استقرارنا في بيت خالي مكي كانت تصلنا دعوات من الخالات والأخوال وابنائهم وبناتهم، وكذلك من أولاد وبنات عم والدتي عن طريق تلفون خالي مكي. كنا نلبي بعض تلك الدعوات ونؤجل بعضها نتيجة ظروف العمل وعدم توفر الوقت وكنا لهم شاكرين، فكان تلبيتنا لدعوات الأقرباء تتم ليلة الجمعة او يوم الجمعة. كنا نذهب الى من يدعونا بعد اخذ عنوانهم، بركوب الباصات او «التكسيات النفرات». وعادة ما يكون الترحيب بنا كبيراً، والحديث غالباً باللغة العربية، واحياناً باللغة الفارسية التي تعلمناها بشكلها البسيط نتيجة العمل والتخالط بالمجتمع، وكانت اللغة الفارسية مطعمة بكلمات من اللغة العربية، وهكذا كان تفاهمنا افضل من السابق، واحياناً نضطر الى التحدث بالإنجليزية. الاحاديث المتداولة كانت تدور غالباً عن الحرب القائمة وتداعياتها والخسائر في الارواح، وكذلك كان الحديث يدور عن ظلم صدام لشعبه وقضية استمرار التهجير للعوائل العراقية بشكل غير انساني وتحت ظروف الحرب المتعبة. كنت احس التعاطف الوجداني معنا في الظروف التي نمر بها، وكذلك كانوا يشعرونا بافتخارهم بنا لتجاوزنا جزءا من مراحل العذاب واصرارنا على العمل. ان

الاستقرار العائلي تحت سقف واحد وعثورنا على عمل من اجل استمرار الحياة، دون طلب المساعدة من احد، قد منحنا الهدوء النفسي وقلل من حدة حساسيتنا المفرطة وخجلنا التي كانت شديدة في المراحل الاولى من التهجير.

كانت زياراتنا للأقارب قد منحتنا الفرصة للتعرف على بعض اطراف المدينة الشاسعة، واهمها معرفة جغرافية المنطقة والمناطق الحيوية فيها، وكذلك التعرف على المجتمع الايراني، وهي بالطبع مهمة صعبة لعدم وجود اختلاط بعوائل ايرانية، وعدم معرفتنا اللغة الفارسية بشكلها الصحيح، لذا كانت عائلة والدتي والعمل والشارع، هي الطرق الوحيدة لمعرفة ماهية المجتمع الايراني. كان شمال طهران مبنيا على سفوح جبال البرز، لذا كان علينا الصعود في طرقاتها المرتفعة والممتعة لما فيها من عمران وجمال الطبيعة الساحر. كان اغلب السكان هنا من الأثرياء وميسوري الحال، فكانت احيائها الراقية وساكنوها يشعروك برقي مدينتهم، اذ كانت ملابسهم راقية وكذلك تصرفاتهم وطريقة كلامهم هي الأخرى مميزة. كانت المساكن هنا واسعة ذات حدائق غنّاء وفيها المسابح، شبيهة بالقصور. كذلك هناك بلوكات فيها شقق سكنية راقية. الشوارع كانت عريضة ومشجرة ونظيفة جداً وهناك ساحات واسعة ومنظمة. الحدائق والمتنزهات الغناء منتشرة في شمال العاصمة بشكل جميل ومنسق واشهرها متنزه الشعب (بارك ملت) ومتنزه لالة (بارك لاله) ومتنزه ساعي (بارك ساعي). شاهدنا المطاعم الفاخرة والاسواق والبوتيكات الجميلة التي يطغي عليها الطراز الغربي والمنتشرة بكثرة في الشوارع الرئيسية، وشاهدنا ايضاً السوبرماركات العديدة الطوابق المجهزة بالسلالم الكهربائية. اما الأسعار لكل انواع البضائع ومنها المواد الغذائية كانت مرتفعة جداً مقارنة بجنوب طهران. انطباعنا عن شمال طهران هذا تكوّن نتيجة زيارتنا لبعض اخوالي او ابنائهم الذين يسكنون في تلك المناطق الراقية المشابهة لمدن اوروبية.

اما وسط طهران الذي يمثل المركز التجاري الحيوي للعاصمة وفيه كثافة عالية من الشركات التجارية ومعارض كبيرة لبيع انواع الاثاث المنزلية، ومعارض بيع الادوات الكهربائية المنزلية، ومزيج كبير من المعارض المتنوعة. وكان سوق طهران الكبير (البازار) الذي يقع في وسط العاصمة من اهم تلك الاسواق التجارية واكبرها،

والبازار سوق مسقف ومكون من عدة أزقة وشوارع ضيقة وكل زقاق له اسم مثل سوق الذهب، سوق الصفارين، سوق البزازين، سوق السجاد وأسواق كثيرة وامتداد السوق كبير، حد انه كان يبدو كمدينة. كان هنا ازدحام السيارات والشاحنات بكثرة، ومدينة طهران فيها كثير من القصور والمساجد الشهيرة التي زرنا بعضها في المراحل المتقدمة.

جنوب طهران هو اقل برودة من شمالها، وساكنوه من العوائل ذات الدخل المتوسط وكذلك الفقراء، والمناطق جنوب طهران مكتظة بالسكان والمحلات التجارية وكذلك بالسيارات والشاحنات والدراجات التي كنت أراهـا تسير بمجاميع. كانت مناطق جنوب طهران ذات أزقة متداخلة وفيها دروب ضيقة تؤدي الى اخرى أضيق ولكنها معبدة، كانت البيوت صغيرة ليس فيها حدائق وساكنوها من البسطاء، وذكرتني بدروب منطقة الكاظمية الضيقة التي كنت أزورها مع عمتي. كانت هناك عدة مناطق معروفة، واتذكر منها منطقة شاه عبد العظيم التي فيها ثلاثة مراقد: حرم السيد عبدالعظيم الحسني من ابناء الامام الحسن بن علي المعروف بشاه عبدالعظيم، ومنطقة «كوچه مروي» وكما وصفها لنا اخوتي بانها منطقة تجارية فيها شارع على جانبيه اسواق لبيع التحف القديمة والملابس ومحلات لبيع المواد الغذائية والمطاعم الرخيصة، ومنطقة «شوش» وهي مشهورة ببيع الخضار، واتذكر كان الانسان الكريم، خالي مكي، يذهب الى سوق الخضار في «شوش» بنهاية وقت البيع، حين تكون الأسعار رخيصة جداً، وكان يشتري شوالات خضرة او فواكه بسعر زهيد، ويأتي بها بدراجته، ويصعد بها الى والدتي التي تفرح بوجوده وبما حمله لها من الخضار، ليجلس على الارض الى جانب والدتي ويبدأ معها بتنظيف الخضار.

كانت منطقة «كوچه مروي» ومعناها (دربونة مروي)، تعتبر منطقة حيوية ومركزا لتجمع المهجرين، والمهاجرين، والهاربين العراقيين، لقربها الى مناطق تواجدهم مثل بازار طهران التجاري، وكذلك قربها من الحسينيات العراقية مثل الحسينية الكربلائية، النجفية والكاظمية، وكانت الحسينيات تساعد العوائل والشباب المشردين. كان اخوتي يذهبون في اوقات فراغهم القليلة الى «كوچه مروي» للالتقاء بالشباب العراقيين المهجرين وكذلك الشباب الهاربين من ظلم الحكومة العراقية

الارهابية، ومن ملاحقات الاستخبارات للتخلص من عراق الجحيم حينها، وكان هروب المعارض للحكومة الارهابية يتم عن طريق كردستان او من مناطق اخرى حدودية مع ايران، تاركين بيوتهم وامهاتهم واباءهم الذين لا يعرفون مصائرهم، الامهات اللواتي ربين ابنائهن بالشقاء والتعب والدعاء وفي آخر المطاف يصبحون مشردين هاربين بأرواحهم ليعانوا من شظف العيش والغربة القاتلة.

كان اخوتي يسمعون اخبار الوطن من هؤلاء الشباب المشردين تحت ظروف قاسية. وكما روى لنا اخوتي ان وضع هؤلاء الشباب، الذين كان اغلبهم طلابا او خريجي جامعات ومنها جامعة بغداد، قاس جداً من ناحية السكن والمعيشة، فكان يسكن خمسة اشخاص او اكثر في غرفة واحدة، ينامون على الارض ويتناولون احياناً وجبة غذائية واحدة لسوء وضعهم الاقتصادي.

وكما روى لنا اخي حامد ان هناك في منطقة «كوچه مروي» ساحة حوّلها الشباب العراقيون المشردون الى سوق لبيع الاطعمة الشعبية، مثل سندويشات الفلافل والعمبة او البيض والجبن، وباقلاء بالدهن، وكذلك انواع السلطات، والفشافيش، وقهوة صغيرة لبيع الشاي والمرطبات وبأسعار زهيدة، وكانت هناك اكلة رخيصة جداً، وهي الخبز المقلي بزيت السمك الذي تباع كل نصف رغيف بسعر تومان واحد (يأكلها شبابنا المشرد لسد الرمق)، وبهذه الطريقة كان المشردون يكسبون قوتهم اليومي ويتابعون أخبار الوطن، وكذلك يبحثون عن عمل في مكانات أخرى. الأغذية كانت تطبخ وتباع على العربات الخشبية التي حوّر الشباب في تركيبتها حسب العمل المطلوب وكذلك عمل بعضهم للعربة سقفاً من الفايبر او الكارتون، كي تحمي الاغذية في حالة سقوط المطر. هذه العربات اصبح لها اسماء مثلا فلافل عراقية، مطعم نادر، واسماء اخرى. هذا السوق الشعبي كان مكتظا بالعراقيين وعرباتهم الخشبية ورائحة زيت القلي تنتشر في المكان، والشباب يتبادلون الشجن وهمومهم ويوميات الوطن المتعبة. وعندما كانت تأتي دورية الصحة الغذائية الايرانية الى تلك الساحة يقوم مفتشوها برمي الاغذية المطبوخة في القمامة، لأنها تعتبر غير صحية وغير مرخصة ويطرد كل من في الساحة، وتقوم الدولة بتنظيف المنطقة من النفايات والعربات. وبعد يوم واحد من مرور دورية الصحة ترجع العربات الى الساحة ثانية

بنشاط جديد، لتصبح المنطقة معروفة لدى الايرانيين الذين كانوا يتعاطفون مع البائعين الشباب، بشرائهم بعض الاطعمة مثل الفلافل مع العنبة التي اصبحت طبقاً مفضلا ومعروفاً عند الايرانيين.

كانت «كوچه مروي» مشهورة عند العراقيين كنار على علم، وزوارها كانوا شباباً يبحثون عن عمل اوسكن رخيص او الالتقاء بالأصدقاء، او يبحثون عن إنسان فقدوا أثره من اصدقاء او اقارب. «كوچه مروي» كانت ايضاً مهمة لأمور اخرى مثل الذي يريد السفر الى الخارج، فهو يذهب للنصح او لشراء جواز مزوّر، او يتعامل مع المهربين للسفر الى الخارج كي يتخلصوا من الفاقة والتعب النفسي، لان الرجوع الى العراق يعني الموت والبقاء بهذه الحالة يعني الموت ايضاً بسبب التشرد والضياع والفاقة. سألت اخي حامد عدة مرات ان يأخذنا معه لمشاهدة «كوچه مروي»، لكنه رفض بقوله ان المنطقة مثل «قهوة شباب» وليس فيها نساء ولا تصلح ان نذهب اليها. كان اخي يتحدث ان هناك دائماً وجوه جديدة لشباب هاربين نستمع الى قصص هروبهم من العراق والخطر والخوف الذي كان يلاحقهم، وكذلك كان شباب اخرون يسافرون الى مناطق اخرى لإيجاد عمل مثلا في مدينة بندر عباس المطلة على البحر او في الحقول لقطف الفواكه والخضار وبأجر زهيد.

اهداني زوج اختي سجواء (عبد السميع عيس) صورة عن ساحة «كوچه مروي» (الصورة استلمتها بعد سنوات)، وهي تعطي صورة واضحة عن هذا المكان الذي جاء اليه زوج اختي هارباً من العراق وكان يعمل في هذا السوق وله عربة يحضر فيها السلطة مع شركائه ويبيعونها الى المطاعم القريبة. بمرور الزمان بقيت «كوچه مروي» التي هي قريبة من البازار المركزي الشهير ملتقى للعراقيين الى يومنا هذا، وتحولت العربات الخشبية الى مطاعم تبيع المأكولات العراقية، واهمها الفلافل التي احبها الايرانيين، لذا اصبحت الفلافل في «كوچه مروي» من اهم الأطباق العراقية المشهورة في المنفى.

طهران.... والهزة الارضية

الأيام كانت تمر علينا والبرد يرافقها، ومعه تتزايد الكآبة والحنين الى الماضي الذي اصبح سراباً نلاحقه. مر علينا عيد الاضحى المبارك، وافتقدنا شعاره الجميلة ومنها زيارة الاقرباء وتبادل المحبة بين عوائلنا. كان إحساسنا بالغربة والبعد عن وطننا واحبائنا كبيراً، ولذلك كان مرور عيد الاضحى علينا فيه حزن ولوعة، لأنه كان غريباً مثلنا، بالإضافة الى ذلك ان البلد المضيف كان الاحتفال فيه ليوم واحد، ولم تكن هناك الأجواء الاحتفالية التي تعودنا عليها في الوطن السليب. لا زالت الحرب وأخبارها المفجعة تزيد من ظلام أيامنا في غربتنا المتعبة. كان بعض اخوالي يأتون لزياتنا مثل خالي اسماعيل، وخالاتي معصومة وام ناصر، وخالي قاسم وزوجته التي اعتقدت في البداية انها من مدينة قم ولكن اتضح لي لاحقاً انها من مدينة اصفهان. كان خالي مكي الكريم الطيب الانساني يزورنا باستمرار، لأنه كان يحب والدتي بشكل كبير لطيبتها وابتسامتها رغم كل المآسي وهي بدورها كما كل عائلتي تحبه ونتمتع جميعنا بحديثه عن قصص من الماضي، وكان خالي يحاول التخفيف علينا من فقدان الأمل، خالي مكي كانت له منزلة خاصة جداً بالنسبة لنا لأنه بمثابة ملاك انقذنا من الضياع والتشرد. كان الشتاء بارداً جداً علينا، وكنا نخاف على عوائلنا وعوائل من شعبنا المشردين الذين يعيشون في المخيمات المنصوبة في العراء، التي لا تحمي من البرد ولا من الضياع. وصلتنا من اصدقاء لنا اخبار مفادها، انه وبعد اسابيع من بداية الحرب الظالمة، اصبحت الحياة في مخيم اصفهان لا تطاق، بسبب الظروف الجوية حيث البرد الشديد والامطار، بالإضافة الى الهجمات الجوية على المخيم، وتفاقم الوضع الصحي والنفسي للعوائل وعدم وجود الامكانية لتكفل

جميع العوائل التي ليس لها احد في ايران (وكانت الاكثرية الغالبة)، لذا اعُطي الخيار المطلق لعوائل المهجرين ان يجدو احداً يتكفلهم لمغادرة المخيم ويمكنهم اختيار اية مدينة ايرانية للسكن فيها والعمل بعد ان يمنحوا الكارت الاخضر كهوية، وهنا بدأت كثير من العوائل المهجرة تبحث عن كفيل للخروج من مخيم العذاب وشق الطريق الصعب في التشرد الجديد.

امكانيات مخيم اصفهان كانت ضعيفة لحماية العوائل من برودة الشتاء القارس ومن القصف الجوي. الخيام لم تكن قادرة على مقاومة تغير الاحوال الجوية ومنها البرد وسقوط المطر والثلوج، لذلك كانت الحالة التي يمر بها المشردون لا تطاق. قام اخي كاظم بزيارة لعوائلنا في المخيم، وحدثنا بان ابن عمي ابو فراس قد حصل على كفيل وهو من احد اصدقائه القدامى المسفرين في بداية السبعينات والتقاه بالصدفة واسمه ابو فريد، تكفل الرجل عائلة ابن عمي ابو فراس، ووالدته واخته واخوته، اما عائلة ابن عمي الاكبر ابو انيس بقيت في المخيم لعدم وجود كفيل لهم، لان الرجل تكفل ثلاث عوائل بوقت واحد. عوائلنا التي حصلت على الكفالة، تم اسكانهم كل عائلة في غرفة في صحن حرم الزينبية في اصفهان، بعد ان بحث الرجل الكريم ابو فريد الموضوع مع احد اصدقائه في الحرم. ووزعت عليهم في حرم الزينبية مواد منزلية بسيطة للطبخ، وصوبة نفطية، وبطانيات، وفي كل مساء كانت توزع على جميع العوائل اغذية مطبوخة وهي متبقيات من اغذية الجيش، وكميتها احياناً تكون كافية وفي بعض الاحيان لا تكفي، وحسب ما رواه اخي كانت هذه هي الوجبة الوحيدة، واذا كان للمشرد قدرة اقتصادية لشراء المواد الغذائية بإمكانهم الطبخ وهذا لم يكن مقدورا عليه. لم يكن هناك عمل لسكان الزينبية لعدم اتقان اللغة لذا كانت تمر الايام بصعوبة ولكنهم تخلصوا من البرد القارس في المخيم. وحرم الزينبية كان عبارة عن مرقد لاحد اولياء الله الصالحين، وكان الصحن عبارة عن مقبرة في داخله وفي خارجه، للأسف لم اذهب لزيارتهم لهذا المكان، لهذا اروي ما تحدث به الاخرون.

جاءت ابنة عمي فاطمة وزوجة عمي صادق في نهاية نوفمبر (الشهر الحادي عشر) لزيارتنا في طهران ولعدم معرفة عنواننا، ذهبوا الى اخوالي في احدى

المسافرخانات الذين أوصلوهم برفقة احد العمال الى بيتنا. التقينا بهم وكان لقاء فيه لوعة واحاديث مؤلمة لما تمر به العوائل العراقية في المخيمات، وهي تحمل القهر والظلم على اكتافها. روت لي فاطمة عن المخيم ويومياته المتربة المتعبة في ظل القهر والفاقة والألم، ومما روته ان الحالة النفسية لسكان المخيم كانت سيئة وصبر الناس في ان يخرجوا من جحيم المخيم قد نفذ، ولعدم وجود من يتكفلهم وصعوبة الوضع الاقتصادي جعلت سكان المخيم مشردين فاقدين للصبر والحياة، لذلك كانت هناك مشاكل بين المشردين، وامراض عصبية اصابت نزلاء المخيم. تكلمت ايضاً عن صعوبات سكنهم الجديد في الزينبية وفقدانهم حياتهم الكريمة، والحرب التي صارت من همومهم اليومية بالإضافة الى فراق اخواتها واحبتها والوطن.

ومن ضمن حديثها ان بيت اخيها ابو انيس وعائلته، قد رحلوا الى مخيم مدينة جهرم الايرانية الواقعة جنوب ايران، وقد اسكنوهم في مخيم جهرم البعيد. وحسب ما روت لي لاحقاً زوجة ابن عمي «ابو انيس» انهم سكنوا في الخيام المنصوبة على الشوارع غير المعبدة التي تملؤها الاحجار المؤذية في الجلوس او النوم، وان الخيمة كانت باردة جداً في الليل، وانهم قضوا فترة الشتاء حيث يتكدس الثلج على الخيمة التي لم تكن قوية والمهددة في السقوط، لذا كانت ام انيس لا تنام الليل ممسكة بعمود الخيمة كي لا تسقط على اطفالها، وذكرت انه عند وصولهم مخيم جهرم، وزعت عليهم بطانيات سميكة قديمة لفرشها على الارض الباردة، وبطانيات اخرى ليتغطوا بها ليلاً، وكذلك وزعت عليهم مواد منزلية بسيطة من اجل الطبخ وفانوس وصوبة نفطية، الأغذية كانت توزع عليهم مرة في الاسبوع وتشمل الحبوب (مثل الفاصولية والعدس) والشاي والسكر والزيت ومعجون الطماطم وغيرها من الاغذية التي لا تفسد. كان يوزعون عليهم مرة في الاسبوع لحم دجاج او لحما مجمدا، وكان عليهم الوقوف بطابور طويل للحصول على المواد الغذائية المهمة. مخيم جهرم كان اسوأ من مخيم اصفهان من جميع النواحي الخدمية مثل المرافق الصحية البعيدة والحمامات وكذلك من الناحية الغذائية لسكان المخيم والحالة الجوية (البرودة في الليل). كانت تروي مرارة العذابات اليومية لها ولعائلتها التي عاشت ظروفا سيئة لعدم توفر الماء والاغذية بشكل جيد، وبكاء الاطفال الدائم لفقدانهم ابسط

مقومات الحياة، وشعورهم بانهم سجناء وكذلك انحناء ظهورهم لعدم وجود جدار يستندون عليه. كانت مدينة جهرم ناحية صغيرة تحيطها سلاسل جبلية. وقالت ان هناك بعض العوائل كانت تعاني من الامراض الجسدية والنفسية، وان حياة عائلتها كانت صعبة جداً وان ابن عمي اصيب بالكآبة المرضية الشديدة نتيجة سوء الوضع النفسي والاجتماعي وحالة الضياع المفجعة، ومصيبتها كانت الخوف على اطفالها من الضياع والمرض والتشرد في المخيم، ومن ضمن سردها انها عاشت في مخيم جهرم اربعة اشهر في عذابات كثيرة من جميع النواحي. جاء صديق العائلة ابو فريد في يوم من الأيام وتكفلهم ليخرجهم بعد ما رآه مما يتعرض له الاطفال في المخيم. بعد الكفالة تحولوا الى السكن في مدينة اصفهان، وبالتحديد في صحن الزينبية. في البداية لم تكن لها غرفة خاصة لعدم توفر غرف فارغة، لذلك اضطرت الى ان تسكن مع عائلة زوجة عمي، ولضيق الغرفة لكثرة عددهم، قدمت عدة مرات طلبا لإعطائها غرفة لها ولعائلتها، بعد مرور شهرين قاسية، اعطوها غرفة لعائلتها يتوسطها قبر. وحسب ما سمعت فالمخيمات مثل (جهرم) و(ازنا) وغيرها، التي كانت تعج بالعوائل العراقية المهجرة وكذلك بالعراقيين الهاربين ظلت موجودة الى أمد ليس ببعيد، ولربما الى يومنا هذا.

مثلما ذكرت سابقاً، فالثورة الايرانية كانت لا تزال فتية، وان الضغط عليها بتشريد الآلاف العوائل العراقية من قبل حكومة صدام الظالمة لم يكن في الحسبان، وكذلك هروب العراقيين من مناطق مختلفة من البلاد الى ايران فراراً من ملاحقة الاستخبارات او فراراً من الخدمة في الجيش العراقي والتي كانت عقوبتها الاعدام، وهذا كله وفر ضغوطات على الثورة الإيرانية، زاد عليها توافد الآلاف من الشعب الافغاني الذي كان يعاني من ويلات داخلية نتيجة التدخل السوفياتي. كل هذه الطوائف المشردة قد انهكت الدولة الايرانية التي كانت تصبوا نحو الاستقرار بعد الثورة. لذلك كانت مخيمات المشردين تتوسع ومخيمات اخرى تفتح في أرجاء البلاد لضم هذا الزخم الهائل من المشردين واللاجئين. وقد زاد الطين بلة هو نشوب الحرب على ايران، والهجوم العراقي بالصواريخ والطائرات على المدن الحدودية الايرانية بكثافة مما ادى التي قتل الكثير من سكانها، واصبح الالاف

منهم مشردين. لذلك اصبحت الخدمات والمخيمات غير كافية لهذا الكم الهائل من البشر المشرد. ولهذا السبب كانت معاناة المشردين تزداد بازدياد عددهم وفي ظل الحروب وغياب السلام.

ان نشوب الحرب بين العراق وايران وغياب مواقف الامم المتحدة، ومنظمات حفظ السلام، ومواقف الدول الكبرى التي تتدعي في نهجها الحفاظ على السلام في العالم، عن جهود إيجاد صلح بين البلدين، دفعني للتفكير بان هذه المؤسسات والمحافل الدولية ليست سوى كراس خالية بل ولربما مستفيدة من اشعال واستمرار الحرب، وبعيدة كل البعد عن السلام الذي يرغب فيه كل انسان. كنت ابكي على شعوبنا التي اصبحت وقوداً لتلك الحروب. في كتابتي لما عايشته في التشرد قد تتردد كتابة مرادفات مثل الحزن، البكاء، الالم، الضياع التشرد وغيرها، وهي معبرة عن الحالة التي كنا نعيشها اذ اصبح الالم والحزن والبكاء والضياع يشغل جزءاً كبيراً من يومياتنا المتوجة بالتشرد.

الحياة كانت تسير رغم كل ما نمر به، قضت بنت عمي ووالدتها معنا حوالي اسبوعين اعدنا خلالها ذكريات كثيرة من الماضي، وما بين الضحك والبكاء. وفي احدى تلك الايام رجعت من عملي كالعادة، كان وقت المغرب وكنت جالسة قريب من المدفأة اشرب الشاي وكانت زوجة عمي تجلس بجانبي، كان ابريق الشاي موضوعا على المدفأة، كانت والدتي في المطبخ مشغولة في تحضير وجبة العشاء. وفجأة بدأت الارض والبيت بالاهتزاز لعدة ثوان وسقط إبريق الشاي أرضاً، اعتقدت في البداية ان البيت سيسقط،، لذلك وثبت من مكاني، وبعد دقائق إرتج البيت ثانية، توجهت نحو الباب لمعرفة ما يجري ولحالة الرعب التي داهمت زوجة عمي التي بدأت تقرأ سورا من القرآن الكريم وتكبر، وهنا دخلت والدتي الى الغرفة موضحة انها هزة ارضية، تحدث بين الحين والاخر في طهران، لانها منطقة جبلية وان اخوالي قد نبهوها الى ذلك. كان حالة رعب لأننا لم نعش حالة الهزات الارضية سابقاَ وخوفنا انها تحدث مرة اخرى وبقوة اكثر، ولكن الله ستر علينا لان الاهتزاز توقف. وهذه أول مرة في حياتي اكون شاهدة على هزة ارضية، وحمدنا الله حينها لأنها كانت خفيفة، وفي المساء حضر خالي مكي وحدثنا عن

الهزات الارضية في ايران وامكانية حدوثها، وقال ابي مازحاً «المبلل ميخاف من المطر»، وهنا ادركت ان جرح والدي عميق جداً وان الموت والحياة عنده سيان. رجع اخوتي من العمل وتحدثوا ايضاً عن مشاعرهم اتجاه هذا الحدث، وبهذا دخلت الهزة الارضية كحدث جديد على أرضية المنفى.

40

عاشوراء في المنفى ونحن... سباياه

كان الوطن لنا، منذ الطفولة، بيتنا وحنان الام ودفء الشمس في قلوبنا. والشعب كان اهلنا واحبتنا واصدقاءنا، كان الحب والاحترام يسود بين كل فئات الشعب رغم اختلاف قومياته وعقائده، وهذا ما عايشناه بل حفر في ذاكرتنا. العلاقات الاجتماعية كانت حينذاك قوية وحميمة، وكلما ارجع بذاكرتي الى الوراء اجد جذوراً عميقة لهذا الحب والتفاني بين افراد عائلتي العراقية البسيطة المتواضعة. وما اقوم بسرده، هو حقيقة بالرغم من وجود سلبيات منها التخلف العلمي، وتفشي الجهل والفقر في صفوف كثيرة من الشعب، ولكن رغم كل هذه السلبيات كان المجتمع العراقي قوياً وبخير، بحبه الفطري وانسانيته الكبيرة. وللاسف دارت رحى الايام على عوائلنا الطيبة المعطاء نتيجة ممارسة السياسة التعسفية التي اتبعتها حكومة البعث في نشر الاستبداد وعدم الثقة واثارة نعرات طائفية لم نعرفها او نعيشها من قبل، والتي كان من شأنها تفكيك العائلة العراقية وإحداث خلل كبير بين طوائف الامة المتحابة لتصبح فريسة الخوف والتشتت والكراهية.

العراق كان يحتضن العديد من القوميات والاطياف والعقائد، وكانت العلاقات الاجتماعية الحميمة بين تلك الفئات هي محورها الاساسي، لذلك كنا نعيش بتلك المحبة الفطرية بسلام مع بعضنا. ومعروف ان في العراق كانت القوميتان العربية والكردية هما اكبر القوميات والى جانبهما كانت هناك اقليات مثل التركمان والاشورين. الجميع كان يحمل بداخله الانتماء الى وطن واحد وهو العراق. هذا التباين بين اطياف الشعب كان من شأنه اغناء تاريخ العراق بكثير من الامور ومنها الحضارية التاريخية، الثقافية، والفكرية. في العراق كانت ايضاً هناك ديانات مختلفة

لها شعائرها الدينية المختلفة، وكانت هناك مساحة مناسبة لحرية ممارسة تلك الشعائر الدينية في جو من الاحترام والحب في زماننا. الديانات التي كانت ولا زالت في العراق هي الاسلام (السنة والشيعة وهم الغالبية)، المسيحية، الصابئية، اليزيدية وديانات اخرى،. كان معتنقو تلك الديانات يعيشون متحابين فيما بينهم، وفي كثير من الاوقات كانت هناك مشاركة صميمية لاحياء الشعائر الدينية بين مختلف الطوائف، وهذا دليل قاطع على تواجد اواصر المحبة بين الجميع، ولا اتذكر في مراحل حياتي، وجود تناحرات سببت اضطرابات بين اطياف الشعب العراقي، لان قلوبنا كانت كما هو معروف عن الشعب العراقي طرية بالحب، وبعيدة كل البعد عن الحقد والضغينة والكراهية. بالاضافة الى ما ذكرته، كانت سياسة الدولة، وبالاخص ماعايشته، تتجنب التدخل في شؤون الدين، وكانت هناك حماية للجميع، واعني هنا كان هناك انفصال ملحوظ بين السياسة والدين. الشيعة والسنة هما الطائفتان المسلمتان الاكبر في العراق، لذلك كان التزاوج بين الطائفتين موجودا، وليست هناك بوادر للتفرقة، وعلى العكس كان هنالك تقارب انساني جميل، وكذلك لعب حب الوطن والحفاظ على سلامته والتقدم العلمي والحضاري دوراَ كبيراً في تقلص الفوارق الموجودة، بل كان هناك هدف وطني للجميع هو الحفاظ على وحدة الامة (في السبعينيات). وكانت هناك ايضاَ حدود دينية تمنع حدوث التفرقة، لان الدين الاسلامي الحنيف هو كباقي الاديان يدعو الى المحبة والسلام. لم نكن في المدارس او في اي مكان عام اخر، نتعرض الى سؤال عن الانتماء الديني او طائفي، كذلك كانت الاسماء عامة فالسني والشيعي يستعمل نفس الاسماء مثل عباس، وحسين وعلي وعمر والخ من اسماء اولياء الله الصاحين.

وفي مراحل كثيرة من حياتي، عشت اعيادا اسلامية ووطنية واشهرها، هو عيد الفطر المبارك وعيد الاضحى، وكذلك اعياد وطنية وعالمية مثل الاحتفال بـ 14 تموز 1958 وعيد العمال. وكانت هناك مناسبات دينية والمعروفة للجميع هي مناسبة ولادة نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم ووفاته، السنة الهجرية، عيد النوروز ويحتفل به اخواننا الاكراد بمشاركة الجميع، وذكرى عاشوراء. وكانت هناك اعياد ومناسبات يُحتفل بها محلياً او حسب الاقلية الدينية. اتذكر ان الشيعة والسنة كانوا متقاربين مع

بعضهم على رغم اختلاف شعائرهم الدينية لذا اتذكر هذا التقارب في مناسبات كثيرة مثل مناسبة المولد النبوي الشريف الذي يحتفل به عامة المسلمين، وكان يوم عطلة رسمية. كانت الاحتفالات بتلك المناسبة تكون في مختلف انحاء البلاد، وفي بغداد تكون الاحتفالات بالذكرى على اوجها، وحسب ذاكرتي في مناطق معينة غالبيتها من السنة في بغداد مثل منطقة الاعظمية، التي تعودنا عليها ان تكون مركزا للاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، وخصوصاً في مسجد الامام أبي حنيفة النعمان وماحوله، وكذلك في منطقة باب الشيخ، وتحديدا في مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني. وليلة المولد تكون ليلة احتفالية جميلة وقد شاركت تلك الفرحة مع اخواني المسلمين في كل البلاد والعالم الاسلامي، ومن مظاهر الاحتفالات التي شاهدتها منذ طفولتي وربيع عمري، هي النقر على الدفوف والطبول ومعها ينشد المشايخ بالاناشيد الدينية ومديح رسولنا الكريم (وكان التلفزيون العراقي يبث المنقبة النبوية التي يتابعها كل العراقيين بفرحة وخشوع)، وترفع الرايات الخضراء الجميلة وتوقد الشموع احتفالاً بالمناسبة او ايفاء لنذر، وكذلك يتم وتوزيع الحلوى والاطعمة على الناس، ومظاهر الاحتفال كانت جذابة اذ تزين المساجد والشوارع بمصابيح جميلة تدل على البهجة والفرح، وكانت المشاركة عامة لالاف العراقين الذين يأتون من كل صوب للمشاركة الوجدانية بهذا الاحتفال اوغيره من المناسبات مثل الاحتفالات الصوفية والمشايخ (للاسف لم اشاهدها) ولكنني سمعت عنها الكثير.

ومن من تلك المناسبات، كانت مناسبة عاشوراء الاليمة التي تصادف في شهر محرم، وهي ذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام، وتلك الواقعة التاريخية تعتبر رمزاً للتضحية والانتفاضة ضد الظلم، فكانت هناك مراسم عزائية كبيرة وتتمركز في المدن الدينية العراقية، وكان من الملاحظ حينها ان السنة من المشاركين الصميمين في تلك المناسبة، وهذا ما عايشته مع عوائلنا واصدقائنا والجيران وكان العاشر من محرم عطلة رسمية في انحاء البلاد. وكان الناس في وطني يحييون تلك المناسبة الاليمة بنصب العزاء، وهيئات المواكب الحسينية، ويوزعون الماء والنذور على المارة لذكرى للامام الحسين الذي قُتل عطشاناً، ويطبخ الرز و(القيمة) في قدور كبيرة تيمناً او ايفاء لنذر، وشعائر اخرى لهذه المناسبة التي كنت الاحظ فيها

تعمق الحب والتفاهم والمشاركة في الالم بين اطياف الشعب. اتذكر ان المواكب الحسينية التي كانت تجوب شوارع مدينة الحرية، التي كانت محل سكن عائلتي، كانت صغيرة وتنظيمها اقل من المواكب الحسينية في مدينة الكاظمية التي كانت اكثر تنظيماً وتوسعا لان هذه المدينة تعتبر من المدن الدينية المقدسة في العراق لوجود مرقد الامام موسى الكاظم. اتذكر ان عمتي اخذتني مرة الى مدينة الكاظمية لاحياء ليلة العاشر من محرم (عاشوراء)، وكنت في الصف الخامس الابتدائي حينها، وقضينا ليلتنا على سطح احدى العمارات وحسب ذاكرتي كانت عمارة العكيلي المشرفة على مرقد الامام موسى الكاظم، مع اقارب لنا دعونا لاحياء تلك المناسبة المفجعة، وكان الوقت حينها صيفاً. وتبدأ في الساعة التاسعة مساء مسيرة المواكب الحسينية بالمرور، وكل موكب يمثل الواقعة بشكل مأساوي محزن ومتقن من حيث الشخصيات التي مثلت الطرفين في واقعة الطف وتسمى بـ(التشابيه)، وكانت الخيول العربية المدربة من العناصر المهمة، وكانت الوان الازياء الزاهية التي تلبسها شخصيات تلك الملحمة تدل على من يرتديها، وكذلك الاعلام الخضر والحمر تبهر المشاهد وتترك اثراً ذا عمق انساني في نفوس المتابعين. كان كل شيء متقنا في المواكب الحسينية، من اجل العرض التاريخي الملحمي المأساوي الذي يكون قد تم التحضير له منذ اشهر. تلك المراسيم وطريقة الاداء قد ابهرتني بتمثيلها للواقعة بشكل درامي جميل، حيث تظل الناس ساهرة طيلة الليل تتابع التجسيد الدرامي المؤثر للواقعة، وفي الفجر يتم (التطبير) بضرب الرؤوس بالسيف، والمطبرون يلبسون الكفن، وهذا لم اشاهده لانه منظر مفزع لطفلة، ولم ارغب برؤيته، وفي الصباح كان يتم تصوير المعركة، ويتم ذلك في صحن الامام موسى الكاظم، اذ تنصب خيام عوائل الامام الحسين وتجري المعركة، ومن مكاننا لم نكن نشاهد المعركة بل نسمع اصوات المقاتلين وقصائد تلقى عن لسان الشخصيات، وكذلك صوت الخيول وصهيلها، وكانت النسوة المتابعات لمعركة الطف يصرخن اذا قتل احد من عائلة الحسين، وفي نهاية المعركة وبقتل الامام يتم حرق الخيام وتشريد الاطفال والنساء والمعروف عندنا بالسبايا، وبعد ذلك تجري التعازي بمقتل الامام بالضرب على الرؤوس والحزن الكبير. واتذكر ان والدتي وعماتي في اليوم العاشر

كانوا يطبخون النذر وهو الرز ومرق القيمة بكمية كبيرة ونستمع الى المقتل الذي تبثه اذاعة بغداد، وبعد الانتهاء من الطبخ الذي يتم التحضير له قبل ايام يتم توزعيها على الاهل والجيران، وكنت اذهب مع احد اخوتي حاملين جزءا من النذر لننقله الى عوائلنا في منطقة الكرخ تيمناً بهذا اليوم

في سردي عن مشاركتي في تلك المناسبات، ارى اهمية ما ذكرته سابقاً، من ان عائلة والدي من سكنة منطقة الكرخ في بغداد ويعتبر سكنتها من السنة، وان عائلة والدتي من سكنة الكاظمية، ويعتبر سكنتها من الشيعة. لذا كنا نحتفل باغلب المناسبات وهذا حال كثيرا من العوائل. ونتيجة توسع بغداد وزيادة سكانها كانت الطائفتان تعيشان بمحبة واخاء.

وتحضرني ذكرى مفارقة جميلة، وهي ان زوج احدى عماتي التي تسكن في منطقة شعبية في بغداد، كان في منتصف الثلاثين من العمر(وله تفكير يساري)، يطُلب منه في عاشوراء تمثيل دور احد شخصيات اهل البيت المهمة للموكب الحسيني في منطقتهم لكونه رجلاً قوياً ووسيماً. وحسب ما رواه لنا زوج عمتي انه لعدة سنوات في عاشوراء يمثل شخصية «العباس»، وكانت نساء المنطقة يتباركن بلمس ثيابه وطلب الدعاء ورشه بماء الورد والخ من الاحاسيس الجميلة، وفي المرة الاخيرة طلب منه الموكب الحسيني تمثيل شخصية شمر بن ذي الجوشن الذي شارك في قتل للامام الحسين، وفي هذه المرة كما سرد لنا زوج عمتي انهالت عليه النسوة باللعنات واحياناً بضربه بالاحجار والبصاق، فنفذ صبر زوج عمتي وبدأ يصرخ بحشود النساء بانه يمثل الدور ليس الا. ويبدو انفعال الجمهور هنا تأكيدا على ان العراقي يكره الظلم ويعبر عن ذلك الكره بقوة حتى وان كان الحدث تمثيلا وليس حقيقيا.

في نهاية السبعينات، وبعد وصول صدام الى الرئاسة، منعت الشعائر الدينية الخاصة بالاحتفال بذكرى عاشوراء، ومنها المواكب الحسينية وملاحقة من يخالف، والعقوبة تكون السجن ولربما الاعدام وحسب اهواء النظام. هذا المنع ادى الى تضيق الخناق على فئة من الشعب في حريتها، وكما هو معروف ان المس

بتلك الشعائر هو مس وتر حساس له عواقب وخيمة، وهذ بدوره، حسب تفكيري الشخصي، زرع الحقد والكره بين فئات الشعب نتيجة الشعور بالغبن والاضطهاد. ان هذا المنع سيكون له تداعياته في المستقبل واهمها الطائفية، والتطرف في ممارسة تلك الشعائر، وكما هو معروف في القوانين الفيزياوية ان لكل فعل رد فعل مساوي له في المقداراً ومضاد له في الاتجاه، فان ردود الفعل ستؤدي الى التشدد ولربما التطرف وترك الحكمة والموضوعية. ان تلك الشعائر الدينية التي كانت تمارس عبر التاريخ كانت تمر بشكلها الطبيعي الذي لا يمس اذى باي احد وللاسف كان لمنعها، حسب تقديري حينها، تاثير سلبي على الوحدة الوطنية، وسيجعل من اداء تلك الشعائر في المستقبل نتيجة الكبت والقهر دوراً في خلق صراعات غير مجدية بين فئات الشعب والابتعاد عن مضمونها الانساني واهميتها التاريخية.

لو رجعنا الى التضحيات التي قدمتها كل طوائف الشعب، والى الاعدامات التي حدثت بوجود النظام الدكتاتوري سنجدها متساوية، فكل اطياف العراقيين سنة، شيعة، اكراد، تركمان وغيرهم قدموا تضحيات واضطهدوا من قبل النظام بصورة موازية لاعداد تلك الطائفة وهنا احب التوضيح ان في كل بيت عراقي كان هناك عزاء. وكم تمنيت ان يكون وعي ابناء وطني عالياً وان يضع اللوم على حكومة البعث لممارستها القتل والاضطهاد لجميع فئات الشعب، وان لا نهدر دماءنا في التفرقة واخذ ثارات قد قامت بها مجموعة ارهابية من اهم هدفها التفرقة وقتل الانسان العراقي، هذه الامنية هي حلم سيبقى في داخلي متمنية ان تتحقق ونرجع شعب نعيش بسلام ومحبة واخاء، وان نتوحد ونعطي للاجيال القادمة كل ما تعلمناه من اصول انسانية بعيدة عن التعصب والظلم.

كنا نعيش ايامنا بين عذاب الواقع المرير وبين الماضي الذي كان يقض مضاجعنا باللوعة والبكاء وكوابيس المستقبل التي كانت تؤدي الى اضطراب كبير في ارواحنا العطشى الى الحب والاستقرار في احضان الوطن الذي حرمنا منه بقسوة ظالمة. كانت الايام تمضي والضياع الروحي يكبر معها وازداد هذا الصراع بمرور ذكرى عاشوراء التي كانت تعبر عن الظلم والقهر الذي هو امتداد لما حصل في كربلاء. مرور عاشوراء (والذي صادف تلك السنة في الشتاء البارد) علينا نحن المشردين

ظلماً في ايران كان له اثر عميق في نفوسنا، لكوننا اصبحنا سبايا الظلم في القرن العشرين. مروره كان يؤجّج من الامنا وجراحتنا التي كانت تدمينا يومياً لما جرى علينا من ظلم من قبل صدام وزمرته المجرمة التي لم ترحم طفلا ولا كبيرا ولا شابا. اخذت تلك الذكرى مساراً قاسياً علينا في المنفى القسري حيث الغربة والتشرد والقهر بالاضافة الى الحرب التي كانت تلتهم كل شيء جميل وانساني، وعمّقت من شعور السخط لدينا على النظام الحاكم المستبد في بغداد.

لم ار في طهران مراسيم العزاء المعتادة عليها في وطني مثل المواكب الحسينية والتشابيه، ومحافل العزاء النسائية في البيوت، لان البلد المضيف له تقاليده الخاصة بتلك المناسبة التي تختلف عما تعودنا عليه في الوطن، بالاضافة الى ذلك كنت اعمل في النهار فكانت مشاهداتي الخاصة اقل ولربما محدودة. المراسيم في البلد المضيف كانت تتمركز في المدن الدينية مثل «مشهد» و»قم»، اما في طهران فكانت تقام في المساجد والحسينيات، ولكني كنت الاحظ قطع الاقمشة والاعلام السود واليافطات المكتوب عليها ايات قرآنية او شعارات مثل «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء»، وتوزيع الماء والعصائر في شوارع العاصمة طهران وخصوصاً في جنوب طهران، اما شمالها فلم ار فيها اي مراسيم عزاء تذكر. كان والدي واخوتي يذهبون في تلك المناسبة الى الحسينيات العراقية للمشاركة في العزاء الحسيني الذي هو عزاؤنا، وكان يتجمع الرجال العراقيون المنكوبون في ساحة الحسينية، لسماع قصة واقعة الطف من القارئ وقصائد شجية حزينة الى جانب اللطم على وقع قصائد «الروادي»، التي كانت تزيد من شجون الرجال وبكائهم لما جرى عليهم من ظلم واستبداد مم قبل الطاغية وحكومته. وروى لي احد اخوتي ان الحسينية الكربلائية قد تأسست بعد الثورة (في زمن الشاه لم تكن الشعائر العاشورائية مسموح بها) بمساعدة المهجرين سابقاً وبعض المهجرين الجدد وبأمكانيات بسيطة، وكان موقعها في (شارع كولبندك) واستقبلت الحسينيات المهجرين وساعدت بعضهم في محنتهم. وكانت هناك الحسينية الكاظمية والنجفية التي اندمجت في مكان واحد، وحسينية للاكراد الافيلية. وكما ذكر اخي ان وفود المشردين العراقيين تأتي لتستمع لما ينشده القارئ من الم واحزان عن الغربة والظلم، ولتشابه المأساة قديماً وحديثاً، كان الجميع يبكي

ويصرخ وخصوصاً عندما تمتزج احزانهم الشخصية باحزان الامام الشهيد. كذلك كان البكاء والحزن الذي يعانيه اباء عراقيون على اولادهم المحتجزين او الذين اعدموا ظلماً بيد الطاغية وازلامه كبيراً فيصرخون عندما يقول القارئ يا حسيناه ويا غريباه، وذكر اخي انه «في حسينية الاكراد الفيلية كان رجل كبير في السن يبكي، وفجأة بدأ يلطم على صدره ووجهه صارخاً بلغته « يا حسين ساعدني... لقد قتل صدام اربعة من اولادي»، وزاد الرجل من ضربه على رأسه وصدره حتى سقط مغشياً عليه، وشاركنا الرجل المفجوع بأولاده وكان نحيبنا معه كبيراً، وتفطرت قلوبنا الماً عليه وعلى اباء اخرين فقدوا فلذة اكبادهم في سجون الحاكم المستبد الذي ليس له رحمة».

ذهبت مع عائلتي في اليوم التاسع من محرم الى بيت عمتي ام جواد في مدينة « قم»، لانها ووالدتي اتفقتا على طبخ النذر الحسيني لسلامة شبابنا وسلامة الجميع. وكان يسكن» قم» كثير من المهجرين العراقيين القدماء والجدد، وهناك ايضاً الكثير من العراقيين والايرانيين الذين اتوا من انحاء البلاد لتأدية الزيارة والمشاركة بالعزاء. للنساء العراقيات كان عزاء كبير لوطن اصبح اراقة دماء الشباب فيه سخياً، لذلك كنت ارى في المدينة المزدحمة حينها، أفواجا من العباءات السود لنساء عراقيات باكيات وبعضهن قد لطخن رؤسهن بالطين تعبيراً عن حزنهم، وكانت عمتي الكبيرة قد لطخت شعرها بالطين فابكاني منظرها جداً. اخذتنا بنت عمتي وجيرانهم بعد العصر الى بيوت عراقية تقيم العزاء الحسيني للنساء وما يسمى بـ»القراية». واول عزاء دخلناه كان في البيت الصغير الذي يعج بالنساء الباكيات وكانت القارئة وتسمى (الملاية) تقرأ نواحا على شباب اهل البيت، وكانت النساء تبكي دما ودمعاً على مصيبة اهل البيت، وبالاخص على مصيبتهن، فالغالبية قد اعتقل اولادهن او اعدموا على يد الطاغية، فكنت ارى النساء يبكين ويضربن على رؤوسهن، فكن يصرخن استغاثة بالله عز وجل من ظلم الجبابرة وقتل فلذات اكبادهن بدون سبب، كانت المناحة تُبكي الصخر، بكى الجميع ولطموا على ما جرى في ارض العراق التي جعلها الظلم والجبروت برمتها ارض فسيحة للظلم، واصبح العراق برمته كربلاء، وصل العزاء ذروته عندما قرأت القارئة (الملاية) عن قتل الشباب على يد الطاغية

يزيد، فبدأت النساء بالصراخ وضرب صدورهن ووجوهن، لان مصيبتهن تتشابه مع مصيبة نساء اهل البيت، وحينها انهت (الملاية) العزاء بدعاء الله عز وجل بفك سجن الشباب من سجون الطاغية صدام في وسط صراخ وبكاء النسوة، وكانت كلمة «امين» تتردد بصوت واحد مستصرخ الخالق بالرحمة وحسن العاقبة.

في هذا العزاء رأيت امرأة ذات ملامح جنوبية في نهاية الثلاثين من عمرها، سمراء وضخمة، كانت تلطم وتبكي بشكل غير طبيعي، فسألنا عن قصتها من بعض النسوة فقالت احداهن التي قد هجرت مع تلك المرأة المظلومة واسميتها الحجية لسماحة وجهها: « لقد هُجرت هذه المرأة مع عائلتها في اليوم التاسع من الشهر الرابع. هُجرت تحت ضغط السلاح بعد الظهر مع وزوجها واطفالها واولادها الذين تتراوح اعمارهم بين 14 عاماً وال19 من بيتهم في محافظة القادسية ولم يسمح لها الامن بأخذ اي شيء قائلا انها من ممتلكات الدولة، واخذوا مفتاح البيت وشمعوه بالشمع الاحمر. وبعد ذلك اخذوهم مثلنا الى مركز الشرطة في المنطقة وبعد اخذ اثباتانا الشخصية وسحب هوياتنا حتى المدرسية منها، تم نقلنا الى مديرية امن الديوانية، وبتنا تلك الليلة مع عوائل اخرى (كنا حوالي عشر عوائل) في انتظار التسفير الى ايران في الصباح، وقضينا تلك الليلة الرهيبة في سيارة التسفير وهي الزيل العسكري (هو شاحنة عسكرية ثقيلة) وحالتنا النفسية متعبة من الخوف والبكاء، وكان ازلام الامن قد منعوا عنا خلال هذه المدة (اليومين) الاكل والشرب والصلاة، واذا ارادت النسوة الذهاب لدورة المياه، كان الامن يصرون على مرافقتهم، ورغم كل التوسلات رفض مجرمو الامن ذلك الا بمرافقتهم، لذا رفضت النساء الذهاب لخجلهم وللخوف من اعتداءات يقوم بها سفاحو الامن وهي معروفة عنهم، اما الرجال والاطفال كانوا يذهبون لقضاء الحاجة مع مرافقيهم من رجال الامن وتصويب فوهة البندقية عليهم مما زاد من ذعر الاطفال. كان الامن يهددوننا كل نصف ساعة برمينا بالرصاص».

استمرت الحجية بالسرد ونحن ننصت لما تقول: « في صباح اليوم الثاني كان اعداد الامن قد تزايد وكان بعضهم يوجه اسئلة للمنكوبين عن باقي عوائلهم وهل معهم من مصوغات؟ وكان بعض الاطفال قد استقلوا سيارة التهجير من مدارسهم، والامن اخذ منهم الكتب المدرسية وسط بكاء الاطفال ورفضهم اعطاء

الكتب فقال واحد من ازلام الامن ان «هذه الكتب مستمسكات يستفاد منها العدو وهي اثبات لدراسة حاملها، لذلك علينا مصادرتها». وبعد العصر في اليوم الثاني وكانت ارواحنا واجسادنا قد تعبت مما جرى ويجري علينا، وهنا حصلت الفاجعة الكبيرة، حيث انزل الشباب ومن عمر 14 عاماً وما فوق وسط صرخ وبكاء الامهات ووضعت القيود المعدنية (الكلبجات) في ايدي الشباب والاحداث وساقوهم الى داخل البناية وسط صراخ الامهات واعتراض الاباء الذي لم ينفع مع المجرمين المتمرسين على القسوة والتعذيب».

ومن هذه المرأة التي كانت تنوح واخذوا ثلاثة من اولادها منها بأعمار 14ا 16ا 19 سنة وهي لا زالت شبه مجنونة وليست بوعيها مما حدث على ايدي زمرة الامن العامة. واصلت الحجية حديثها وهي من سكنة قضاء الشامية حديثها الباكي ونحن نشاركها البكاء المرير، وقالت: «بعد فجيعة اخذ الشباب، صعد في كل سيارة مسلحون من الامن العامة، وسار موكب الزيل العسكري ماراً بمدن عراقية مثل الكوت وبدرة وجصان وبعد ساعات طويلة، توقف الرتل لمرتين ولا زالت الامهات المفجوعات بأخذ اولادهن بين البكاء والنحيب والصراخ والتوسل الذي يلين الصخر منه، وصلنا الى الحدود الايرانية في قرابة الفجر، وانزلونا على الحدود العراقية الايرانية، وتركونا في العراء وقال احد المجرمين ساخراً «امشو الى الامام وستجدون الخميني ينتظركم». وبعد ان رحلوا اخذنا بالمسير في الاراضي الايرانية فوق الشوك والعاقول الذي ادمى سيقان الاطفال والنساء وليس لنا حلاً اخر سوى الاستمرار في المسير المضني، بعض الامهات الذين حُجز اولادهم رفضن المسير ولكن الجميع اقنعهم بالسير واعطوهم املاَ بالفرج لاولادهم لعدم وجود تهمة معينة. مشينا ونحن حوالي اكثر من خمسين شخصا (اطفال ونساء ورجال متقدمين في العمر) حوالي اكثر من ساعة بين البكاء والعويل، ترك الكثير منا امتعتهم لثقلها ولما تسببه من عرقلة في السير. وبعد اكثر من ساعة وصلت عدة باصات سياحية ايرانية ورحب بنا حراس الثورة (كما كان يطلق عليهم) بكلمة خشومديد التي لم نكن نعرف معناها لعدم معرفتنا باللغة الفارسية، ونقلونا الى مدينة مهران وساعدونا بالعلاج والاغذية وتوزيع المعونات

علينا بشكل سخي. ومن ثم سجلوا اسماءنا ونقلونا الى منطقة «خرم اباد»، وبقينا هناك في بناية الجامعة، وكانت المساعدات كثيرة جداً وسخية ولكن نفوسنا كانت متعبة من الظلم والكثير منا كان ينوح باستمرار وبالاخص الامهات الذين اعُتقل اولادهم. وبعد ايام نقلونا من «خرم اباد» الى مخيم «ازنا». وهنا التقينا مع عوائل هجّرت قبلنا وكانت مأساة كبيرة، وقد تكفلنا بعد مدة بعض التجار الايرانيين، واختار بعضنا مدينة قم للسكن لان قربها من الضريح يواسينا ويذكرنا بمصائب اهل البيت. من ضمن حديثها ان كثيراً من عوائل من الديوانية قد سُفروا وليس لهم عرق او حتى صديق ايراني، ومن المسفرين كان بعضهم ينتمي الى الحزب الحاكم ولكن لم تشفع لهم عضويتهم وسفروا ايضاً الى ايران. وذكرت ايضا ان «من ازلام الامن العامة شخص معروف في الناحية بقذارته وجبروته ومعدوم الضمير لانه كان يعذب الشباب بشكل قاسي»، واتذكر انها اسمته « مفوض فليح»، ومن وسائل التعذيب هي التعليق بالمروحة، السير على الزجاج او المسامير، الكوي بالكهرباء، الضرب بالصوندات (الانابيب البلاستيكية)، سكب الماء الحار والخ من طرق تعذيب اخرى غير انسانية عذبوا بها شبابا ابرياء من كل جرم، وحرقوا قلوب امهاتهم. وكان هناك شخص اخر ايضاً يدعوه بلقب «ابو صلاح» ينتمي الى اجهزة التعذيب، وكانت هناك امرأة تدلي على البيوت كي يُهجر اصحابها واسمها «صبيحة عباس شمخي». وذكرت الحجية ان جيرانهم قد اعدم قبل اسبوع من التسفير وسفرت باقي عائلته ايضاً الى ايران، وان واحدا من عائلتها قد هددوه بقطع اللسان اذا لم يعترف ولعدم وجود اي ارتباط سياسي لهذا الشاب، واسمه (عادل محمد ٢٢ سنة)، فقد قطعوا لسانه. ومما ذكرته لي ان هناك شابة معهم التقت معها عند الحدود ذكرت ان سراق الامن قد سرقوا منها من اخواتها اسواراتهن الذهبية والقلائد وكانت تبكي قائلة انهن جمعن تلك الاساور بحياكة العباءات وتطريزها وهذا حرام وظلم. شاركنا بعض النسوة بالحديث وكانت هناك قصص وقصص لا يصدقها العقل لما حدث في وطننا، وكم من ايتام وارامل وعوائل ذاقت العذاب تحت رحمة طاغية العصر واعوانه، وكل القصص التي لا استطيع حصرها هي حقيقية، ولو اردنا تدوين كل هذه المآسي فاننا نحتاج لالاف الكتب ومئات الالاف

من الصفحات، ولكن للاسف ستبقى مجهولة ولربما دفُن او وسيدفن ضحايا الاستبداد مع قصصهم الى الابد.

رجعنا الى بيت عمتي وقد هدّني الحزن واتعبني البكاء، لما سمعت فنمت تلك الليلة، ورأسي مشغول بما سمعت، كنت اتعجب كيف يقتل الانسان اخيه الانسان او يعذبه، وكنت اتساءل هل لأزلام الامن امهات ونساء واطفال؟ هل لهم مشاعر انسانية وضمير؟ وكيف يتعاملون مع اطفالهم وايديهم ملطخة بدماء الابرياء من الشباب والاحداث؟، وهل كل ما يقومون به من جرائم يساوي المال الحرام واللقمة الحرام؟ كثيراً من الاسئلة كانت تشغلني عن شخصيات هؤلاء ونفوسهم المريضة. رجعنا في عصر اليوم التالي وبعد الغداء الحسيني الى بيتنا في طهران وكان يوم عاشوراء حقيقي بالنسبة للمهجرين، وبداية جديدة لعصر فقد ما نسميه بالانسانية، ومرت ذكرى عاشوراء لتكون ملحمة جديدة للظلم تدور في القرن العشرين، مثلما كنا فيها سبايا لواقعة طف جديدة.

41

مسيرة ضد نظام صدام

التعليم في كل الأزمان يعتبر معيار لرقي الحضارة وتقدم البلدان، والانسان المتعلم يكون ركيزة مهمة في عملية تغير وتقدم المجتمع نحو الافضل. للأسف في بلدي كانت نسبة غير المتعلمين عالية جداً، وخصوصاُ الشباب وسببه هو شظف العيش، فكثير من الشباب كان عليهم العمل وترك المدارس للمساهمة في معيشة الاسرة. اما الشابات فكان مصيرهن غالباً الزواج في وقت مبكر. اتذكر ان وجود المدارس كان في بغداد العاصمة وفي المدن الكبيرة أكثر كثافة من القرى والأرياف، حيث كان التعليم هناك ضعيف القدرة من جميع النواحي، فالطلاب يجلسون على الأرض ناهيك عن قلة امكانية عوائلهم لتلبية المتطلبات اللازمة لاستمرار الدراسة، طبعاً اتكلم عن مرحلة ما قبل السبعينيات وما بعدها اذ اصبح التعليم الزاميا وهو ما أدخل تطورات ملحوظة في هذا الجانب. ولهذا كانت آفة الفقر والجهل مسيطرة على الشعب العراقي رغم ثروة بلاده الطائلة. منذ بدء الدراسة في المرحلة الابتدائية كان هناك دروس الوطنية والتربية الدينية الى جانب دروس القراءة والحساب والعلوم. كان لدرس الوطنية والتربية الدينية دور كبير جدا في ترسيخ حب الوطن والانتماء اليه، وكذلك له دور تربوي كبير بزرع المحبة والتصافي والشجاعة في شخصية شباب المستقبل. اتذكر ان حب الوطن والذود عنه وحمايته كان يترعرع فينا في كل المراحل الدراسية. وكانت المناهج الدراسية وكما اتذكر مناهج جيدة ومستوى التعليم ليس سيئاَ.

عند استلام حزب البعث السلطة وقيادة البلاد استُبدلت المناهج التعليمية بمناهج اخرى بعيدة كل البعد عن القيم التربوية والوطنية، ولتصبح مناهج جديدة

لها تأثيرها السلبي في السيطرة على عقول التلاميذ، وهدفها الاساسي ترسيخ مبادئ الحزب الارهابية والولاء للحكومة والقائد كبديل للحب والولاء والانتماء للوطن لدى التلاميذ. وبهذا نشأ جيل مهمش ضائع منقسم على نفسه بين الظالم والمظلوم والانتهازي. وجند الجيل الجديد ليكون قوة الحزب المستقبلية التي يعتمد عليها في السطو على المواطنين الابرياء. وفي المدارس بدأت بوادر تنظيم الطلبة الصغار في منظمات ارهابية يتعلمون فيها كتابة التقارير وممارسة العنف والتدريب على استعمال القسوة وتلقينهم الانحراف الخلقي والانساني من اجل حماية القائد ومن معه. وبهذه الطريقة التربوية البشعة فقد الاطفال براءتهم ناهيك عن حرمانهم من طفولتهم وحب الوطن.

ذكرت في احد النصوص السابقة ان الجامعات في ايران حينها كانت مغلقة، اما المدارس قد افتتحت بعد انتهاء العطلة الصيفة 1980، وبدأ العام الدراسي الجديد ودخل بعض اولاد الجالية العراقية (التي اخرجت عوائلهم من المخيم بكفالة) الى المدارس وتم تسجيلهم بالاستفادة من الكارت الاخضر الذي ليس له صلاحية اكبر، وفيها ملاحظة بأن حامل البطاقة من (التبعية العراقية). اغلب المشردين لم يكن يعرف بتلك الامكانية. طبعاً المدارس كانت تدرس باللغة الايرانية، والاطفال والاحداث كانوا يجدون صعوبة بذلك، لذا كان هناك متطوعون من المهجرين العراقيين القدامى لترجمة المادة من الفارسية الى العربية، وفي نفس الوقت تعليمهم اساس اللغة الفارسية. وللأسف كان الكثير من الاطفال والاحداث يتعلمون المهن الحرة بدلاً من التسجيل في المدارس، لأجل مساعدة عوائلهم في المعيشة الذين كانوا يعانون من العوز والحاجة. وسيطر الخوف من قبل بعض العوائل على اولادهم الصغار من نسيان اللغة العربية اذا تعلموا اللغة الفارسية، والكثير من العراقيين المشردين كانوا يأملون بالرجوع الى العراق.

العراقي المهجر(المرأة او الرجل) الذي يمتلك الجنسية الايرانية او له جذور ايرانية، كان بإمكانه الحصول على الجنسية الايرانية حينها، ولكن كما ذكرت كثيراً من العراقيين لم يفعلوا ذلك، املاً في العودة الى العراق، بالإضافة الى ذلك كان هناك الخوف على ضياع ممتلكاتهم المسلوبة. كما ذكرت سابقاً ان اخوتي بدأوا

بالعمل الذي كانت العائلة بأمس الحاجة له، وضاعت هذه السنة الدراسية على اخي احمد لأنه كان يعمل مثل اختي الصغيرة، اما اخي الصغير منصور وكما ذكرت انه لا يحب المدرسة لذا رفض الدخول الى المدرسة واستمر بالعمل. في خريف 1980 انتشر خبر بين المهجرين العراقيين فحواه ان الجماهيرية الليبية تطلب عمالا عراقيين من المهجرين والعهدة على الراوي، لأني لم اتحقق من الخبر. كان اخي منصور يشجع الجميع للسفر الى ليبيا وترك ايران، ولكثرة الحاحه سألنا اخوتي عن سبب الحاحه بالسفر، واخبرونا ضاحكين عن السبب وهو ان منصور يريد الفرار من اسم مدرسة والتعليم، وحسب احلامه الطفولية البريئة اننا سنسافر كل عام في بلد اخر وبهذا سيصبح دخوله الى المدرسة من سابع المستحيلات، ضحكنا معه في فكرته الجهنمية، وهنا اعلن منصور اضرابه النهائي عن المدرسة طوال العمر وفضل العمل على الدراسة، واستسلمنا جميعاً لرغبته بعد ان خسرنا المباحثات والمحاولات معه.

بعد أشهر قلائل من وجودنا في طهران التقى احد اخوتي بأحد افراد عائلة ام رضا (العائلة التي التقيناها على الحدود)، ولم يكن وضعهم افضل منا والعائلة كانت تعيش في بيت خالتهم، وكان هذا ليس بالأمر اليسير عليهم ايضاً. وزرناهم في بيت خالتهم وقضينا معهم اليوم نتحدث فيه عن همومنا ونتذكر ايام المخيم المتعبة في اصفهان، ثم زارونا في بيتنا في طهران وكان لقاؤنا بهم فيه كثير من الشجن والحنين الى الوطن. كانت أوضاعهم متعبة، لذا كان الشباب يبحثون عن عمل لكسب لقمة العيش. واعتاد اخوتي بلقاء شباب عائلة ام رضا في «كوجة مروي» في ايام الجمعة يتباحثون بها ما يجري في الوطن الام، وما ستؤول له الحرب وكيفية الخلاص من وضعنا التشردي. بعد فترة وجد اصدقاؤنا عملاً من اجل مساعدة عائلتهم في ايجاد سكن جديد ولم يكن هذا ايضا باليسير، كانت هناك عراقيل كثيرة مروا بها ولكنهم مثل عائلتي اصروا على الاستمرار رغم كل العذابات، وفي نهاية المطاف (ولربما اكثر من سنة لا اتذكر ذلك بدقة)، استطاعوا ان يأجروا شقة صغيرة جداً معتمدين بها على انفسهم ووجدوا ضالتهم في ايجاد الراحة من عذاب الخجل بالاعتماد على الاخرين.

أصبحت الأغاني العربية او العراقية بما تحمله من تعبير صادق عن اللوعة والألم

والحنين والحرمان، جزءا من يومياتنا التي كان يطغي عليها الحزن، لكثرة المآسي التي كنا نمر بها وكان سماع تلك الأغاني لها وقع خاص على جرحنا الكبير ولروحنا المتعبة وللحالة المأساوية التي نمر بها، لأنها كَانت تترجم واقعنا بما نمر به من ضياع وحنين، لذلك باتت تلازمنا في كثيرا من الأحيان، والاستماع اليها يعيدنا الى الزمن الجميل لما فيها من شجن وعاطفة والبكاء على واقعنا المرير.

اتذكر يوما في بداية التشرد كنا مدعوين في بيت خالي سليم وحاملين همومنا وحاجياتنا البسيطة معنا، وحسب قول اختي الصغيرة جلاجيلنا التي هي كل ما نملك حينها. بعد وجبة الغداء التي لم نتذوق منها سوى الخجل فتح خالي سليم الراديو على احدى الاذاعات العربية، وكان قصده الترويح عنا والاستماع لبعض الاغاني العربية، لذا تركنا خالي مع احدى الاغاني وذهب هو خارج الغرفة لفترة اكثر من ربع ساعة. وكانت تذاع حينها اغنية «زمان غريب يا زمان» للمطربة فائزة احمد وعند سماعنا للأغنية جلس كل واحد منا نحن الشباب في زاوية من الغرفة، وكانت كلمات الأغنية حزينة وحركت أحاسيسنا المتعبة من كابوس التشرد، وبدأنا بالبكاء الصامت، كلّ منا يفكر بداخله عن مرارة الزمن ولوعة الفراق وعندما وصلت الاغنية الى مقطع يقول:

احنا افترقنا ليه

احنا جرا لنا ايه

بدأ بكاؤنا يشتد ويصبح شجنا ولوعة ودموعا حارقة تعبر بما نحس به، وكيف لعب الزمان لعبته بنا وكيف أصبحنا بين ليلة وضحاها، مشردين.

عندما عاد خالي الى الغرفة رأى الجميع يبكي في مناحة لم يكن يتوقعها، فحزن وغضب وسارع بإغلاق الراديو قائلا «هاي شبيكم عبالي ترفهون عن نفسكم شو قلبتوها مناحة». وبدأ يهدّأ من روعنا ومن ثم بكى معنا لما رآه من حزننا العميق، وكيف كانت قلوبنا تبكي وتشكو مما يدور. وهذه الأغنية وبكاؤنا بقيت في ذاكرتي وذاكرة عائلتي الى يومنا هذا، نتذكر وقع تلك الأغنية حينها وتذكرنا بأيام التشرد والمعاناة. ومن الاغاني التي كنا متعلقين بها بشدة هي اغنية «سنرجع يوماً الى حينا»، لأنها كانت تعطينا الامل بالرجوع الى حياتنا ووطننا الفقيد.

حتى الملابس التي حملتها معي في رحلة التشرد القسرية، عندما كنت ارتديها ورغم انها غُسلت لعدة مرات، كانت تحمل في ثناياها رائحة شوارع مدينتي التي أشمّها وأتنفّسها كأنها عطر ثمين ونادر، لا زالت تحمل لي ذكريات الناس والاصدقاء الذين رأوني ألبسها. كنت شابة مليئة بالفرح والزهو كعصفورة مرحة في عالم المحبة الجميل الدافئ في وطني، اشعر اني بعد ما مررت به من مأسي كبرت في العمر وتبدلت ملامحي، واصبح الحزن والتعب واضحا على وجهي. الرغبة في ان اعيد المرح والفرح الموءود كانت غالبا تبوء بالفشل، حتى ضحكتي اصبحت يتيمة وكان النفور من الايام يحل محلها، كنت أسأل نفسي لمن وبمن تزهين يا طفلة الأمس في غبرة الايام وغربة الروح؟

ما بين كوابيس التشرد كنت احيانا افتح نوافذ مضيئة من الماضي القريب اتذكر فيها اصدقائي واحبائي واحاديثنا المفعمة بالطيبة والصفاء، والان اصبحوا في عالم بعيد لا نعرف عن بعضنا شيئا، وعندما أصحو من الذكرى أجد نفسي وحيدة حزينة أجترّ همومي وغربتي. ولكن رغم الخيبة والحزن كنت افتح تلك النوافذ بين حين وآخر كي تمدني بطاقة الاستمرار وتعطيني حلما كاذباً بالعودة ولقاء الاحبة من جديد.

كي اكون منصفة في سردي عن الدولة المضيفة، فان الحكومة الايرانية كانت تساعد المشردين حسب قدرتها، وان بقاء بعض العوائل العراقية في المخيمات، كان اختياراً وليس اجباراً رغم وجود بعض الكفلاء الايرانيين، ولأسباب اقتصادية لعدم قدرة العوائل المهجرة على دفع اجور السكن والمعيشة لان ليس لها معيل وفرص العمل قليلة وعائق اللغة، ما اكتبه هو ليس دفاعاً عن ايران ولكن هو سرد حقيقي، فلكثرة العوائل المهجرة من كل صوب والنازحين والهاربين من العراق كان له تأثير كبير على توفير الخدمات الضرورية لهذه الاعداد الهائلة من المشردين، ومن طرف اخر كانت البلد ايران في حالة حرب.

كانت فئات من الهاربين العراقيين الذين دخلوا ايران بصورة غير قانونية ولم يكونوا مسجلين بسجلات الدولة رسمياً، وهناك كذلك الافغان المشردون والقادمون

هربا من دمار الحرب في بلدهم الى ايران بصورة غير قانونية، واحتضان هذا العدد الهائل من العراقيين والافغان بصورة مباشرة وغير مباشرة من قبل ايران كان انسانيا، وكانت أبواب الجارة ايران مفتوحة للجميع من كل صوب ومكان، ولم يكن هناك تفتيش او مراقبة وكان حينها الانسانية والعقيدة الانسانية المتسامحة موجودة عند الشعب الايراني.

ان نشوب الحرب العراقية الايرانية قد ادى الى اغتيال امل الرجوع الى الوطن الذي لطالما داعب احلامنَا، واصبحنا مشردين نخوض في جحيم الضياع وكانت نفوسنا المليئة بعذابات الظلم الذي جرى علينا وفقدان الأمل بوجود حل ينتشلنا من واقعنا المرير. لقد كان تهجير العوائل مستمرا وبوحشية اكبر تحت ظروف الحرب، كنا نسمع من اخوتي احاديث عن القتل والتشريد والضرب والإهانات والسلب والاعتداء على الاعراض والتعذيب الوحشي الذي شمل النساء والشباب والاحداث وحتى الاطفال، والتفريق بين العائلة الواحدة قد زاد بهمجيته في تلك المرحلة، وبعض افراد العوائل المهجرة يلاقي حتفه في الطريق الوعرة نتيجة الجوع او البرد لان الثلوج والامطار كانت تسقط بغزارة او نتيجة انفجار للألغام المزروعة. لا احد يعرف ما جرى للعراقيين من قسوة التهجير التي لا تتماشى مع قوانين حقوق الإنسان والأعراف الدولية، ولم يكن هناك حينها من يجرؤ على فضح النظام بما يمارسه من همجية ضد العوائل العزل، لان العلاقات الاقتصادية والمنافع من تلك المأساة البشرية كانت أقوى من اي حس انساني.

لقد قدم الكثير من الشباب المهجرين شكاوى واعتراضات، وقّعنا عليها ووجهت الى المنظمات الانسانية ولكن كان السكوت هو الجواب، وتركنا في قضيتنا وحدنا دون اية تلميحات عما يجري في عالمنا الذي اصبح الانسان فيه من ارخص السلع. في خضم ضياعنا وقهرنا مما حدث لنا من ظلم واعتداء من قبل النظام اللاإنساني. كان المهجرون العراقيون في حالة تخبط كبيرة ويبحثون عن منظمة انسانية او شخصية سياسية من المهجرين تمثلهم وتتفهم همومهم وتمتص العذابات التي نمر بها والاحساس بالمرارة، كان احتياجنا كبير لمنقذ لنا لان العالم الانساني قد اغلق ابوابه في وجوهنا. وللأسف كانت هناك احباطات كبيرة لنا جميعا لان الساحة كانت

شبه خالية من منقذ، ولم يكن هناك من يوحدنا ويحمل لنا بوادر أمل في التغيير. حسب تجربتي الشخصية ان في كل المنافي اينما كانت، وكنتيجة الغربة والبعد عن الوطن والأهل، يحاول الغرباء او المشردون التجمع مع بعضهم لتداول معاناتهم وعذاباتهم واخبار الوطن ومحاولة احياء تراثهم، لذا لعبت الحسينيات العراقية، المساجد، «كوچه مروي»، «پارك شهر» وغيرها من مراكز تجمع العراقيين المشردين في طهران دوراً كبيراً في تجمع العراقيين، والبحث عن همومهم وتداول أخبار الوطن والتخبط في مطبات المستقبل المهمش.

في احد الايام الربيعية، كانت هناك دعوة لمسيرة نسوية نظمت من قبل الحسينيات ونظمتها النساء العراقيات المهجرات، كان هدف المسيرة مقابلة السيد محمد باقر الحكيم (الذي كان يسكن في طهران بعد هجرته من العراق) لانه كان معروفا بمناهضته للظلم الجاري في العراق ولحكومة صدام ومن المعارضين الاقوياء المعروفين حينها، ومطالبته بمتابعة أحوال السجناء ومطالبة الحكومة العراقية بالإفراج عنهم. قررنا نحن البنات المشاركة في تلك المسيرة النسائية مع والدتنا للتعبير عما نمر به من غذابات ومشاركة نسائنا في محنتهن. ذهبنا في ذلك اليوم انا واخواتي مصطحبين والدتي معنا الى مكان التجمع النسوي امام احدى الحسينيات. وكانت هناك حوالي اكثر من مئتي امرأة عراقية من النسوة المهجرات، وكان معظمهن يرتدين العباءة العراقية السوداء، ويبدو الحزن والاسى على وجوههن. عند وصولنا واختلاطنا بهن، استمعت الى قصص كثيرة من النسوة وما مررن به من عذاب في التهجير، والقصص كانت تتشابه، فهناك من حجز اولادها والاخرى قتل زوجها وفقدت الاحبة، وهناك نساء يجهلن ما حدث لأولادهن المحتجزين في سجون حكومة الارهاب.

انطلقت المسيرة بعد الظهر في موعدها المعلن، شاهدت عددا من الأعلام العراقية واللافتات التي كتبت عليها شعارات ضد حكومة بغداد وشعارات تندد بصدام (باللغة العربية والفارسية) وكان هناك بعض النساء يرفعن صورا لأولادهن او ازواجهن الذين قد احتجزوا في سجون الطاغية او قتلوا. والنسوة منظمات تلك المسيرة او التظاهرة، كن يهتفن بهتافات استنكار ضد النظام في بغداد والمطالبة

بحلول(للأسف لا اتذكرها حرفيا) وكنا نهتف بأعلى اصواتنا. اتجه موكب النساء الثائرات على الظلم الى بيت السيد محمد باقر الحكيم (طبعاً سمعت بوجوده في ايران، لكني لم اشاهده سابقاً)، كان يقال عنه انه رجل دين معتدل، يحب العدل والمساواة، وضد الظلم الذي يجري في العراق. استمرت مسيرتنا اكثر من ساعة في شوارع طهران وكان ردود فعل الشارع الايراني متعاطفة وتضامنة معنا، وانضم بعض النساء الايرانيات الى المسيرة والبعض الاخر كان يشاركنا بدموعه، بعد ذلك وصلنا الى بيت السيد الحكيم، كان هناك قليل من النسوة العراقيات في انتظارنا امام الدار، ادخلنا بعض المنظمين للمسيرة بانتظام الى باحة الدار التي يسكنها السيد الحكيم وكانت ضيقة لم تتسع لجميع النسوة لصغرها، لذلك وقفت اغلبية النساء امام داره، ومن حسن الحظ واتتنا الفرصة انا وعائلتي وسمحوا لنا بالدخول الى بيته لأننا كنا في مقدمة المسيرة. كان السيد محمد باقر الحكيم ينتظر مع زوجته مسيرة المشردات. دخلنا ونحن نهتف بشعارات ضد الظلم والطاغية وبعد دقائق ساد الهدوء وصمت الجميع اذ بدأ سماحة السيد الحكيم بالتحدث الينا.

كان رجل دين ذا هيبة ورصانة، في حوالي الاربعين من عمره، يبدو على وجهه التقوى والهدوء، وفي لمحات وجهه احسست سماحة ومحبة وانسانية، وهذا ما شعرت به عند رؤيته وكان فضولي يزاد لمعرفة دواخله. بعد فترة وجيزة من الصمت ألقى علينا السيد الحكيم التحية بصوت رزين وهادئ، ثم قرأ اية من القرآن الكريم وحسب ما اتذكر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأَكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ صدق الله العظيم، وبعد ذلك تحدث الينا بصوت ثابت وقوي ورأيت في عينيه الواسعتين مسحة ألم وحزن، واستمر بقوله لنا: اخواتي أعرف وأحس بما تقاسون من لوعة التهجير، وما تمرون به من عذاب لفقدانكم للحياة الكريمة وفقدانكم لأولادكم، ويحزنني بكاؤكم على ذويكم ممن يحتجزون في سجون الارهاب وعدم معرفة مصائرهم. ومما قاله ايضاً انه يدعو الله عز وجل بفك سجن الشباب من يد الكفرة وسيسعى بمطالبة حكومة العراق الارهابية بالإفراج عن المعتقلين خلال فترة التهجير وكل المعتقلين لأسباب

عرقية او عقائدية، ثم اضاف انه سيحاول قدر امكانياته، مساعدة المهجرين العراقيين في ايجاد حل لازمات كثيرة بالتشاور مع الجمهورية الاسلامية، وهو يشاركنا محنتنا. ثم اوصانا بضبط النفس والالتزام بالصبر والدعاء لرفع الغمة عن الوطن وان لا ننسى شعبنا الذي يعاني من الظلم والاضطهاد تحت حكومة ارهابية لا تعرف الانسانية ولا الدين، اوصانا ان لا ننساهم بالدعاء، كانت بعض النسوة يبكين لحديثه لما فيه من عمق ووجدانية وللمرارة والعذاب الذي يعشنه، والبعض الاخر ينصتن لكل كلمة يقولها. في نهاية كلمته شكر لنا حضرونا وودعنا بالدعاء بان يزيل الله الغم عنا ويحمينا. رأيت بعض النساء يسلّمن الحكيم رسائل او عرائض من اجل مساعدتهن. خرجنا من بيته بانتظام ووقفنا نتحدث مع بعضنا مفسرين ما تحدث به، كنت اشعر بارتياح كبير لكلماته الصادقة، ولكني كنت افكر هل لهذا الرجل الورع الحكيم امكانية في مجابهة الظلم الكبير لنظام صدام الارهابي الذي يجري على مرأى العالم؟ وهل هناك من رجاء منتظر؟ تفرقنا بعد ذلك وكل منا ذهب الى حال سبيله، واتجهنا مع والدتي الى دارنا. وكانت تلك هي أول مسيرة نسوية اشارك بها ضد نظام صدام وكانت في المنفى.

42

مآس وطرائف في ليالي المنفى

الحياة كانت مستمرة بشكلها الرتيب، وعتمة الشتاء زادت من رتابتها. كان الألم الروحي الذي لا يفارقنا لبعدنا عن الاحباب والوطن يزداد، وكل ما نمتلكه وعزاؤنا الوحيد هو وجود العائلة مع بعضها. الخوف من المستقبل والآهة والدمعة والحسرات كانت ملازمة لمسيرتنا التشردية. كنا نحاول ان نقلل من وطأة التعب النفسي في الاجتهاد في العمل والانغماس فيه.

ومن الذكريات التي بقيت عالقة في ذاكرتي زيارة «زهير»، ابن عمي صادق، الذي جاء من اصفهان الى طهران بعد عدة اشهر من تهجيرنا ولا اعرف تاريخ الزيارة بالتحديد. زهير «ابو فراس»، هو رجل مثقف ذو شخصية مرحة كان يزورنا غالبا في بيتنا في بغداد، كونه يسكن في بيت عمي صادق القريب من بيتنا. كان حديثه ممتعا لما فيه من مرح ويخبرنا عن آخر قراءته الادبية ويملأ مجلسنا أنسا وبهجة ومعرفة. اشتغل ابو فراس في وزارة التربية بعد دراسته المراحل الاولى من الاعدادية ومن ثم دخل دورة تدريبية فنية لتأهيله للعمل من عام 1974 الى عام 1979 في مشروع الثرثار الاروائي.

كان لابن عمي نشاط سياسي تقدمي، وقد سجن بسببه في قصر النهاية من 1971 الى نهاية 1972 وذاق عذاب السجن وعانى من أساليب التعذيب غير الإنسانية. صدر عفو عن السجناء السياسيين في بداية السبعينيات وكان مشمولا بهذا العفو، وبعد سنوات سجن ثانية عام 1979 في الفلوجة، قرب موقع عمله، ليوم واحد للأسباب نفسها وخرج بأعجوبة كبيرة. وكان عليه حينها التوقيع على وثيقة اعدامه في حالة انتمائه الى حزب اخر او ممارسة اي نشاط سياسي مناهض للحكومة البعثية

والوثيقة كانت تحمل بنوداً اخرى تجيز اعدام الموقع على تلك الوثيقة التي تحمل رقم القانون200. وبعد ذلك نقل عمله الى مدينة الناصرية. وقد تم تهجيره مع عائلته (زوجته واثنين من اطفاله) وباقي افراد بيت عمي صادق رحمه الله الى ايران.

كانت زيارته لنا قد بعثت المرح والبهجة في نفوسنا بسبب خفة ظله وتعامله مع الحدث بروح المزاح، محاولا التخفيف عنا من عذابات التهجير وما نمر به من ضيم التشرد. ولم يفقد زهير روح المرح والفكاهة وكان بالنسبة لنا تغييرا جميلا، وقضينا معه وقتا ممتعا متناسين همومنا لوهلة. لقد تحدث لنا أيضا عما مرّ به وعائلته يوم التهجير وكيف انهم أخذوه لاستجوابه في الأمن العامة كممثل عن عائلته، وهنا سألته ماذا سألوك هناك؟ قال عندما دخلت ممثلا لعائلتي مع اثنين يمثلان عائلتيهما الى دائرة الامن سألوني، من ضمن اسئلة اخرى، اذا كان لي ارتباط سياسي او كنت معتقلا سياسيا سابقاً؟ واجبت، والخوف من عواقب الامور يملؤني، بالنفي، وكان جوابي حينها مجازفة كبيرة، ومن حسن حظي لم يوقفنني والظاهر لم تتوفر عندهم معلومات او انهم يعرفون واغتنموا فرصة التخلص مني وتسفيري الى ايران. بعد تلك الاستجوابات طالبونا بكل ما نحمل ونملكه من وثائق رسمية ومن ضمن ما صادروه مني هو وثيقة الخدمة العسكرية ثم امرونا بركوب الباص. صعدت باص التهجير وكل خلية في جسمي ترتعد وشكرت الله على سلامتي وسلامة عائلتي. سار بنا باص التسفير لساعات حتى وصلنا ليلاً الى ساحة في خانقين قريبة من مركز الشرطة وكانت ليلة رهيبة. وفي فجر اليوم الثاني اكملوا ترحيلنا ودخلنا ايران. بعد رحلة طويلة استمرت اسابيع استقر الحال بنا اولا في مخيم اصفهان «باغ ابرشيم»، وقاسينا هنا الكثير من متاعب الحياة في الخيمة ومرض اطفالي نتيجة البرد والثلوج وحالتنا النفسية كانت متدهورة كلما ازداد بنا الضياع. مكثنا في المخيم اكثر من 4 أشهر مع عائلتي واخوتي.

في يوم من الايام تعرف ابن عمي بمحض الصدفة على شخص اسمه عبد الامير علي الخطاط «ابو فريد» كان قد جاء الى المخيم لتكفل عائلة عراقية واخراجهم من مشاكل المخيم. كانت افكارهم متقاربة واصبح هو وابو فريد اصدقاء وقام صديقه مشكوراً بإخراج ابن عمي مع عائلته بكفالة ومن بعدها تكفل والدته

وبقية الاخوة وفي النهاية تكفل عائلة اخيه التي كانت تعيش في مخيم جهرم. بعد خروجهم من المخيم وبمساعدة ابو فريد، اصبح من سكان الزينبية في الصحن الثاني وهي غرف مهيئة للحالات الضرورية. اصبح لكل عائلة منهم غرفة يسكنون فيها الى جوار متضرري الحرب الذي هربوا للتخلص من دمار الحرب (مناطق عبدان والاهواز) وما يسمونهم «جنك زدة»، الذين كانوا يسكنون الغرف المتبقية من صحن الزينبية، ولذلك كانت توزع عليهم الارزاق اليابسة مثل الفاصوليا اليابسة والرز والخ من الحبوب، وكان الشعب الايراني متعاطفا مع الجميع وكثيراً من الاحيان كانوا يوزعون عليهم اللحم والمواد العينية. كان وضعهم المعيشي غير جيد لذلك اشتغل شباب العائلة بحرف مختلفة من اجل تأمين متطلبات عوائلهم. فعمل زهير في المخابز وبائع شاي وعامل بناء، وحمّالا من اجل لقمة العيش وكانت تواجههم كثير من المصاعب، منها ايجاد فرصة عمل قريبة وكذلك صعوبة اللغة وغيرها من المتاعب، ولكن شعوراُ من الاستقرار كان لديهم.

كنا نتسامر في سهراتنا، وكان ابن عمي يروي لنا قصصا واحداثا من مآسي التهجير. كان يتكلم بتفاصيل اكثر وقصص مفجعة لا استطيع ان ادونها كلها وسأحاول ان اكتب ما بقي عالقا في ذهني:

فقد تحدث زهير عن مآسي عوائل شاهدها في مخيم اصفهان وكذلك في الزينبية، ومنها قصة عائلة ابو ياسين، وله ولد اخر اسمه ستار وهي عائلة متدينة هجرت من مدينة الديوانية الى ايران. وعرفنا ان لديهم أخ آخر شاب قد احتجز من قبل اتباع صدام وسجن قبل التسفير لاتهامه انه عضو في حزب الدعوة، وبعد عدة اشهر من التسفير وصلهم الخبر بان ابنهم قد أعدم في السجن وكان وقع الخبر عليهم محزنا وشديدا، واقاموا مجلس الفاتحة في احدى الخيام وعزاء للنساء، وشارك الجميع محنة هذه العائلة التي هي محنة كثير من العوائل المهجرة. ووصلت أخبار من المهجرين الجدد وكانت هناك عائلة تعرفهم وحكي ان من فظاعة ما حدث ان ازلام الامن جاؤوا بجثة المعدوم الى بيت اخته المتزوجة والتي لم تسفر الى ايران وطلبوا منها دفع ثمن الرصاص الذي كلفهم في اعدامه. كانت الاخت خائفة لان الرهبة من رجال الامن بين تلك العوائل التي اعدم لهم شخص، كبيرة جداُ، فهم لا يتوانون عن

اعدام باقي افراد العائلة، لذا رفضت الاخت المنكوبة استلام جثة اخيها نتيجة الخوف والهلع التي كانت تمر به وحذرها الامن من تنصب عزاء، حتى ولو في الخفاء، وهددوها بقولهم انتِ وعائلتك ستكونون تحت المراقبة.

وروى ابن عمي ان في المخيم كان رجل آخر يناهز الاربعين من عمره، وكان كثير البكاء وقصته انه هجّر بعد قيام الحرب العراقية الايرانية (نهاية 1980)، مع زوجته الحامل بطفلها البكر. كانت زوجته حينها في شهرها التاسع وعلى ابواب الولادة. بعد تسفيرهما ورميهما على الحدود، كان عليهما المسير لساعات في الاراضي الوعرة وتحت البرد والجوع والعطش لعدم السماح لهم بأخذ اي شيء من بيتهما. وشاءت الاقدار ان تلد الزوجة في الطريق غير المأهول والمعزول عن البشر. ولدت المرأة وكانت ولادتها متعسرة وحصل عندها نزيف شديد بعد الولادة وعلى اثره فارقت الحياة. تركها زوجها في الطريق في مكانها لقلة الحيلة لان الطريق كان مقطوعا وليس هناك من يساعده في محنته وكانت هناك مناوشات في القتال لان الحرب كانت في بداياتها. اما الطفل الرضيع فحمله والده وسار به قدماً وبعد سويعات قليلة مات الطفل هو الآخر، ليزداد عذابه، وسار الرجل المفجوع هائما على وجهه في الاراضي الوعرة لمدة يومين، كان زاده البكاء والحزن بما حل به من بلاء بفقدان زوجته وطفله الذي كان يتمناه. بعد مسيرة طويلة وبدون هدف، لحزنه ولعدم معرفته بجغرافية المنطقة، عثر عليه بعض الرجال الايرانيين وسلموه للشرطة، وتم ترحيله الى مخيم اصفهان. كانت حاله صعبة جدا ونحيبه يقطع نياط القلب، بقى الرجل شبه مجنون لما حل به وكان الجميع يلتف من حوله يواسونه في مصيبته ويحاولون قدر الإمكان اشغاله بالحديث عن مآس أخرى وعن الشباب الذي يعدمون في سجون صدام، وكما القول من رأى مصائب الناس تهون عليه مصيبته، وبعد مدة من وجوده في المخيم حصل على كفالة من قبل احد المحسنين. كان ابن عمي يتكلم والدموع تجري من عينيه وكنا نبكي معه ونتسائل كم من المهجرين العراقيين وجدوا حتفهم في طريق التهجير؟ وكم من المآسي التي لم ولن نعرفها تمت اثناء التهجير؟ ومن سيأخذ حق هؤلاء الضحايا المجهولين؟

كما وتحدث عن فاجعة عائلة «محمد حسن الكربلائي» وزوجته الثانية التي كانت كنيتها «ام سعد النجفية» التي تزوجها بعد وفاة زوجته الاولى بمرض السرطان. كان للزوجة الاولى اربع شباب احدهم كان مهندسا واصغرهم عمره 14 سنة. تم تسفيرهم: الرجل مع بناته والاطفال الصغار الى ايران. واحتجز الشباب الاربعة وبينهم ابنه الذي يبلغ عمره 14سنة من قبل ازلام صدام، حيث اخذوه من المدرسة بدون رحمة ليحجز ويسجن. كان والدهم بعد التسفير يعيش بالانتظار والدعاء ويتمنى ان يستلم اي خبر منهم كي تبرد النار التي كانت تحرق ايامه لخوفه على ابنائه الشباب المحتجزين. وعاش الرجل مهموما على اولاده حتى توفي مكبوتاً من شدة الحزن والخوف، فبعد سنوات عدة اكتشفت العائلة ان الشباب الاربعة قد اعدموا في سجون الارهاب الصدامي.

ومن ضمن ما رواه ابن عمي عن شخص تعرف عليه في صحن الزينبية في اصفهان واسمه «زهير خزعل»، الذي كان بعثياً ومعتنق لمبادئ الحزب، وكان يعمل مدرّساً وكان من ضمن عمله هو تدريب التلاميذ في الجيش الشعبي على حد قوله دفاعاً عن الوطن. وفي أحد الأيام تم تهجيره مع والديه في الشهر الرابع 1980 بطريقة بشعة ولم تشفع له توسلاته وانتسابه الى الحزب بالبقاء في العراق وقد سيق هو وعائلته في باص التهجير. بعد وصولهم الى الحدود العراقية ـ الايرانية قال زهير خزعل لأزلام الامن بيتا من الشعر معبراً عن محبته للوطن والشعب «بلادي وإن جارت على عزيزة.. وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام»، فنهره احدهم وقابل إلقاءه للشعر المعبّر، بالسخرية والاهانة وقال «هذه هي بلادك» مشيرا الى ايران. ليطرد زهير خزعل من العراق رغم انضمامه الى حزب البعث الارهابي الذي لم يشفق حتى على اعضائه من وحشية التسفير.

واما عائلة «ملك تقي» والملقب ابو بشرى، فقد هُجر مع بناته الاربع وبعض ابنائه الصغار مع زوجته الى ايران في نهاية الشهر الرابع من عام 1980. وكان له ابناً يعمل جنديا في القوة الجوية التابعة لمطار المثنى اسمه «ضياء ملك تقي». تم التهجير للعائلة ليلا حيث حضرت سيارتان احدها باص التهجير، والاخرى سيارة عسكرية، وتم القبض حينها على ابنه العسكري، فيما تم تسفير باقي العائلة بوضع همجي وهم

يكون ابنهم الذي كانوا يجهلون مصيره. وجاءت الاخبار من العراق مفادها هو بعد احتجاز ضياء وقت التسفير، تم احتجازه في سجون مديرية الامن العامة ومن ثم رحل الى سجن نقرة السلمان. ومنذ ذلك الوقت لم يعرف عنه اي شيء وكانت العائلة تبكي بكاءً مريرا على ابنها السجين. ومن ضمن المهجرين في الباص ذاته كان طفل لا يعرف له احد ولا كيف تم تسفيره فاحتضنته بشرى حينها واغدقت عليه بحنانها. وقد اثبتت الادلة بعد سنوات ان «ضياء ملك تقي» اعدم بعد عدة شهور من تهجير عائلته. وشاء القدر ان احدى بنات عائلة ملك تقي وبعد مرور السنوات ان تكون زوجة لاحد ابناء عمتي ام جواد.

ومن القصص المحزنة للمهجرين التي سمعتها بعد سنوات هو تسفير اربع عوائل لأربعة أخوة من مدينة البصرة، بعد ان احتجرت الامن العامة الرجال، وسفّرت النساء والاطفال وكبار السن فقط، ومن الاخوة جبار تقي الملقب «ابو سلام»، واخوه «حجي خليل»، واثنان منهما سجنا من عام 1981 الى عام 1983 وقد سفرت تلك العوائل في وقت الحرب اي في ظروف قاسية. وكذلك ومن مدينة العمارة قد هجر ثلاثة اخوة عام 1980 فيما تم الإبقاء على النساء والاطفال، وهؤلاء الرجال الأخوة هم اولاد عم «علي محيسن» صديق ابن عمي زهير. كانت هناك معاناة وقصص كثيرة لا يمكن توثيقها لعددها الهائل ولا ادري هل سيكون هناك اهتمام لمصير هؤلاء الضحايا، ام ستبقى قصصهم مجهولة رحلت معهم الى دنيا الخلود؟

ان صدام واعوانه الارهابيين قد اتبعوا طريقة في التهجير الوحشي وهي استحلال اموال وممتلكات المهجرين وقتل اولادهم كعقاب مؤلم للعراقيين المسالمين وللتخلص منهم وكما ذكر في الآية الكريمة قوله تعالى»المال والبنون هم زينة الحياة الدنيا»، فالمهجرون سرق مالهم وقتل اولادهم بطريقة بشعة لذلك قتلت فرحة الحياة وزينتها.

قضى ابن عمي معنا عدة ايام وكنا فرحين سعيدين بزيارته. اصطحبه اخوتي معهم الى اماكن عملهم والى «كوجه مروي» والتقى هناك بكثير من الناس ووجد اصدقاء قدامى كانوا يسكنون في طهران. وفي المساء كانت هناك جلسات سمر معه تحدثنا فيها عن وطننا الذي دمرته عصابة ارهابية خلقت الفتنة والتفرقة بين فئات الشعب،

وكيف اتبع النظام سياسة الارهاب وتبعيث الشعب وكذلك تعريب الشعب الكردي الذي كان هو ثاني قومية في العراق وقتلهم واحتل بيوتهم ليكن الوطن برمته ملكا للحاكم المستبد وحزبه المستبد. كان المرح والسخرية تتخلل احاديثنا وكان هناك الكثير من ذكريات الماضي الحلوة. رجع ابن عمي تاركاً برحيله فراغا كبيراً متوجها الى عائلته في اصفهان.

ان الطرائف والمواقف المضحكة كانت من صفات الشعب العراقي. وتلك المواقف كانت تحدث في الافراح والاتراح. ذكرت ان عائلتي كانت تسكن في مدينة الحرية، وهي منطقة شعبية تجمع مختلف الشرائح للعوائل العراقية المتوسطة والفقيرة الحال. كانت عمتي ام جواد تسكن في شارع او بالأحرى حارة يقطنها الكثير من الاكراد الفيلية. كان اغلب جيرانها من الناس البسطاء وفي هذه المناطق نجد العلاقات الاجتماعية حميمة وعميقة وانسانية الملامح. كانت هناك محبة وشعور بالمسؤولية والجار يعرف الكثير عن جاره ويكون مقامه كبير ويعتبر من الاهل المقربين. كان مقابل بيت عمتي عائلة فقيرة مسالمة من الاكراد الفيلية ويدعون «بيت ام سالم»، والعائلة مكونة من الام وخمسة أولاد، اثنان منهم معوقان وآخر من الاولاد في السجن، وابنة واحدة اسمها صبيحة. كانت صبيحة مقاربة في السن لابنة عمتي «نازك» لذلك كانت الزيارات متبادلة بين العائلتين. عندما بدأ التهجير للعوائل العراقية في بداية 1980 كان هناك رعب وخوف سائد بين الناس وخصوصا الاكراد الفيلية لان التهجير شمل معظم تلك الفئة من الشعب العراقي. والطريف ان عائلة «بيت ام سالم» كانوا خائفين من يتم تهجيرهم وكأجراء احتياطي وكما يقال «الانسان غرضه عزيز» قامت صبيحة بنت الجيران بإيداع اعز ما تملك وهو «صحون فرفوري جينية» اي مصنوعة في الصين، معتقدة ان عائلة عمتي ام جواد آمنة وسوف لن يسفروا الى ايران. والذي حصل هو ان تم تهجير عائلة عمتي ام جواد قبل تهجير عائلة بيت صبيحة وبهذا بقيت الصحون في بيت عمتي وشمع الباب. بعد اكثر من اسبوع تم تهجير صبيحة وعائلتها الى ايران. وكلما تتذكر عمتي ام جواد ما حدث تضحك من سخرية القدر لان الفرفوري اصبح من غنيمة الدولة ولم ينفع الاجراء الاحتياطي، وكقول عمتي قضاء وقدرا.

كان لعمتي ام جواد عدة دجاجات قد ربّتها في حديقتها للمتعة والاستفادة من البيض. في يوم التسفير مسكت بنت عمتي نازك الدجاجات وسط الهرج والمرج الذي ملأ الدار ساعة التسفير وبعصبية ورمتهم واحدة تلو الاخرى من فوق الحائط الى بيت جيرانهم (وهم من الاكراد الفيلية) الذين يسكنون خلفم رأفة بالحيوانات كي لا تموت من الجوع. حين رمت بنت عمتي الدجاج كان هناك رجل من تلك العائلة في الحديقة. وعندما رآى الرجل الدجاج يرمى على بيتهم اصبح مذعورا وخائفا وبدأ يركض مرعوبا وراء الدجاج المرعوب بمحاولة منه للقبض على الدجاج وارجاعه والتخلص من المشاكل ولربما فكر بانهم سيهجرونهم بسبب الدجاج. كان موقفا مضحكا في ذروة المأساة، وشر البلية ما يضحك.

عندما هجر بيت عمي صادق، كان هناك ضجيج لا يحتمل لوجود الجيران وناس اخرى تتفرج ووجود ابنة عمي الكبيرة التي ملأت البيت بالصراخ والبكاء لحالتها النفسية بفقدان أعز الناس، لذلك لم يكن هناك الوقت الكافي لجمع حاجيات مثل الملابس للأطفال والكبار وبطانيات وهنا ساهم الجيران المحبون بمساعدتهم بأخذ كل ما هو موجود الى باص التسفير وكما ذكرت كان هناك كيس مليء بحديد وادوات عاطلة مثل مكواة مزنجرة (علاها الصدأ). والمفاجأة الاخرى عندما فتحوا كارتونة كانت في باص التهجير ليكتشفوا ان محتوياتها كانت احذية قديمة تكوكة (مفردة)، يعني لم تكن ازواجا، وضحك الجميع من تلك الحادثة الطريفة في خضم التعب والاحتياج.

ومن طرائف التهجير هي قصة التهجير لامرأة عراقية كان لديها ولدها الوحيد وعمره 14 سنة. سمعت المرأة بأن احدى قريباتها قد هجرت واحتجزت الامن العامة اولادها وسجنوهم. لذلك قررت الام الشجاعة ان تهرب ولدها الوحيد بإلباسه ملابس نسوية وعباءة، وتدرب الولد على ذلك. عندما جاء باص التسفير ارتدى ابنها ملابس نسائية وعباءة حسب الاتفاق. عندما سألوها الامن عن ابنها قالت انه في زيارة لاحد اقاربهم في البصرة وهذه الفتاة ضيفة عندهم. اقتنع جلاوزة النظام ثم اركبوهم في باص التسفير ونجحت تلك المرأة الذكية في انقاذ ولدها والوصول الى ايران. عندما وصلوا الحدود نقلهم حراس الدولة الاسلامية

الى المخيمات، وكانت هناك مشكلة لان يترتب عليها اثبات العكس(أي ان الفتاة التي معها هي ابنها) وكان الموقف محرجا ومضحكا في نفس الوقت.

وهناك قصة طريفة والعهدة على الراوي ان باص التسفير جاء بعد منتصف الليل الى بيت يسكنه ثلاث شباب اكراد فيلية عازبون، أو كما يسمى بالعراقية الدارجية (زكرتية). كان الشباب عندهم سهرة وشربوا حد السكر ولا يفقهون ما يجري. قام رجال الامن بإدخالهم في باص التهجير الذي ناموا فيه طيلة الطريق. عندما وصلوا الحدود قامت قوة الامن بإيقاظهم وانزالهم من الباص. وهنا صحى الشباب من سكرتهم وبدأوا يتوسلون بالأمن كي يرجعوهم بقولهم «يا جماعة هاي انتوا وين دتشمرونة منين نجيب عرك (كحول) في دولة الاسلام»، والجميع يضحك على هذه القصة الطريفة. وهكذا كانت ليالي المنفى تتضمن حكايات عن غرائب ومآسي قصص التهجير ومنها طرائف تجعل الحياة المرة مستساغة في المنفى.

43

قوانين قرقوشية خلال التسفير وبعده

لقد واجهت العوائل العراقية المهجرة والباقية في العراق ضغوطا كبيرة من النظام ومنها اصدار قوانين ظالمة مجحفة وقرارات مستبدة كانت نتيجتها ازدياد الضحايا والمظلومين ومن تلك القرارات لحكومة البعث الدكتاتورية هو قرار التهجير للعراقيين لكونه برمته منافياً للمادة 9 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والتي تنص «لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا.»

وسأذكر البعض القليل من تلك القرارات الظالمة والمشينة لحكومة البعث والتي كان من شأنها تدمير المجتمع العراقي وتحطيم مستقبل مئات الاف من العوائل، ومن تداعياتها هي زرع التفرقة والحقد ولربما الانتقام في نفوس الشعب الطيب كي تتوارى ولربما تنتهي حقبة من زمن خرافي اصبح حلما يتمنى جميعنا ان يعاد ولو جزء منه.

اولاً:

قرار مجلس قيادة الثورة رقم 666 الصادر في 1980.5.7 بإسقاط الجنسية العراقية عن المهجرين العراقيين واعتبارهم ايرانيين. وهذا القرار منافي للمادة الخامسة عشر من الاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1948 والمادة 15 تنص على ان «لكل فرد حق التمتع بجنسية ما، ولا يجوز، تعسفا، حرمان أي شخص من جنسيته ولا من حقه في تغيير جنسيته. وللتأكيد لقد صودرت كل الوثائق الرسمية للمهجرين ومن ضمنها دفتر الخدمة العسكرية، رخصة القيادة، وثائق الممتلكات، الشهادات المدرسية والجامعية، والخ من الوثائق الرسمية.

وللأسف لم تعترض الامم المتحدة وهيئاتها المتعلقة بحقوق الانسان على تلك الانتهاكات، وخرق النظام الارهابي لاتفاقيات دولية قد صادق عليها العراق رغم رفع الشكاوى والاعتراضات وكنت افكر، هل العراقيون المهجرون تمثلهم الامم المتحدة؟ وهل الامم المتحدة بدولها الاعضاء كانت مع حكومة صدام؟ هذه الاسئلة وغيرها كانت محيرة وللأسف لم استطيع الاجابة عليها.

ثانيا:

قـرار مجلس قيادة الثورة تجميد وبيع ممتلكات المهجرين العراقيين ومصادرة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة. وفق نفس القرار رقم 666 الصادر في7/ 5/ 1980. وهذا القرار ادى بدوره الى ان تسرق اموال وممتلكات المهجرين العراقيين التي كانت هي حصيلة تعب وشقاء العمر. وقد اثر هذا القرار ايضا في ان بعض العوائل التي ارادت الحفاظ على ممتلكاتها ببقاء شطر من العائلة واغلبهم النساء واطفالهن الصغار لانهن يحملن جنسيات التبعية العثمانية وبهذا حصل تفكيك للعائلة العراقية وتجزئتها وحرمان الاطفال من حنان الوالدين. وهناك الكثير من القصص المؤلمة التي لا استطيع ذكرها.

ثالثا:

قرار الطلاق ومضمونه هو ان كل من هو عسكري وزوجته من التبعية الايرانية واخرج من العمل العسكري اذا طلق زوجته، سيرجع الى عمله العسكري ويحصل على مكافاة مادية عالية، واما اذا كان الرجل مدنيا وزوجته من التبعية الايرانية اذا طلق زوجته سيحصل على مكافاة مادية، والاطفال في كل الاحوال عراقيون ومن حق الأب. كانت نتيجة ذلك القرار ان البعض من ضعيفي النفوس طلقوا زوجاتهم ورموهن في الشارع، وهذا ما حدث مع قريبة لي وكانت شابة جميلة تزوجت في نهاية السبعينات من ضابط في الجيش، وولدت لها بنت وعندما عرف بان زوجته من التبعية الايرانية قام بتطليقها ورميها في الشارع في الليل دون السماح لها بأخذ حاجياتها ومن ضمنها الملابس، واخذ ابنتها. وذهبت قريبتي الى عائلة عمها الذي احتضنها وطالب بحقوقها وللأسف لم تحصل على شيء منه، وساومها طليقها حتى

على ابنتها التي كانت رضيعة وبدأ بتهديدها بعد الطلاق، ومن ثم بدأ يبتزها مادياً بأخذ نقود منها بين الحين والآخر لعلمه ان حالة اهلها المادية جيدة.

وهناك قصة مشابهة حكاها لي ابن عمي صادق واسمه زيد (بعد سنوات من التهجير) بان فتاة عراقية يقال عنها جميلة جداً ومن عائلة اكراد فيلية موسورة الحال تعيش في بغداد. تزوجت الفتاة اواسط السبعينات برجل عراقي من بغداد ليس من أقاربها، وكانت سعيدة في حياتها الزوجية، نقل زوجها بحكم عمله الى مدينة البصرة فتبعته وكان لهم اطفال. شاء النظام البعثي تسفير جميع عائلتها الى ايران، وكانت صدمة كبيرة لابنتهم التي تسكن في مدينة البصرة وفاجعة كبيرة، لكن مضت الحياة في بيتها شبه عادية. بعد اصدار القرار اعلاه في الحصول على المكافأة المادية والاطفال يكونون من حق الزوج، طلّق الرجل الظالم زوجته ورماها في الشارع واخذ اولادها منها وقام بتحذير جيرانهم واصدقائه واصدقائها من مساعدتها باتهامها بالخيانة، وهكذا لم يستطع احد التقرب منها ولم يساعدها احد واصبحت مذمومة. بقيت تلك المرأة المسكينة المسلوبة الحقوق تدور تبكي على اولادها وتحكي قصتها للمارة تطلب منهم المساعدة من اجل استرجاع اطفالها، وللأسف ولم يساعدها احد، والأدهى انهم كانوا ينعتونها بالجنون، ومن شدة الضغط النفسي فقدت المرأة عقلها وصوابها ونقلت الى مستشفى الامراض العقلية، وكما ذكر لي بن عمي زيد انها توفيت من شدة الحزن بعد اشهر قليلة.

وصدر كثير من القرارات التعسفية والمستبدة، ولو قرانا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فأننا نجد حكومة صدام قد اخترقت اغلب ولربما كل البنود، وحينها كانت الامم المتحدة غارقة في النوم رغم الاعتراضات والشكاوى، وبهذا ضربت هي ايضاً كل حقوق الانسان عرض الحائط.

عوائلنا والحالة الامنية بعد التسفير

ان التسفير القسري والمشين للعوائل العراقية المسالمة من قبل سلطة البعث الدكتاتورية، لم يترك اثر المعاناة والعذاب والرهبة على نفوس المهجرين فقط ولكنها شملت كثيرا من العوائل العراقية التي هجر جزء منها او اقاربها الى ايران. كنا نحن

ضحايا التهجير في خوف وقلق دائم من جبروت النظام وقسوته على من تركنا من احبة واهل واقرباء واصدقاء في العراق. كنا نجهل مصائرهم ولا نعرف ماحل بهم بعدنا، وهم ايضا لا يعرفون ما جرى لنا بعد التهجير الغاشم.

اغلب العوائل التي رُحلت الى ايـران تركت خلفها جزءا منها، مثلا بناتها المتزوجات بشخص يحمل التبعية العثمانية (المعتمدة رسميا كجنسية عراقية)، واصدقاءها، وعوائل اخرى مهددة بالتسفير تحت حكم الطاغية. وكانت الاخبار تصلنا عن طريق المهجرين الجدد او الهاربين من جحيم السلطة في العراق، مضمونها ان هؤلاء الذين بقوا في العراق كانوا يرزحون تحت ظلم الامن العامة وامن المنطقة وتحت تهديد وعنف دائم، والمعاناة كانت تكمن بالمعاملة التحقيرية التي يواجهها كل من يطلق عليه التبعية الايرانية، او من هو مناهض للحكم وحتى ان الكثير من الناس تغيروا خلقياُ نتيجة الخوف أو المصلحة او التهديد. كانت المعاملة السيئة لمن سفّر أهله او أقاربه، تلاحظ بشدة في مكانات العمل، المدارس، الشارع، لذا كان هناك صراع مرير في مقاومة الظلم والارهاب النفسي الذي عاشته فئات مختلفة من الشعب التي تحملت بدورها تبعية التسفير. وكانت العوائل التي هجر بعض منها، معزولة كأنها مصابة بمرض الجذام لذا انقطعت الزيارات والعلاقات الانسانية الحميمة خوفا من مراقبة الامن العامة. وسأروي بعض قصص عوائلنا ما بعد التهجير.

وهنا اود ان اكتب عن اختي الكبيرة المتزوجة والتي بقيت في العراق لان زوجها يحمل التبعية العثمانية ولديها طفلان. بعد تسفيرنا بدأت معاناة أختي التي اصبحت تعيش تحت ضغط نفسي متعب لفقدان اهلها جميعا والفراق والشعور بالوحدة، لأنها رغم سكنها المنفصل كانت دائما متواجدة في بيتنا، وتسفيرنا الهمجي ورحيلنا عنها بشكل مفاجئ وغير انساني، اشعرها بمرارة الفقدان واظلمت الحياة بعينها، كانت تبكي كثيرا وتود الالتحاق بنا ولكن صعوبة الوضع منعها عن ذلك، لذلك اصيبت اختي بحالة من الكآبة الشديدة، وكانت تبكي دائما واهملت نفسها منذ ذلك الوقت، وكانت حالتها النفسية تزداد سوءاً كلما طال الفراق بسبب تهجيرنا. اما حياتها الشخصية والعامة تغيرت بشكل كبير مثلا في محيط عملها، فكانت معاملة زملائها

لها سيئة وغالبا يحاولون استثارتها وفتح موضوع التهجير واستعمال كلمات بذيئة وقولهم لها «انت من بيت اهل العجم»، وما الى ذلك من الأقوال المسمومة التي كانت تزيد من عذابها وعزلتها وبكائها الروحي، لانها لا تستطيع اجابتهم نتيجة الخوف على بيتها من يد الظلم، وهكذا واجهت أختي كثيرا من الصعاب في عملها بسبب المعاملة اللاإنسانية لها، ونتيجة ذلك تركت اختي العمل كسرا لدابر الشر. وبهذا اصبحت اختنا حبيبتنا سجينة البيت وألم الفراق. اما الاقارب والجيران فقد انقطت علاقتهم بها خوفا على انفسهم من شرور النظام لذا كان شعورها بالوحدة والعزلة كبير، وكانت تشعر انها مراقبة في كل مكان حتى في بيتها ولذا اختفت الفرحة من حياتها. كانت صورنا القديمة ورسائلنا هي سلوتها الوحيدة في غربة قاتلة داخل الوطن الكبير الذي اصبح سجنا كبيرا.

عندما حدثت التسفيرات علم بقية اعمامي وعماتي والاقارب الساكنين في بغداد بخبر تهجيرنا. كان هذ الخبر لهم صدمة كبيرة لما حدث وبدأ الخوف والهلع يدخل الى قلوبهم من ان يكونوا هم ايضاً على قائمة التسفير، ولربما ستأتي قريباً باصات التهجير لتهجيرهم. ولهذا السبب وفي قمة الالم والخوف من التهجير باع بعضهم ممتلكاته وحزم حقائبه تأهبا للتسفير. وكما وصفت لي احدى بنات عمي «كان الرعب يزداد علينا في كل ساعة، وكلما كانت تطرق الباب تسرع الى اذهاننا صورة رجال الامن العامة وقد جاءوا لتسفيرنا، وكان الاضطراب كبيرا في حياتنا اليومية والخوف اكبر مما ممكن ان يحدث وقضينا ليالي ملؤها الرهبة والرعب».

بعد مرور شهر من تهجيرنا اقتحمت فعلا قوى الامن العامة بيت احد اعمامي، وكانت حالة من الذعر والبكاء وتجمع الناس والجيران امام بيتهم، ولكن تدخل الجيران والمنطقة وكفلوهم وكان هناك مسؤول بعثي في المنطقة حضر حينها وأوضح للأمن ان المقصودين هم أناس فقراء ومسالمون وبحالهم وليس لهم شأن بالسياسة، فتركوهم، ولكن شبح التسفير استمر بملاحقتهم طيلة سنوات الحرب. اما تأثير التهجير على العوائل التي سفر احد افرادها او نصفها، فكان وضعهم سيئا جدا من كل النواحي وفي عزلة، وفي قمة الحذر، لانهم بصورة دائمة تحت مراقبة دائرة الامن والمخابرات. وكان كل من يتصل بهم او يزورهم يكون هو ايضا مراقبا لذلك

قلت او بالأحرى انعدمت زيارة الاقارب، وهذا ما عانته اختي واغلب العوائل الباقية من العزلة والخوف والاكتئاب.

كان هناك عائلة نعرفها بحكم الصداقة هي عائلة «ام عباس»، التي تقطن في مدينة الحرية ـ الدباش، وبيتها قريب من الشارع العام شارع الزهاوي، وتسكن مقابل بيت عمتي «ام وسام»، التي ذكرت اسمها في النصوص الاولى. كانت عائلة ام عباس مؤلفة من ابنائها الذين يشتغلون في التجارة ووضعهم ميسور جداً وابنة مشلولة ومقعدة. في بداية عام 1980 هجّر أولاد ام عباس الى ايران من محل عملهم. وبعد ايام جاء باص التسفير ليأخذ والدتهم وابنتها المشلولة ليسفروا هم ايضا الى ايران، ولصعوبة نقل البنت المشلولة الى الباص اخذو معهم الام الكسيرة الجناح وتركوا ابنتها تبكي في البيت. وفي نفس اليوم قاموا بإرجاع ام عباس الى بيتها لترعى ابنتها الكسيحة، وكان ليس لهما معين وعندما انتهت النقود التي بحوزتهم قامت الام ببيع ما تملك من حلي واشياء ثمينة. الحالة المادية لام عباس اصبحت تسوء بمرور الايام لذا قامت بتأجير غرف بيتها وتصرف من الايجار على نفسها. وبمرور سنوات القحط والحرب ماتت ابنتها المعوقة وبقيت الام مليئة بالحزن لفقدان اولادها وبما لعب النظام الحاكم بمصير عائلتها. وهذه الحكاية هي واحدة من الاف الحكايات التي ذاق اصحابها الظلم وماتوا بحسرتهم.

التهجير الذي حصل في اوائل عم 1980 كان يجري تحت أنظار الجيران المتعاطفين وعيونهم الباكية وكذلك بوجود اناس متفرجين، بعد مرور اشهر قلائل، اصبح التهجير يجري بصمت لخوف الناس من التدخل وعواقبه الوخيمة. اما الحياة في بغداد ورغم كل ما يحدث من إعتقالات وقتل وتهجير تبدو عادية في وضح النهار. واصبح العراق تحت السيطرة الارهابية من قبل الحكومة لان كثيرا من المعارضين للنظام قبض عليهم وحكم عليهم بالإعدام في محكمة صورية تطبق قوانين سلطة مستبدة وليست دستورية. الكثير من شباب الوطن المسالمين اعدموا في السجون وتهمتهم الحقيقية انهم محبون للوطن ويحملون فكراً اخر غير فكر السلطة وحزبها. عن هؤلاء اكتب، ومنهم صديقتنا وجارتنا سميرة كاظم الموسوي.

كانت سميرة تسكن مع عائلتها قريب من بيتنا. كان شباب العائلتين اصدقاء

متحابين ودرس اغلبنا في نفس المدارس وكنا متفقين في أفكارنا وغالبا كنا نتبادل الزيارات. وكانت لسميرة أخت اسمها أنعام وهي صديقتي ودرسنا معا في اعدادية البنات في مدينة الكاظمية، ولها اخ اسمه احسان، كان هو ايضا صديق لعائلتنا. كانت سميرة تزورنا غالبا عند رجوعها من كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد وبعد تخرجها ايضا حيث توظفت كمحاسبة في المنشأة العامة لإدارة المرافق السياحية. فكان بيتنا هو «خان النص» لأنه وسط الطريق، واتذكر كم تمتعنا بحديثها الشيق وشخصيتها الهادئة وضحكتها الجميلة. وصلنا خبر من بغداد ان صديقتنا سميرة قد اعتقلت لأنها شيوعية بعد تسفيرنا بيوم واحد يعني يوم 16/ 5/ 1980.

حزنا كثيرا لهذا الخبر المفجع وكنا نأمل لها ولكل المسجونين ان يفرج عنهم وترجع صديقتنا ثانية الى عائلتها سالمة. وبعد سنوات وصلنا خبر مؤلم بان صديقتنا سميرة قد اعدمت في سجون الارهاب، وكان وقع الخبر علينا صدمة مؤلمة، رحم الله صديقتنا.

وهناك قصة ذكرتها سابقا، وهي قصة ابن عمتي نضال ابراهيم الذي قتل ايضا على يد النظام الملطخة بدماء ابنائنا الابرياء. كان الألم يمزقني حين اتذكر الكثير من الامهات اللواتي انتظرن اولادهن وودعن الحياة دون ان يأتيهن خبر عنهم. الشعب العراقي المعروف بعدم تحمله للظلم اصبح خائفا يرتعب من كل شيء. ولقد انعدمت الثقة بين الناس وكانوا يخافون من الحديث فيما يجري، واحيانا يتكلمون او يتناقشون مع بعضهم في بيوتهم. كانت حالة جديدة لم يعتدها العراقي سابقاً وهي الصمت وقبلوا بالحالة المشينة وقتل في داخلهم شعور المعارضة والتغيير. كان هناك معارضون للنظام واختاروا العمل السري او الصمت والاذعان واصبحوا امواتا بأجساد حية.

حدث التهجير في فترة الامتحانات النهائية للسنة الاخيرة من دراستي في كلية الطب البيطري جامعة بغداد، وهذا كان ساريا ايضا على اخي حامد، واختي التي كانت في كلية الهندسة جامعة بغداد. وفي يوم تهجيرنا بالذات كان لدي امتحانات عملي ضمن مجموعة من طلبة دورتي، وبسبب التهجير لم اذهب الى الجامعة في

ذلك اليوم الكئيب، وفضلت ان اكون مع عائلتي. وفي يوم التهجير صودرت منا كل الوثائق الرسمية وحينها حالفني الحظ بان أهرّب جنسيتي العراقية معي. طبعا لا اعرف ما حدث لزملائي وكنت اود لو اعرف هل عرفوا بتسفيري مع عائلتي الى ايران؟ وماذا كان رد فعلهم؟

بعد مرور 35 سنة على مأساة التهجير، التقيت وبمحض الصدفة وبمشيئة الخالق بصديقتي وزميلتي ياسمين نجيب شعاوي، وهي فتاة موصلية الأصل ومسيحية الديانة ودرسنا معا في نفس الدورة. وبهذا اللقاء اخبرتني زميلتي بكثير من الاحداث التي حصلت في البلد بعد تسفيرنا، وضمن ما تحدثت به هو ما حدث في الجامعة في يوم تسفيرنا.

روت لي ياسمين ان «في يوم الامتحان كنت وزملائي، نقف في صالة الامتحان وطال انتظارنا لك وجاءت احدى الطالبات لتخبرنا بان هناء قد سفّرت مع عائلتها الى ايران. كان وقع الخبر علينا مفاجئة كبيرة ولم نصدق ما سمعناه وتألمنا وحزنا لذلك الرحيل غير المنتظر. بعد مرور اشهر على التسفير وصلني خبر من احد الاصدقاء بان هناء كتبت رسالة ارسلت عن طريق عمها الذي يعيش في المانيا بانها تستنجد بي كي احصل لها على وثيقة تثبت دراستها للمراحل السابقة ويا حبذا لو كانت فيها درجاتها النهائية لتلك المرحلة كي تستطيع ان تجد طريقها في الحياة».

وذكرت صديقتي «فعلا اتصلت بشكل غير مباشر بأحد موظفي «الذاتية» في كلية الطب البيطري واسمه، غانم، وهنا اجابني بان عليّ ان انسى الموضوع نهائيا لما فيه من خطورة وابسط عواقبها الاعدام. وفعلا استمعت الى نصيحته وتناسيت الموضوع لشدة خطورته وفي قرارة نفسي حزنت لأني لم يكن في يدي عمل شيء سوى الدعاء الى الرب ان يساعدك في محنتك. ولكن لم انسك وسالت كثيرا عنك والرب قد سمع دعاءنا والتقينا بعد كل هذه السنوات».

بعد مرور اشهر قلائل من تهجيرنا، وختم باب بيتنا بالشمع الاحمر، جاء ازلام الامن الصداميون ثانية الى بيتنا، فتحوا الباب وجعلوه مقراً لهم بعد ان رموا ببعض حاجياتنا في الشارع ومنها كتبنا الادبية وملابسنا، التي كانت في يوم ما ممتلكاتنا

الخاصة والعزيزة على نفوسنا. وحدثتني صديقة حميمة لي التقيتها بعد سنوات وقالت» كنت أمرّ بشارعكم وقلبي ينقبض لرؤية باب بيتكم المغلوق انظر اليه والى الباب، وامنية في داخلي ان ادق الباب لربما سيجيبني احد منكم، واتذكر كم من ذكرى جمعتنا معكم في اجواء جميلة لهذا البيت الصاخب بالحياة، لذا كان الحزن والالم يعتصرني وعائلتي لفراقكم وتهجيركم بطريقة وحشية، كان اللون الأخضر ما يزال يحيط بالبيت واشجار النارنج وشجرة التكي (التوت) التي طالما جلسنا تحتها نتسامر، باقية، وللأسف اصبح الآن كئيبا وخاليا من احبتنا. وفي يوم من الايام رجعت من عملي ومررت كالعادة بشارعكم وفوجئت بان الامن العامة قد رمت بحاجياتكم في الشارع، حينها لم استطع تمالك نفسي لرؤية هذا المنظر الفظيع فما رأيت هو تدنيس لحرمة البيت، فبكيت وكأني ارى احبائي يغتصبون ثانية وببشاعة وقسوة، وحاجياتكم المرمية كانت شاهد لجريمة قد ارتكبت بحقكم». واستمرت بحديثها قائلة «وبقيت حاجياتكم مرمية وطريحة في الشارع لعدة ايام. ولم يتجرأ حينها احد بالتقرب منها او جمع تلك الاشياء المنثورة لناس اعزاء محبين للناس والوطن، وعلمنا ان بعد فترة وجيزة ان البيت قد اعلن بيعه في المزاد العلني وقد اشتراه شخص منهم، معدوم الضمير واستحل بيتكم المسلوب منكم عنوة وهو محرم في الدين والقوانين الانسانية والله سيعاقب الظالمين».

اما بيت عمي صادق المغلق، بعد تسفير اصحابه فقد فتح بعد مدة وجيزة وعرض البيت ومحتوياته في المزاد العلني، وقد اشتراه زوج احد بنات عمي صادق وسكنوا فيه لمدة سنة او اكثر ثم باعوه ثانية لعدم تحمل ابنة عمي ذكريات اهلها، ليسكنوا في مدينة الكاظمية. وليست لي معلومات عما آل إليه مصير بيت عمتي ام جواد، واتصور انه ايضا بيع في المزاد العلني. اختي الكبيرة لم تزور شارع بيتنا لحالتها النفسية السيئة وعدم تحملها رؤية بيتنا ثانية. اما ابن عمتي ام جواد وكات مدرسا وقد مر بمضايقات كثيرة في محل عمله بسبب امه المهجرة، فقد قاوم الظلم بهدوء وفي انشغاله في عمله، اما بيت عمتي ام جواد فكان مصيره مثل مصير بيتنا، وبيوت كل المهجرين التي بيعت في المزاد العلني بعد ان سلبت من مالكيها الاصليين.

بعد مرور 35 سنة على تهجيرنا زار اخي احمد بغداد اوائل عام 2014 وكان

يتوق لرؤية بيتنا بعد هذا الفراق الطويل (وللأمانة لم نحصل على تعويض لأملاكنا المسلوبة رغم ان والدي بعد سقوط النظام اعطى توكيلا لمحامي في بغداد على اساس يأخذ هو عشرة في المائة وكان دائما يطالب والدي بنقود واخذ اكثر من خمسة الاف دولار ومات والدي 2011 ولم يحصل على ما جناه بالتعب والى يومنا هذا لم نحصل على اي شيء من حقوقنا). ذهب اخي الى بيت العز الذي اصبح هرما وخرابا ومهدم وليس هناك اثر لأشجار النارنج او اي حديقة خضراء، والبيت تسكنه عائلة بالايجار. وهنا حدث شيء طريف عندما اخذ اخي كامرته لتصوير البيت وشاهدته زوجة المستأجر مخبرة زوجها وهرع زوجها مرعوبا نحو اخي سائلا لماذا تصور البيت؟ فسعى اخي الى تهدأته وحكى له قصتنا وكيف اننا اصحاب البيت الحقيقيون ولسنا مطالبين به الان. فبدا الرجل يشكو لأخي ان سقف البيت يخر ماء عندما تمطر، وهنا اندهش اخي واجابه ساخرا «هم بيتنا مسروق وما حصلنا على تعويض وتريدني اصلحلك السقف»، فخجل الرجل وضحك الاثنان.

اما ابن عمتي ام جواد والذي يسكن في اوروبا بعد تركه العراق نتيجة ملاحقة النظام له في نهاية السبعينات، فقد رجع لزيارة اخيه في بغداد بعد سقوط النظام وزيارة الوطن بعد قضاء اعوام كثيرة في المنفى. بعد وصوله وقضاء اسبوع في بيت اخيه الكبير. ذهب الاخوان الى بيتهم القديم الذي لم يزره احد قبل السقوط. وصلا الى البيت ودق احدهما باب بيتهم فخرج رجل يسكن الدار وهنا بدأ اولاد عمتي بمطالبته بالبيت وحصل هنا شجار كبير بينهم وبين ساكن البيت وتجمع الناس من حولهم لانها منطقة شعبية وبعد ان وصل الشجار اوجه تدخل احد الجيران وهدأ الجانبين، واتضح ان هناك سوء فهم في الامر، لان اولاد عمتي قد اخطأوا في العنوان، وكان عليهم الدخول في الشارع الذي بعده، وكان موقفا مضحكا للجميع.

هكذا كانت عيوننا وقلوبنا تبكي دموعا ودما، وأصبحت متاعب الوطن تضاف الى متاعبنا في المنفى.

44

من جحيم الوطن الى... عذاب المنفى

الأسرة كما هو متعارف عليه في انحاء العالم هي نواة المجتمع. يتأثر التكوين الاسري بشكل كبير بعوامل كثيرة، مثل الخلفية الفكرية والدينية والحالة الاقتصادية، وهذه بدورها تترك اثرها في تعامل اعضاء الأسرة فيما بينهم. وهناك ايضا تأثيرات خارجية ومنها العادات والتقاليد، والمؤثرات البيئية. لذلك ان البعض من تلك العوامل قد تكون ضابطا مهماً لاستمرار الاسرة. وقد تكون بعض الظروف التي تمنع الأسرة في الاستمرار ونتيجتها يكون الانفصال المعروف هو انهاء عقد الزواج (الطلاق) الذي له تأثيراته السلبية على تربية الأطفال.

المتعارف عليه في معظم المجتمعات ان العائلة مقدسة، واذا من كل ولا بد من حصول الانفصال بين الزوج والزوجة يحدث ذلك في مراحل مختلفة، وتجري محاولات من الأهل لإقناع الطرفين بالاستمرار، وبخاصة اذا كان هنالك اطفال في العائلة. ان الطلاق كما وصفه الحديث (أبغض الحلال الى الله الطلاق)، كان يتم نتيجة عدم اتفاق الطرفين. السياسة او الحكومة لم تكن تتدخل في حالات الطلاق او الانفصال بالرغم من ان هناك قوانين. وكما نرى ان التهجير القسري، واصدار قرارات بشعة كان لها دور كبير في تجزئة العائلة العراقية وهذا ما ذكرته في الفصل السابق. وهنا اود ان اكتب عن عائلة اخي كاظم، وما جرى لابنه وزوجته بعد تهجيرنا، كي نلاحظ ان هناك معاناة انسانية كبيرة نتجت عن تشريع وتطبيق قوانين مجحفة بحق العائلة.

اخي تزوج في عام 1979بشابة عراقية اسمها «بدرية محمد عباس»، وكان الزواج ناجحا في ظل المحبة والتعاون العائلي، وعاشت عائلة اخي في بيتنا كي يستطيع اخي

بعد ان تتقوى حالته المادية، ان ينفصل ليسكن مع عائلته في بيت آخر. رزق أخي وزوجته بطفل جميل في الشهر الثاني من عام 1980 وكان أخي فرحا وسعيدا، وكنا معه جميعا فرحين بولادة علاوي الصغير، وكان والدي كثير الشغف وفخورا بحفيده. عندما جاء باص التهجير تكلمت زوجة أخي هاتفيا مع خالها وكان يأخذ مكانة والدها المتوفي، سارع خال بدور بالمجيء الى بيتنا مصطحبا والدتها وشاركونا حزننا وفجيعتنا بتهجيرنا بطريقة غير انسانية. وهنا تدخل خال زوجة اخي واسمه «حجي حسن البنا» ونصح زوجة اخي بالبقاء في العراق خوفا على ابن اخي «علي» من مصاعب الطريق لانه كان في اشهره الثلاثة الاولى. وقد وعدها خالها ووعد اخي ايضا بانها ستلتحق بزوجها بعد مدة وجيزة حالما تهدأ الامور ويقوى عظم الطفل، كان في توقعه البسيط ان رجوع عائلتنا بعد فترة زمنية قصيرة ويتم لم الشمل ثانية. وقد قاسى أخي معاناة مريرة لفراق ابنه فلذة كبده وزوجته، وكان قلقه وخوفه يزداد على مصير عائلته لأنه بعيد عنهم وفي ظروف قاسية يجهل فيها المستقبل. والعذاب كان شديدا لزوجة اخي ايضاً التي خسرت الكثير، اولها والد طفلها والثانية تحمل مسؤولية تربية الطفل في بلد اصبح منعدم الانسانية. وبعد تسفيرنا الى ايران عاشت زوجة اخي في كنف بيت خالها حجي حسن وزوجته في بيتهم بمنطقة الكسرة ـ حي المغرب في بغداد، الخال اغدقها ووليدها بحبه وماله واصبح ولي امرهم والمسؤول منهم امام الله.

كانت هناك اتصالات هاتفية بين اخي وزوجته في بداية التسفير، يطلب اخي من زوجته المعذبة الالتحاق به بعد تلك الفاجعة الغير متوقعة. باءت بالفشل محاولات زوجة اخي بالالتحاق بزوجها وكانت هناك محاولة قانونية في السفر الى سوريا بمرافقة خالها ومن ثم الى ايران، لأنها بعد ان حصلت على جواز سفر لها ولابنها الذي كان جوازه منفصلا عنها لكونه من التبعية الايرانية. وكان جواز الطفل علي صالح للخروج مرة واحدة وليس فيه امكانية العودة الى العراق وقد صودرت حينها جنسية ابن اخي. وللأسف ايضا لم يحصل السفر الى سوريا لان اخي في ايران لا يملك جواز سفر وفي كوجة مروي في طهران لم يجد اخي احد يثق به او مستعد لاستلام العائلة في سوريا وجلبها الى ايران. وفشل تلك المحاولة كان خيبة امل كبيرة للطرفين، وخصوصا عندما بدأت الحرب واضحى حلم اللقاء بعيد المنال بل اصبح

سراباً، وعليهم الانتظار القاتل. واستمر اخي يحث زوجته على المجيء ويتوسل باكيا ان تجد طريقة للخروج من العراق، ودائما كان يشعر بالخذلان والالم وحرقة الفراق لفشل كل المحاولات، وكانت والدتي تحاول تهدئته وتنصحه بالصبر لعل الله يفتح بابا في تلك الايام العسر. وكانت علاقة زوجة اخي وابنها مع عائلة بيت اختي الكبيرة طيبة وجيدة. وكانوا يزورونها في بيتها، وكان علي يذهب احيانا الى بيت اختي ويبقى لعدة ايام تغمره اختي بحنانها ويكون لها أنيسا في وحدتها.

بعد مصادرة جنسية الطفل في دائرة الجوازات، سارعت حينها زوجة اخي في ان تحصل على «بدل ضائع» لجنسيته. لذلك ذهبت الى مكتب الاحوال المدنية فرع الكرخ حيث كانت سجلات عائلتي، وقدمت المعاملة، ومن حسن حظها كانت السجلات لا زالت غير مجمدة في عام 1980 (لان السجلات جمدت في عام 1982) وبهذا حصلت على جنسية جديدة لابنها. تقدم علي في العمر وكان يسأل والدته مرارا وتكرارا عن ابيه الذي لم يراه ابدا، فكانت تجيبه تقول ان والده مسافر وسيرجع في يوم ما. وعاش الطفل على حلم ان يلتقي بوالده ليتمتع بحنان ابيه. تقدم علي في العمر وكعادة اطفالنا في العراق كان يلعب مع اقرانه في الشارع، ومن هنا بدأ احساسه بمضايقات اطفال المنطقة اذ كانوا يلقبونه «بابن العجمي» بسبب او بدون سبب، وغالبا المضايقة كانت من الاطفال الاكبر سنا منه ومن كبار السن. وكان هذا يؤثر على نفسية الطفل المحروم من حنان الاب، ويذهب مسرعاً الى والدته ويسالها عن معنى كلمة «ابن العجمي»، فكانت تحاول تهدئته وتقول له لان ابوك مسافر. وكانت هناك عوائل متعاطفة مع وضعهم والبعض الاخر متعاطف، ولكنهم يخافون من ابداء عطفهم ومحبتهم تفادياً للبلاء.

اكمل علي المدرسة الابتدائية، كانت الرسائل التي ترسل من اخي عن طريق عمي غير مستمرة لأسباب مختلفة، لذلك كان علي يشعر باليتم والعزلة كلما تقدم فيه العمر، رغم رعاية خال والدته حجي حسن، واخذ يسأل والدته بإلحاح عن والده ومتى يرجع من سفره الطويل. ومن جانب اخر اخفت والدته عنه الحقيقة ولم تبلغه بالتفاصيل لأنها كانت تخاف عليه من ان يتكلم في المدرسة او الشارع وتكون كارثة عليه، وكذلك تجنبا للمشاكل التي ممكن ان تحصل لعائلتها ولربما ستكون جراء

ذلك عواقب وخيمة ولا سيما ان اخوها «حسين» كان عسكريا حينها. عندما انهى علي دراسته الابتدائية، كان عليه التسجيل في المدرسة المتوسطة، ولكثرة ما عاناه من اذى ومضايقات من اطفال وكبار المنطقة، اختار مدرسة»» ثانوية الشباب للبنين»» في شارع الزهاوي قرب جسر الصرافية بسبب قلة انتساب طلاب المنطقة في تلك المدرسة. طلب منه مدير المدرسة واسمه استاذ «محمود» في يوم التسجيل احضار شهادة الجنسية لوالده، واجابه علي بعدم وجودها فاصر المدير على ذلك بقوله «اذا لم تحضرها سوف لم يتم قبولك في المدرسة». واضطر ابن اخي للاستفادة من صورة شهادة الجنسية التابعة لعمته سجواء المسفرة، وعند الحاح المدير بسؤاله عن شهادة جنسية الاب، اخبره علي بان والدته مطلقة وليس لديه شهادة الجنسية لوالده، وبعد تدخل خال والدته وخاله حسين في حل الاشكال وحينها وافق المدير على تسجيل علي في المدرسة.

جاء مدير جديد في ذات المدرسة ويدرس اللغة العربية واسمه «سالم بلاسم» وهو بعثي متعجرف، وكان يضايق على نفسية علي لكونه من التبعية الايرانية، وهذا كان سببا في خوف علي من كل بعثي في المنطقة. استمر علي في دراسته رغم المضايقات الكثيرة وفي داخله شعور عميق بقسوة المجتمع عليه، وخصوصا بعد ان اعلمته والدته ان والده قد تم تهجيره في ظروف مؤلمة، وزاد احتياجه الكبير لوالده في تلك لظروف الصعبة. كانت الرسائل التي تأتي من والده تزيد من لوعته لشعوره بالغربة والظلم واختناق كبير لقسوة الحياة عليه. ومما عايشه علي في طفولته وكان يستغرب منه، ان احد اطفال اقاربه الذي اسمه «حذيفة» يتلقى انتباه ومحبة الجميع من العائلة وبعد ان تقدم علي بالعمر فهم ان والد الطفل «حذيفة» وعمه قد اعدما في السجن في بداية الثمانيات، والقيت جثثهم قرب باب البيت والطفل «حذيفة» قد شاهد هذا المنظر المؤلم لابيه، ولذلك كانت العائلة تعامله بشكل خاص لتقليل صدمته من هذه الحادثة الرهيبة.

وكما ذكرت كان «علي» يمتلك الجنسية العراقية (بدل ضائع) منذ طفولته، وبسبب تجميد سجلات الاحوال المدنية للمهجرين (فرع الكرخ) عام 1982، لم يستطع تجديدها في مراحل تقدم عمره، لذلك كانت تواجهه مشاكل ومضايقات

لعدم حوزته على جنسية تتناسب مع عمره (الصورة الشخصية كان عمره حينها 6 أشهر) وكان يقدم اعذارا مختلفة لتفسير ذلك. كان شعوره باليتم والانكسار يزداد بتقدمه في السن وفهمه لما حدث لوالده يكسره اكثر، واحساسه بالوحدة والتذمر من مضايقة ابناء المنطقة بالإضافة الى الضغط عليه في المدرسة للدخول في الاتحاد الوطني التابع لحزب البعث الذي كان السبب في حرمانه من حنان الاب، والظلم الذي جرى لوالدته جراء ذلك والتي كانت تعاني من الفراق والتعب النفسي. وللمعلومة قد جمد سجل زوجة اخي في منطقة الكرخ واقفلت في وجهها امكانية السفر. كان خال والدته حجي حسن وخاله حسين يحاولان جاهدين في ان يربى علي التربية الصالحة، وتعويضه حنان الاب وحل المشاكل التي كانت تواجههم في ظل نظام لا يعرف الرحمة والانسانية.

وبعد انتهاء الحرب العراقية الايرانية بسنتين وصل الى عائلتي في طهران، كاسيت مسجل بصوت ابن اخي اتى به احد الهاربين من العراق. كان اول مرة يتكلم علي مع والده وكان يبكي ابيه ويسأل ان يلتقيه وكان كلامه يقطع نياط القلب، وبكاء اخي وابي ووالدتي وكل من سمعه لعن الظلم والظالمين. وقد سمعت هذا الكاسيت الذي انتشر بين افراد عائلتي وكان وقعه مؤلما لما فيه من ألم الفراق وشجون المحبة.

نتيجة الازعاجات والضغط المتزايد على ابن اخي لعدم امتلاكه للجنسية العراقية الحديثة واعتماده على القديمة، راجعت والدته بمصاحبة اخيها حسين ومعهم علي دائرة الاحوال الشخصية فرع الكرخ في عام 1996 لحل اشكال الجنسية القديمة وللحصول على جنسية جديدة. وطالب الضابط المسؤول بمشاهدة الجنسية القديمة، وفتح سجل عائلتنا بعد معرفة رقم السجل. وكان مكتوب في سجل عائلتنا مسفرين وقد أسقطت الجنسية العراقية عنهم لانهم ايرانيون، والسجل مجمد منذ عام1982 ويعتبر علي ايضا من المسفرين لعام 1980. حاولت زوجة اخي ان تكلم الضابط في ان يساعدها في حل مشكلة ابنها، وهنا اخذ الضابط يستهزئ بنها ويعاملها بتحقير، وقال لها لماذا تزوجت من شخص يحمل شهادة الجنسية للتبعية الايرانية؟ فأجابه اخوها بانها تزوجت من عراقي ابا عن جد ولم نطلب منهم شهادة الجنسية عند الزواج. ورفض الضابط في النهاية

مساعدتهم في الحصول على جنسية حديثة. رجعت العائلة خائبة الامل الى البيت، وكانت الحالة النفسية لعلي سيئة جدا ولا يدري ماذا يفعل لان كل الابواب قد اوصدت في وجهه.

بعد انهاء مرحلة الدراسة المتوسطة، كان يجب على الطالب احضار جنسيته وشهادة الجنسية لابيه من اجل التسجيل في الرابع العام وهي بداية المرحلة الثانوية لذلك كانت معضلة كبيرة لابن اخي. لذا قرر خاله «حسين» وزوجة اخي في توكيل محامي من اجل حل الاشكال، واكد عليهم المحامي انه لا يستطيع المطالبة ورفع قضية بذلك، ونصحهم بمراجعة دائرة الاحوال المدنية لربما هناك طريقة في ايجاد حل للمعضلة. راجعوا ثانية من جديد دائرة الاحوال المدنية فرع الكرخ لطلب الاستشارة القانونية في هذه المشكلة. وحددوا موعدا لهم بعد شق الانفس للبحث في الموضوع. ذهبت عائلة زوجة اخي واخوها مصطحبين ابن اخي معهم في الموعد المحدد في دائرة الاحوال الشخصية فرع الكرخ، وبعد انتظار طويل واهانات عديدة دخلوا غرفة الضابط المسؤول الذي يقوم بالتحقيق وطرح الحلول حسب قوانين الحزب الحاكم. وهنا عرض الضابط عليهم ما يلي:

ان يسقط علي الجنسية العراقية التي هي اصلا ساقطة، وان يعترف ابن اخي بانه ايراني الاصل وفي هذه الحالة يعطوه اقامة مؤقتة كمواطن ايراني لمدة ثلاث اشهر قابلة للتجديد (كل ثلاث اشهر)، او يتم تسفيره الى ايران عن طريق «المنذرية»، او يتم اجراء قانوني ضده لأنه لا يمتلك اي جنسية ويعتبر وجوده غير قانوني في البلد. ثم اكد الضابط انه يعطيهم مهلة للتفكير، وعليهم اتخاذ القرار وفي حالة عدم الاختيار يتخذ اجراء قانوني ضد ابن اخي لوجوده الغير قانوني في العراق. خرجوا عائلة زوجة اخي من مكتب الضابط والحيرة والمفاجأة والخوف من تلك الحلول الظالمة، وبدأت دوامة الخوف على سلامة ابن اخي ومستقبله الذي ليس فيه نظرة مستقبلية. وكانت العائلة تتباحث فيما بينها بعد خروجهم من غرفة الضابط، وكان ابن اخي منفعلا من خيبة الأمل والخوف، وهنا تدخل شاب من المراجعين وتكلم مع علي وحذره من مسالة الاقامة وخطورتها تكمن في انه سيفقد الجنسية العراقية في حالة اقراره انه من التبعية الايرانية وليس هناك ضمانة بتجديد الاقامة وان ايران لن تعطيه جنسيتها لأنه عراقي.

كان مستقبل علي صعبا، وليس هناك من ينقذه من مصيبته في عتمة ظلام السلطة المجحفة بحقوق ابنائها. لذلك كانت هناك اتصالات تلفونية جرت عام 1996 بين علي واخي، الذي بدل منفاه الى النرويج 1992، وكان اخي قد تزوج ابنة عمي فاطمة وله منها اربعة اولاد. كانت تلك الاتصالات التلفونية المؤلمة واخبار اخي بما يحدث من ظلم ضد ابنه، شجّع اخي ابنه بالخروج من العراق وقد رتبت له طريقة للهروب من بغداد الى طهران. وكان خال امه قبل يومين من تهريب علي يبكي ورفض الاكل لخوفه على سلامة علي ولأنه تعود على علي والم الفراق اخذ مأخذه منه.

بعد وصول علي الي طهران بصورة غير قانونية كان عليه مراجعة دوائر عدة، وساعدته الدوائر الايرانية في تسهيل اموره، وسكن علي مع والدي وعمتي ام غايب في شقتهم في دولة اباد في طهران، وقد تعلق والدي به بشدة واصبح رفيقا له وكذلك عمتي. وصل طلب اخي في جمع الشمل مع ابنه الى السفارة النرويجية، ووافقت الحكومة النرويجية على جمع الشمل بين الابن والاب بعد مرور ما يقارب 17 سنة من الفراق. التقى علي بوالده وبقيت والدته في العراق تبكي الفراق وقسوة الزمن.

وكما نوهت سابقاً ان سجل زوجة اخي ام علي كان ايضا مجمدا في الاحوال المدنية مع سجلاتنا في الكرخ، وهذا التجميد يمنعها من السفر، لذلك تطلقت من اخي عام 2002 كي تفتح تجميد فايلها وبذلك فتح سجلها ثانية، وبطلاقها رجعت الى سجل عائلتها الى الاحوال المدنية للرصافة. كانت وبقيت العلاقة ودية بيننا وبين ام علي التي نعتبرها اختا لنا وحبيبتنا وضحية نظام حطم احلامها وجعلها تفقد الجو العائلي في اوج شبابها.

هذه حكاية بيت اخي كاظم وزوجته بدور وابنهما علي. حاولت ان ألخّص احداث سنوات العذاب وتقليصها بما يسمح به النص، وهي قد تكون حكاية مشابهة لما عاشته آلاف العوائل المهجرة، ولربما رغم عذاباتها الكثيرة تشابه عذابات العوائل التي عانت من ظلم نظام ارهابي لا يعرف معنى الرحمة ويأخذ دور ربنا في التلاعب بمصائر الناس. وهكذا هرب ابن اخي ونجا بنفسه من الجحيم والقتل الذي تمارسه حكومة البعث في الوطن ليختار عذاب المنفى.

45

الاغتصاب.. جريمة التسفير الخفية

الحياة في المنفى الاجباري كانت قاسية ومتعبة لجميع العوائل العراقية المشردة التي فقدت كل ما تملك في الوطن المحكوم بالإرهاب. كان هناك كثير من المصاعب التي تواجهنا ومنها اضطراب التكيف والتأقلم على الحياة في البلد الجديد، وكذلك حالة التشرد الجديدة المضنية وتداعياتها كفراق الاحبة والوطن والقلق على من احتجز وبقي في العراق. لذلك كنا نحرص على التواصل فيما بيننا لتقليل حالة الغربة الموجعة وأحزانها ولنتبادل الاخبار عن مستجدات الامور وكذلك نتداول قصص عن بشاعة النظام الدكتاتوري الارهابي التي لا يصدقها العقل. مخيمات المهجرين العراقيين كانت ممتلئة بالقصص المحزنة التي كانت تنتشر بيننا وتزيد من غضبنا وتعمق جراحاتنا.

أتذكّر مما سمعته من اخوتي واحد المقربين لعائلتي، ان هناك بعض سكان المخيمات قد اصيبوا بحالات نفسية مرضية ادت الى الاكتئاب الروحي وحالة اختلال التوازن العقلي نتيجة انعدام الأمل وقلة الحيلة، وكذلك سمعت ان هناك حالات انتحار حدثت في صفوف العوائل التي هجرت وخصوصا اثناء الحرب. كانت تصلنا اخبار ان بعض المهجرين قد ماتوا او قتلوا على الحدود او في الطرق الوعرة نتيجة قساوة الاوضاع الجوية. وقد دفن بعض الضحايا بقبور مجهولة، والبعض الاخر الذي لقى حتفه في الطريق نتيجة الاوضاع المتردية، وترك بعد موته على قارعة الطريق بدون دفن لخطورة الوضع. كل هذه القصص المأساوية التي لا يمكن حصرها والتي تحمل بين ثناياها رائحة الموت والجريمة من حكومة البعث الدكتاتورية لم تقلل من حبنا لوطننا ولشعبنا في العراق، بل كانت تزيد من عمق ارتباطنا في الوطن الذي اصبح من اكبر مسارح الجريمة وأبشعها.

من المتعارف عليه في عاداتنا الشرقية، محافظة الفتاة على شرفها والمقصود عذريتها الى ان تتزوج. وبهذا المفهوم الشرقي الذي لا اريد الخوض في مشاكله ومفاهيمه. كانت المرأة ولا زالت في تلك المجتمعات ضحية ضعيفة وهشة وقابلة بسهولة للانتهاك، وخصوصا في أوقات الحروب او في سجون سلطة سياسية فاسدة تستعمل أبشع الطرق لإهانة الانسان، ولنشر الخوف والذعر بين صفوف العوائل، وهكذا كان الحال مع سلطة حزب البعث الدكتاتورية. عندما كنت أعيش في بغداد وقبل تهجيري كانت هناك قصص تصل الى مسامعنا ان الامن العامة كانت تغتصب السجينات السياسيات وكل من تكون مناوئة للسلطة، لذلك كانت والدتي تخاف علينا وتنتظر رجوعنا بقلق وخوف رغم عدم ارتباطنا السياسي. وما سمعته ايضا في طهران، ان عمليات اغتصاب حدثت في عنابر التهجير من قبل ازلام السلطة المتمرسين على الاجرام. رغم حساسية الموضوع سأروي القليل مما سمعته وبكل مصداقية، لشعوري الكبير بالمسؤولية ازاء الضحايا، واعطاء فكرة بسيطة عن ارهابية النظام وعما كان يجري في دوائر الامن العامة.

ما سمعته هو ان هناك حالات اغتصاب لبعض الفتيات المهجرات، وهذ ما كان يحدث في دوائر التهجير وعنابره. كانت العوائل المهجرة تعاني من سجن وقتل أولادهم، وازدادت المعاناة بخوفهم الشديد على بناتهم من انتهاكات ازلام النظام الوحشي الذي يعتبر المرأة سبية وبإمكانه ان يلحق بها العار عند اغتصابها. وهناك ما يؤكد ما سمعته من المخيمات وهذا ما رواه لنا احد اقاربي وبحضور عائلتي، ان هناك عائلة مهجرة مؤلفة من ام واربع بنات (بعد احتجاز رجال العائلة)، تم احتجاز الام وبناتها لعدة اشهر في احدى عنابر التهجير ومن ثم تم ترحيلهم الى ايران. وبعد ان وصلت العائلة المسبية الى المخيم في ايران كانت حالة العائلة المذكورة سيئة جدا لان جلادي النظام قاموا باغتصاب الفتيات، واثنتان منهن كانت اعراض بداية الحمل قد ظهرت عليهن، وكانت امهم قد فقدت صوابها فنثرت شعرها ولطخت وجهها وراسها بالطين باكية وتصرخ في وجه السماء، عندما كان قريبي يتحدث عن تلك العائلة وبتفاصيل اكثر كنا نبكي لما رواه لنا من بشاعة النظام، وترك اخوتي المكان باكين وغاضبين. كان مصير الفتيات المغتصبات صعبا جدا من جميع النواحي، وخصوصا الحالة النفسية، وهل هناك امكانية مسح ما حدث من ذاكرتهن؟

وروت لي ايضا احدى قريباتي التي كانت تسكن في المخيم، بان احدى الفتيات قد اغُتصبت من قبل الامن في عنابر التهجير، وعند وصولها المخيم قد سكبت النفط على نفسها واحرقت نفسها في الخيمة، وكان رد فعل المهجرين الذين عرفوا بالخبر هو الغضب الشديد والتوعد لأزلام النظام. هذه المآسي واعني الاغتصاب وعواقبه لا يمكنني ولا يمكن لأي احد تثبيتها بأسماء لحساسية الموضوع، ولان المرأة رغم كونها ضحية الظلم والوحشية يبقى المجتمع قاسي عليها، لذلك لا نجد سوى القليل من يتحدث عن تلك الانتهاكات المشينة. كنت اسأل نفسي بغضب كبير: ألم يكتفي النظام البشع بتشريد العوائل؟ ألم يكتفي بحجز وقتل الرجال والشباب، واستحلال اموالهم، وتجزئة عوائلهم وسرق انتمائهم؟ لا استطيع وصف ما يدور بخاطري من غضب لبشاعة وهمجية تلك النفوس الواطئة في ان ينتهكوا الاعراض لأناس عزل سرق منهم كل شيء، وكنت افكر بحزن ما هو شعور الضحية في ظل كابوس الاغتصاب؟ هذه الجرائم الشنعاء المخزية. للأسف لم توثق تلك الجرائم لحساسية الموضوع المفرطة ولا تتحدث بها الضحايا واتفهم سكوتهم عن الجريمة. الاغتصاب هي جريمة مشينة تضاف الى جرائم حكومة صدام الارهابية.

46

برجوازيون في المخيم!

نوهت في الحلقات الماضية بالقليل عن اصدقائنا «بيت ام رضا»، لاني كنت ارغب ان اكتب اكثر تفصيلا عن اصدقاء المصير، وهم من الكرد الفيلية، ومن سكنة شارع الكفاح في بغداد. العائلة تتكون من عشرة اولاد وابيهم، كان ابو رضا يعمل في قهوته القريبة عن البيت. صباح يوم15/ 5/ 1980 جاء باص التسفير الى بيتهم وكان حينها الابن الاكبر رضا في عمله القريب من بيتهم، ووالدهم مشغولا في قهوته، اما باقي شباب العائلة فكانوا في البيت لانشغالهم في التحضير للامتحانات الجامعية النهائية والمدرسية. رجع رضا من عمله بعد ان اخبره احد المعارف بالحدث، وكذلك جاء الاب بعد ان اقفل قهوته. وعندما اكتملت العائلة طلب منهم عساكر الامن المسلحون بركوب الباص وسط الضجيج والبكاء وتجمع الجيران لتوديعهم، وبقيت ابنتهم المتزوجة في العراق.

التقيناهم على الحدود العراقية الايرانية في نفس اليوم وبعد وصولنا بربع ساعة. لقد جمعت عائلتينا، منذ لقاءنا الاول على الحدود، مشاعر الالم والتشرد والخوف من المستقبل، بالإضافة الى حب الوطن وتشابه افكارنا الشبابية. رحلتنا في بداية التهجير كانت متشابهة، اذ كنا معا في مسجد خسروي ثم سكنا في مخيم اصفهان متجاورين، وتوطدت روابط الصداقة في تلك الليالي المشحونة بالشعور بكابوس التشرد وحرقة الفراق. كنا نقضي أوقاتنا معهم بين الحزن والسخرية من واقعنا المرير. اتذكر كم كنا نمزح معهم في المخيم لحصولهم على خيمتين لكثرة عددهم ونحن خيمة واحدة، لذا كنا ننعتهم انهم من الطبقة البرجوازية!

الايام التي قضيناها معا لا تنسى، رغم حالتنا المنكوبة والاحساس بالظلم والبعد عن الوطن في بداية التهجير. بعد اقل من اسبوع افترقنا حين كفلنا خالي واخرجنا من المخيم الى طهران، وعائلة ابو رضا اتصلوا حينها بخالتهم التي تسكن في طهران لتتكفلهم. بعد مرور عدة اشهر التقينا بهم ثانية، واخبرونا انهم مكثوا في مخيم اصفهان لمدة ثلاثة اشهر وقد ذاقوا مرارات كثيرة نتيجة الاوضاع الخدمية المتردية في المخيم بالإضافة الى التعب النفسي. وقد مرت عليهم ظروف قاسية نتيجة مرض اخوهم الكبير رضا (وهو خريج ادارة واقتصاد جامعة بغداد) لأنه اصيب بنزيف معوي وهم في داخل مخيم اصفهان مما اضطره للخروج منفردا، وقد ساعدته خالته وكفلته، وبعد مرور مدة قصيرة تكفلتهم خالتهم وانتقلوا من المخيم الى بيتها في طهران. من البديهي ان يكون ايواء عائلة كبيرة مثل عوائلنا صعب جدا على الطرفين، وصعوبته تكمن اقتصاديا لان الحياة صعبة والمصارف كثيرة ومصاعب اجتماعية تتمثل في سلب الحرية الشخصية للطرفين، لذا لم يكن الامر يسيرا نتيجة الحساسية المفرطة للمشردين والشعور الدائم بالخجل.

بدأ شباب وشابات «بيت ام رضا» بعد فترة وجيزة بالبحث عن عمل من اجل الاعتماد على انفسهم في كسب معيشتهم، نتيجة الضيق المعيشي والاحساس بالخجل وكثرة تعداد افراد العائلة المنكوبة، وكانوا مصرين على الاعتماد على انفسهم رغم صعوبة فرصة ايجاد عمل مضافاً اليه عائق اللغة. عمل شباب عائلة بيت ام رضا في مهن مختلفة وبأجور بسيطة ودون المستوى، فيما بعد استأجروا منزلاُ صغيرا مساحته35 مترا، وعاشوا في ذلك البيت مع استمرار المعاناة الكبيرة في وجود عمل يسد رمق العائلة الكبيرة.

كان لقاؤنا بأصدقائنا غير منتظم وغالباً متروكا لظروف العائلتين بسبب العمل ومتاعب الحياة والسعي وراء لقمة العيش. بعد مرور عدة اسابيع التقى احد اخوتي بالابن الأكبر رضا في «كوجة مروي»، وكان لقاء فيه الكثير من الاخبار لكلا الجانبين. ومن ضمن ما اخبرهم الاخ رضا هو ان اخوهم الصغير «نبيل» كان مريضا جدا ونقل الى المستشفى، وبعد اجراء الفحوصات الطبية اللازمة والمكلفة، اثبتت نتيجة الفحص وجود غدة في رأسه، ويجب ان تعمل له عملية

سريعة لاستئصالها لخطورتها على حياته، النتيجة كانت لعائلته المشردة صدمة قوية ومخيفة، لذلك عاشوا اياما وليالي في قلق دائم على صحة ابنهم المريض وكذلك لان العملية كانت مكلفة جدا، فاضطرت العائلة المنكوبة في ان تقترض ثمن العملية المكلفة من الاصدقاء لانقاذ حياة نبيل الأبن. وبعد اجراء العملية واستئصال الغدة في احدى مستشفيات طهران، نجحت العملية الجراحية وفرحت العائلة بنجاة ابنهم ورجوعه الى البيت، ولكن ظروفهم المادية ضاقت اكثر وكانت تستقضي العمل الطويل لدفع ديونهم.

عوائلنا المهجرة كان ليس لها ضمان صحي لتلك الحالات الصحية الصعبة، لذا كنا غالبا نمر بمأزق ودوامة اذا مرض احد افراد العائلة بمرض يستدعي علاجا ثمينا او يتطلب اجراء لعملية جراحية. وكذلك من ضمن اخبارهم ان عدد من العوائل الاكراد الفيلية بكاملها ومن ضمنها شباب خريجي جامعات اخذتهم الامن العامة الى مكان مجهول، ومن ضمنهم عائلة احد معارفهم واسمه المهندس وهاب محمود الفيتولي وله طفل حديث الولادة وعمره شهر واحد(والى وقتنا هذا لم يعثر على جثثهم بعد ان قتلوا جميعا). تألمنا كثيراَ على اخبار اصدقائنا، وشكرنا الله على سلامة العزيز نبيل. وفي اعقاب ذلك انتظمت لقاءات شباب العائلتين في «كوجة مروي» رغم العمل والازمات.

وكما ذكرت ان الاخ «رضا الفيلي» هو خريج كلية الادارة والاقتصاد جامعة المستنصرية في بغداد. وبعد وصولهم الى طهران عمل هو واخوته في مهن مختلفة من اجل مساعدة عائلتهم المشردة. وهكذا اشتغل الاخ رضا في صناعة الاحذية، وفي الخياطة واعمال اخرى شاقة وزهيدة الاجر. واحب ان انوه الى ان الاخ رضا، وبمساعدة احد الاساتذة واسمه الاستاذ «محمد حسين الاديب»، هما اول من ساهما في فتح مدارس عراقية عام 1981 في طهران، ومن مهمة تلك المدارس هي تقييم الشهادة العراقية للطلاب المهجرين لإعادة تأهيلهم (الطلبة المهجرون صودرت وثائقهم الرسمية من قبل الامن العامة). ولذلك كان يتطلب الامر اجراء اختبارات متعددة لمختلف المواد الدراسية لمراحل المتوسطة والاعدادية، وبذل الاخ رضا ومن معه جهودا كبيرة لكتابة وتقيم تلك الاختبارات. وبعد ذلك يتم تقييم النتائج

ويوزع الطلبة على ضوء النتائج على مراحل دراسية تتفق مع مستواهم الدراسي في المدارس الايرانية، بالإضافة الى تدريسهم اللغة الفارسية.

بعد مرور سنوات على تهجيرنا اخبرني الاخ رضا انه قد تزوج بفتاة عراقية مهجرة عام 1982 واسمها «ماجدة جواد رضي جاسم». كانت عائلة ماجدة من الاكراد الفيلية، وتسكن في مدينة بغداد حي جميلة، والعائلة متكونة من خمس بنات وثلاثة اولاد، كان اخاهم الكبير واسمه «سعيد جواد رضي جاسم» يدرس في معهد التكنلوجيا في مدينة العمارة، وماجدة تدرس في الصف الخامس الاعدادي. كان والدها ميسور الحال لأنه يعمل في تجارة الخشب، لم يكن للعائلة اي نشاط سياسي، لكنها سفّرت الى ايران بعد ان صودرت وثائقها الرسمية، ومرورا بالأمن العامة حيث استجوب الاب عن ابنه سعيد واخذوا منه عنوانه ومحل دراسته. بعد ذلك احتجزت العائلة لمدة ثلاث اسابيع في عنابر التسفير التي قيل لهم انها قريبة من ملعب الشعب، حيث تم حجز النساء والاطفال في عنبر او قاعة خاصة، والرجال في عنبر آخر منفصلين عن بعضهم.

عنبر النساء كما وصفته زوجة الاخ رضا، كان عبارة عن صالة كبيرة، تعج بالنساء والاطفال الرضع، وليست هناك مساحة كافية للنوم لكثرة عدد المحجوزين، كان جو العنبر كئيبا يحمل آهات وبكاء النساء والأطفال، لم تكن هناك اي نوع من الرعاية للجميع وخصوصا الاطفال في ظل السكن بين جدران سجن العنابر المخيفة. لم تكنْ تتوفر حمامات للغسل او مغاسل صحية في تلك العنابر، واما المرافق الصحية القليلة العدد قذرة جداً، واما الوجبات الغذائية فكانت غير مستساغة، وبالرغم من رداءتها، فهي قليلة واحيانا توزع وجبة واحدة في اليوم، ولم يكن هناك حليب للأطفال الرضع، وقد مرض بعض الاطفال والكبار في السن نتيجة الطعام السيء والظروف الخانقة واللاإنسانية التي كانوا يعيشونها في عنابر التهجير. كان اللقاء ممنوعا بين الرجال والنساء لذلك كان الخوف يأخذ طريقه الى قلوب النسوة اذ لا يعرفن مصائر ازواجهن واولادهن في الحجز او في عنابر الرجال. اما ضباط الامن الممتلئون بالقسوة والحقد فكانوا يدخلون عنبر النساء ليلا وبدون استئذان للمتابعة ولغرض الترهيب بكل همجية، لذا كان الخوف يدخل قلوب الامهات على بناتهن

من الاعتداء، واحيانا تؤمر النساء المحجبات وفي مختلف الاعمار ان يخلعن الحجاب. وذكرت ماجدة ان احد الضباط واسمه «عبود» كان مخلوقا متعجرفا وشكله مخيف، يدخل تقريبا كل ليلة الى قاعة النساء وبدخوله ينتشر الفزع بينهن. ولهذا السبب كانت الامهات تغطي رؤوس بناتهن حفاظا عليهن من رجال الامن لانهم يستبيحون كل شيء بقوتهم، وليس هناك قدرة للمظلوم للوقوف ضد رغباتهم الهمجية. لا يمكن وصف ما يجري في عنبر النساء لبشاعته الكبيرة.

بعد مضي ثلاث اسابيع تقريبا من المعاناة النفسية والاحوال المزرية في عنابر التسفير في بغداد، جاءت باصات التسفير المتوجه الى الحدود العراقية الايرانية، وزجت العوائل في تلك الباصات ومن ضمنهم عائلة ماجدة. وعندما وصلت الباصات الى الحدود، انزلت العوائل المتعبة في حوالي الساعة الخامسة مساءً وكان حينها الجو ممطراً تصاحبه عواصف شديدة. وترك ازلام الامن المهجرين في العراء وتحت الظروف الجوية السيئة، ومع حلول شبح الظلام، قالوا لهم «وراء ذلك الجبل وطنكم ايران».

رحلت زمرة الامن والباصات، تاركة المشردين المغلوبين على امرهم على الحدود. كان على جميع العوائل السير قدما في الاراضي الوعرة وفي المناطق المحرمة التي كانت مزروعة بالألغام، لان الحرب بين العراق وايران قد دخلت عامها الثاني. مشت قافلة المشردين في الاراضي الايرانية المشمولة بالحرب وكانت هناك دبابات محروقة، وبعض الجثث المحروقة المترامية لجنود لقوا حتفهم، تلك المناظر كانت كابوسا حقيقيا لن يفارق ذاكرة المهجرين ابداً لبشاعته. وكان من ضمن المشردين، عائلة فيها رجل مسن مريض ومصاب بشلل لا يستطيع المشي، ولصعوبة حمله والسير به، دثرته عائلته ببطانية وتركوه في مكانه لعدم قدرتهم على حمله او البقاء الى جانبه لخطورة الموقف، وكان لديهم امل في انقاذه، كانت مشاهد مخلفات الحرب وما يحصل لهم في السير بين الادغال ليلا كأنه يوم القيامة. وبعد مسير طويل جاءت عربات ايرانية لنقل المشردين واخبروهم عن تركهم للرجل المريض، وسارعت احدى سيارات النجدة الايرانية الى إنقاذ الرجل، فوجدته قد فارق الحياة، وحملت جسده لأجل دفنه بصورة انسانية يستحقها.

حملت الباصات الايرانية المهجرين العراقيين المتعبين من شقاء السير وظلم حكومة البعث الى احد المساجد القريبة. وقام الحرس الايراني بتقديم المساعدات الانسانية ومنها الغذاء والملابس والدواء للمتضررين. وبعد ايام قلائل نقلوا الى مخيم اخر في مدينة اصفهان ومن ثم الى مخيم جهرم. وذاقت عائلة ماجدة عذابات المخيمات ودوامة القلق على ابنهم الكبير سعيد. بعد مرور اشهر جاءهم خبر من خالتهم التي تعيش في بغداد، ومفاده ان ابنهم سعيد قد احتجز في الامن العامة بعد يومين من تسفيرهم ومن ثم تم نقله الى سجن نقرة السلمان. وقد سمح لخالتهم بزيارة سعيد في سجنه بعد شق الانفس. وبعد مرور اكثر من 6 أشهر على التسفير وصل العائلة المشردة الخبر انه قد تم اعدام الشاب سعيد جواد رضى في سجنه والى يومنا هذا لم تحصل العائلة على رفاة ابنها او معلومة عن مكان دفنه.

كانت مآسي وقصص التهجير القسري كثيرة ومتنوعة، وتعبّر عن طبيعة النظام الدكتاتوري، ومهما كتبت عنها لن تغطي مساحة الظلم الذي جرى للعراقيين في زمن كان يتنصل من الانسانية وكان السيف الظالم فوق رؤوس الامة.

العلاقة الودية والتشردية بين عائلتنا وعائلة ام رضا، بقيت وطيدة الى يومنا هذا رغم توزع البعض منا الى منافي مختلفة، كنا ولا زلنا نتبادل اخبارنا عن طريق الرسائل واحيانا عن طرق الهاتف وكانت اخبار الوطن هي من اهم مواضيعنا. الحزن على العراق وشعبنا الطيب ينغّص علينا ايامنا. وكانت ولا زالت غصتنا تزداد، لما مرت من ويلات على وطن السلام والذي اصبح مكسورا محطما نتيجة ظلم الحكومة الدكتاتورية الارهابية التي زجت الوطن وشعبه في حروب كانت نتيجتها الدمار والخراب. بالإضافة الى الحصار الاقتصادي التي عانى منها الشعب العراقي ومن شظف العيش الذي اصبح يدك العوائل الفقيرة. كان حزننا مشتركا على وطننا الذي اصبح ساحة حرب أحترق في نيرانها اجمل شيء في الوطن: المحبة والأمان.

47

السفر للبحث عن.... هوية

مرت علينا أحداث وتواريخ عديدة خلال أشهر: التشرد ومنها الاحتفال بأعياد الميلاد والسنة الجديدة التي مرت بشكل هادئ وحزين، اذ لم تكن هناك البهجة التي تعودنا عليها في وطن السلام مع العائلة والاصدقاء. لقد انتهى فصل الشتاء ببرودته وعذاباته كي يحل محله فصل الربيع لعام 1981 حيث ارتفعت درجة الحرارة واصبح الشارع الايراني يضج بالحركة والازدحام لان الجو معتدل وجميل، مما زاد من حيوية الجميع في الخروج والتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة التي تكسوها الخضرة، وتفتح الازهار مما يدخل البهجة الى النفوس.

كان الايرانيون يحتفلون بعيد الربيع وحلول السنة الايرانية الجديدة والعيد يسمى بـ«عيد النوروز» ويصادف 21 آذار/ مارس، وهذا العيد يعتبر عيدا تراثيا ترجع أصوله الى التقاليد الدينية الزرادشتية من قبل اكثر من الفي عاماً، وهو أيضا عيد قومي لدى الشعب الإيراني اذ كانوا يحتفلون بحلول السنة الجديدة وبشكل واسع في كل انحاء البلاد، ويستمر العيد وطقوسه الجميلة اكثر من اسبوعين. ويهيأ لعيد النوروز من قبل فترة طويلة، فتنظف البيوت ويغسل السجاد ويتبارك الناس بشراء اثاث جديد او يعيدون ترتيبه ويشترون الملابس الجديدة، وطبعاً الاسواق تكون مزدحمة بالزوار لشراء تجهيزات العيد. ومن المظاهر الجميلة تزين المدينة والبيوت بأضواء احتفالية براقة تبعث البهجة في قلوب الناس. كذلك تزرع صحون الحنطة او الشعير من قبل اسابيع وهي تدل على الخصوبة، وكل عائلة تحضر سفرة العيد التي تسمى «سفرة هفت سيني»، وتعني بالعربي «سفرة السينات السبع» وهي فواكه وخضار تبدأ اسماؤها بحرف السين، وكل من هذه المواد له دلالته في الصحة والخصوبة والحب.

كما يوضع في السفرة ايضاً القرآن الكريم تيمنا بالله، ديوان حافظ الشيرازي للتفاؤل بقصائده، ومرآة، أسماك الزينة، وبيض ملون، والمكسرات وأشياء اخرى جميلة، وتهيأ وجبة العشاء وغالبا يتم تناول طعام ايراني خاص (سبزي بلو مع السمك) ومعناه رز مع خضرة وسمك. توزع الهدايا والحلوى على الاطفال، وهناك عادات اخرى مثل القفز فوق النار، وتحتفل العائلة مع بعضها او بحضور الاهل والاصدقاء، وفي اليوم 13 من ايام العيد اذ يخرج الناس من بيوتهم تخلصاً من الرقم 13 النحس ويذهبون الى الحدائق وهنا لاحظت ان الجميع يبتهج بالعيد وهناك الكثير من التناغم بين الانسان والطبيعة، وحب المرح والتفاؤل، وكانت هناك الكثير من العادات والتقاليد لهذا العيد جميلة وممتعة لا يسعني حصرها.

لقد احتفلت عائلتي ايضا ابتهاجاً بالسنة الجديدة، لذا جهزت والدتي السفرة بمساعدة البنات بشكل بسيط، وهكذا تعلمنا مراسيم العيد للسنة الايرانية الجديدة لأول مرة في حياتنا، وكانت تجربة جميلة لم نألفها سابقا. واتذكر شيئاً مضحكاً قد حدث حينها على سفرتنا المشردة، حيث نشب نزاع بين احد اخوتي واخواتي، ونزاعاً اخر بين افراد العائلة، وحصل الزعل بينهم، ولم يجلسوا حول السفرة، لذا كان منظر مضحكاً، واتذكر ان احدي بنات خالي مكي واسمها مليحة صعدت الينا ومعها صحن حلوى، فشعرت عند دخولها بان الجو كان مشحونا، فبادرت بعفوية بسؤالها، لماذا فلانة جالسة وحدها وحزينة؟، فاجابت والدتي «راسها يوجعها»، فعلقت العزيزة مليحة بمرح «ويا من راسها يوجعها؟»، عند سماعنا تعليق ابنة خالي ضحكنا جميعاً حتى الزعلانين، وبعد ذلك جلسنا جميعاً حول السفرة وتناولنا وجبة العشاء بين الضحك والحديث، ثم دعانا خالي مكي في المساء الى بيته لقضاء سهرة العيد، واحتفلنا معهم في ليلة مضيئة وسط ظلام المنفى.

بعد انتهاء اعياد النوروز بأسبوع، انتقلت عائلة بيت خالي مكي الى سكنهم الجديد في احدى نواحي طهران، تاركين خلفهم فراغا كبيرا ملحوظا لانهم اصبحوا جزءا من يومياتنا وكان لانتقالهم اثر كبير علينا. اصبحنا وحيدين في البيت الكبير، رغم زيارة خالي مكي المحبة لنا في فترات متباعدة، ولكن شعورنا بالوحدة والفقدان اصبح اكبر.

كان الربيع باهرا وجميلا في طهران وللأسف لم يدخل الى نفوسنا المتعبة سوى الحسرة ومعاناة التشرد وكسران الخاطر، الجميع كان يعمل وكانت حياتنا رتيبة خالية من الفرحة، كنت ارى اخوتي الشباب يقضون نهارهم في سرداب اظلم ثم يرجعون ليلا منهكين وغالبا يذهبون بعد تناول العشاء الى النوم مباشرة، قلّت احاديثنا لعدم وجود بارقة أمل في تغيير الواقع واحيانا يكون حديثا عابرا عن اوضاع العراقيين المهجرين. كنت ارى اخي الصغير منصور يرجع من العمل متعبا منهكا وقد اصبح هزيلا، ويداه اصبحتا سوداوين نتيجة العمل في سرداب الاحذية غائبا عن طفولته التي انتهت بتهجيرنا من العراق. اما اختي سجواء كنت ارى اثار الحزن على وجهها رغم محاولتها اخفاؤه عنا، وتشجيعنا على الاستمرار، احيانا كنت اراها تبكي بصمت في الغرفة وفي يديها رسائل صفراء اللون، لم يتدخل احد منا بشؤنها الخاصة وبحزنها. وعرفت منها بعد ذلك انها رسائل من شخص كان يحبها وتحبه ولكن التهجير فرق بينهما، والدي هو الاخر كان يعرف بالموضوع لان احد الاقارب تقدم لخطبتها فأجابهم والدي انها مخطوبة لشاب في العراق ويحاول ان يهرب كي يلتقي بها وذكر اسمه كي يعرف الجميع، كنت اراها زهرة يانعة في مستنقع التشرد فاقدة الامل في تحقيق ما كانت تتمناه في بناء حياتها الخاصة التي باتت حلما عسير المنال، وكنت احس بوجعها ولكن ليس في اليد حيلة سوى التهوين عليها والتعلق بحبال الأمل الوهمية كي تنتشلنا من براثن اليأس الجاثمة على صدورنا.

كنت كثيرا ما اشعر بالاختناق من الواقع المرير الذي اعيشه وتعيشه أسرتي. كانت خياراتي محدودة ينعدم فيها بصيص الأمل للتخلص من وحل التشرد. تحولت احلامي الى مسخ لا يحمل سوى كوابيس التشرد المعتمة. كنت اتحاور مع نفسي لإيجاد حل للحالة المضطربة التي اعيشها كما يعيشها اغلب المهجرين. كانت امكانية الدراسة والتحصيل العلمي معدومة وليس بسبب الجامعات المغلقة بل لان «الكارت الاخضر» الذي منحتنا اياه الحكومة الايرانية لا يعطي اي صلاحية اخرى سوى العيش على هامش الحياة، قرار تعييني في مؤسسة الرازي وبدون وثيقة وبراتب ضئيل كان مؤقتا ولم تكن هناك ضمانة لتجديد القرار. اما من الناحية الاجتماعية كانت صعبة ايضاً لأني استبعدت حينها فكرة الاقتران بشخص

ايراني للاختلاف الثقافي واللغوي، والاقتران بشخص مهجر ومشرد سيكون استمرارا لكابوس التشرد وستكون عواقبه وخيمة لأننا سننجب اطفالا مشردين بلا هوية ولا وطن يمنحهم الاستقرار. لذلك كنت افكر بالخروج من ايران رغم معرفتي بان خطواتي ستكون عسيرة، اولها يجب ان احصل على موافقة العائلة وبالذات موافقة الوالد التي لم تكن يسيرة والخطوة التي ستتبعها كيف سأخرج وليس لدي جواز سفر، اما فكرة الخروج بجواز مزيف او فيزا مزيفة من «كوجة مروي» كانت تخيفني. وكنت غالبا اركن فكرة السفر جانبا لصعوبة تحقيقها، وأظل أمني نفسي بحلم الرجوع الى الوطن وانتهاء كابوس التشرد البغيض.

بعد انتهاء اعياد النوروز بفترة وجيزة، اجتمع والدي معنا واخبرنا بصراحة الاب والصديق انه يرى ان الامور قد تعقدت والرجوع الى العراق قد بات مستحيلا، ظروف البلد هنا غير مستقرة، الحرب لا زالت قائمة وليس هناك اي خطوات لبناء المستقبل وأنه لتلك الاسباب سوف لن يقف بوجه اي احد له الرغبة في ترك ايران والخروج الى بلد آخر وبخطوات مدروسة. اضاف والدي في حديثه انه لا يريد ان يقف عائقا في طريقنا رغم ان فراق اي منا سيكون صعبا جداً. كانت مبادرة والدي وحديثه الصريح قد ادهشتنا وحطمت جدار الخوف فيما بيننا، بل ان كلماته اشعرتنا بقوة ارتباطه واحساسه بما نمر به من عذابات نفسية، حديثه كان لنا بمثابة وسام شرف كبير لثقته العالية. رفضنا حينها جميعا الفكرة وخصوصا اخوتي، اولاً لصعوبة ترك العائلة لوحدها وثانيا لصعوبة الخروج بدون وثائق.

كانت اختي سجواء تحثني وتشجعني كثيرا للتحرك من اجل السفر لان والدي قد ابدى موافقته للفكرة، وان عقد عملي مؤقت وقارب على الانتهاء، ولأني اجيد اللغة الانجليزية وسفري لربما سيفتح لي ولربما للجميع آفاقا جديدة. لذا قررت ان ابدأ البحث عن سبل للخروج الى بلد اخر قد يحترم حقوق الانسان ويعطيني هوية جديدة وكذلك يهبني الشعور بالقليل من الاستقرار لمساعدة العائلة. اخذت اجازة من عملي وبدأت بجولة اطرق فيها ابواب السفارات والمنظمات الانسانية من اجل طلب اللجوء او الحصول وثيقة للسفر ولربما العمل او الدراسة. فوجئت ان هناك الكثير من العراقيين المهجرين قد سبقوني في المحاولة ولديهم نفس الهدف.

كانت اغلب السفارات تغلق ابوابها امامنا، ولم يكونوا متعاطفين معنا، لذلك كنا نرجع الى ديارنا يغمرنا شعور الاحباط والخيبة والحيرة في ايجاد منفذ من جحيم التشرد. لم يكن طرق تلك الابواب هين ويسير علينا لما فيه من مرارة، لأننا اصبحنا نستجدي هوية ووطن قد ضاع في زحمة الحياة. التقيت في طريقي للبحث عن طريقة للسفر بالكثير من المشردين وكنت اسمع قصص تهجيرهم او هربهم من النظام، ونتبادل همومنا واوضاع الوطن ومن ضمن احاديثنا كان البحث عن طريقة السفر الى العالم الواسع والخلاص من غياهب التشرد. عندما كنت ارجع الى البيت لا احمل معي سوى الفراغ ومشاعر الإحباط التي تنتابني، كنت اشعر بالأعياء والضياع، ولكن رغم كل المصاعب والرفض لم تثبط عزيمتي بل كان كل فشل في تلك المحاولات يعطيني شعورا كبيرا بالقوة والتحدي والاستمرار واعادة الثقة بنفسي، وان المستقبل سيكون في يوم ما مشرقا.

ذهبت في احد الايام الى السفارة السويدية، وتحدثت مع احد رعاياها وهو موظف سويدي، وسردت له مأساة التهجير القسري وما نشعر به من ظلم ومعاناتنا التي تكبر بمرور الايام، كان الرجل يصغي لي بهدوء وشعرت انه مهتم لحكايتي ومتأثر كثيرا لما عانيناه. بعد اكمال حديثي ابدى لي مشاعر الاسف والالم لما يحدث للشعب العراقي، وصرّح بان ليس في يده سبل للمساعدة، مؤكدا لي بعدم جدوى تقديم طلب للخروج من ايران لان الطلب سيرفض باعتبارنا ايرانيين وليس مهجّرين. شكرت الرجل لصراحته وحزنت كثيرا لأننا اصبحنا ضائعين في عالم ظالم ليس هناك من يآزرنا في تلك المحنة.

بعد خروجي خارج مبنى السفارة السويدية التقيت بشباب عراقيين كانوا يتحدثون في سبل للخروج من ايران، فقال احدهم ان بعض السفارات ومن ضمنها السفارة الجزائرية توزع ورقة مغادرة رسمية للسفر وتدعى «ورقة عبور» بالفرنسية تدعى «ليسّيه باسّيه» وبهذه الوثيقة يمكن اي شخص لا يحمل جواز رسمي، السفر الى اي مكان يريد. وبهذا عزمت ان اجرب حظي والدخول في المحاولة التي هي لربما يائسة ولن اخسر شيئا، وعلى قول المثل العراقي «المبلل ما يخاف من المطر». سارعت مع بعض الشباب وتوجهنا صوب السفارة الجزائرية، عندما دخلنا صالة السفارة

الجزائرية كان هناك بعض الشباب يستلمون تلك الوثيقة، وفعلا حصلت على ورقة العبور وكان عدد الوثائق قليلا ونفذت بوجودي، ولم اتمكن من اخذ وثيقة اخرى لاحد افراد عائلتي.

لقد نصحني احد العاملين في السفارة الجزائرية وقال «اذا وفقت بالسفر لاي بلد غربي لا تذكري انك مهجرة الى ايران لانهم سيرفضون دخولك وسيرجعونك الى ايران ثانية لانه غير معترف بقضيتكم، وعليك عند تقديم اللجوء فقط تغير طريقة السفر وعدم ذكر التهجير اما قصة ظلم النظام تستطعين ذكرها دون تغير». شكرت الرجل على النصيحة، وتألمت كثيرا على شركائي في المصير لان العالم كله لا يعترف بنا وشريعة الغاب هي الفائزة. كنت قد سمعت تلك النصيحة مسبقا من بعض السفارات وكانت تتردد بين الشباب المشردين. اخذت ورقة العبور وذهبت الى البيت وركنتها جانبا لان التصميم على السفر يحتاج الكثير من القوة والصبر والم الفراق اولها، وهل لتلك الورقة فعلا صلاحية للسفر؟ وكيف؟ واي بلد سيقبل باحتضاني وهناك خوف للخسارة المادية.

اخبرت عائلتي بحصولي على تلك الوثيقة فكان والدي وسجواء واخوتي يشجعوني على السعي بإكمال المعاملة من اجل السفر وابدوا استعدادهم الكبير لمساعدتي ماديا لشراء بطاقة السفر واعطائي مصروف يكفي لحاجتي الضرورية. بعد اسبوع او اكثر باشرت في متابعة قضية السفر، كان عليّ اخذ صورة حديثة وكتابة بعض المعلومات ومن ثم تصديقها في دوائر مختلفة واخر دائرة كانت وزارة الخارجية حيث يتم فيها التصديق الاخير والحصول على تأشيرة الخروج، ومن اهم شروط ورقة العبور هي السفر وعدم العودة، يعني بالإمكان السفر بها لمرة واحدة فقط.

اخذت الوثيقة بعد تصديقها هنا وهناك في دوائر الدولة المختلفة، وتوجهت الى وزارة الخارجية الايرانية كمحطة اخيرة كي احصل على تأشيرة الخروج، والجدير بالذكر لم تكن هناك عراقيل في تصديق وثيقة الخروج وكان هناك تعاطف من الدوائر الرسمية. التقيت في باحة وزارة الخارجية الايرانية بالكثير من العوائل العراقية المهجرة

وبأعمار مختلفة ومن ضمنهم نساء واطفال، وعلمت بعد ذلك انه يمكن تسجيل عائلة بأكملها بوثيقة واحدة، كانت هناك نقاشات وقصص كثيرة عن فشل البعض ونجاح البعض الاخر في السفر بتلك الطريقة وكنت استمع بشغف لكل ما يقال. ريثما كنت انتظر في اخر الطابور من اجل الدخول لأخذ التأشيرة النهائية، توجه صوبي رجل عراقي في بداية الثلاثين من عمره، معتدل القامة ممتلئ البنية (مربوع) وله سحنة سمراء جنوبية ولحية قصيرة، طلب مني الرجل وبأدب جم ان يتحدث معي لطلب المساعدة. امتثلت لطلبه وتركت الطابور كي اسمع ما يريده. روى لي انه من سكنة مدينة البصرة، وقد اجبر للالتحاق في الجيش العراقي ثانية بعد اتمامه لخدمة العلم، وانه زُج في المشاركة في الحرب التي هو غير مقتنع بها، ونتيجة خوفه من الغدر به وبعائلته انصاع للأمر الظالم. استمر في حديثه قائلا بصوت حزين لقد تركت عائلتي في يد الخالق وتحت حكم النظام وعندما توجهت مع الفوج العسكري الى ايران ودخلنا الاراضي الايرانية، انتهزت الفرصة في احدى الليالي ورميت سلاحي وتخلصت من ملابسي العسكرية وهمت على وجهي ماشيا في طرق جبلية هربا من المطاردة.

استمر الرجل في حديثه قائلاً «بعد ان قطعت شوطا كبيرا في المشي متجاوزا الخطر، دخلت احد القرى الايرانية وطلبت المساعدة من اهل القرية، وقد ساعدوني بعض الناس في الاكل والملبس وسكنت عدة ايام في المسجد، لم اذكر لهم اني جندي عراقي بل قلت لهم اني هربت من العراق. ثم قال بصوت باكي عن سبب تركه ساحة الحرب «اشلون اقتل انسان مسلم مثلي، والله ما صايرة» كان وجهه قد احتقن وعيونه ارتسم عليها الحزن والتعب وقلة الحيلة، ثم واصل حديثه «منذ اكثر من شهر انتقل بين المدن والقرى وقد نصحني احد العراقيين الذي قابلته في طريقي ان اسلم نفسي للجهات الرسمية، وانا لا اعرف كيف واين لذلك توجهت البارحة الى طهران وانا حائر في امري وارجوك يا اختي ان تنصحيني لأني لا املك وثائق ولا نقود وانا خائف على اهلي في العراق تحت الظلم ولربما سيؤذون زوجتي وامي ولربما سيخبرونهم باني قتلت في الحرب». نصحته بتسليم نفسه الى الشرطة واعطيته ما في حقيبتي من نقود لاني كنت قبل ايام قلائل قد استلمت راتبي ورغم رفضه وابائه اخذها وشكرني وانصرف. تأثرت جدا وحزنت على هذا الانسان الضائع بين تأنيب

الضمير والخوف وتألمت لما يجري لأبناء وطني الذين يصارعون الظلم واصبحوا بين قتيل وسجين ومشرد ومهجر. رجعت الى طابور الانتظار للحصول على ضياع اخر من نوعه، جاء دوري بعد الانتظار وحصلت على التأشيرة ونبهني الموظف ان صلاحية الوثيقة هي ثلاثة اشهر فقط.

بعد مرور اقل من اسبوعين اصبحت ورقة العبور جاهزة للسفر. اشارت عليّ عائلتي بعدم اخبار اي احد بالموضوع توخيا من العواقب اذا فشلت بالسفر ومنها العمل واسئلة المقربين. ساعدوني اخوتي وخصوصا اخي الكبير ابو علي واختي سجواء ماديا لأجل دفع اجور السفر وقررت مع عائلتي ان تكون رحلتي السويد. ذهبت بعد يومين الى احدى الخطوط الجوية الايرانية من اجل شراء بطاقة السفر، الجدير بالذكر ان الخطوط الجوية الايرانية هي الوحيدة التي تعترف بوثيقة العبور وبدون جواز سفر. قطعت بطاقة السفر مرجع من طهران الى مدينة استكهولم في السويد، والرحلة كانت غير مباشرة لان هناك توقف لمدة سويعات قليلة في ترانزيت مطار فرانكفورت. وبهذا تحدد موعد السفر بشكله النهائي وانا غير مصدقة بحقيقة السفر وكنت خائفة ومترددة في خوض تلك التجربة ومن الفشل، بالإضافة الى ذلك كان احساس الشعور بالذنب يملؤني في ان اترك عائلتي في تلك الظروف، لذلك كان في داخلي صراع كبير بين السفر والبقاء بالرغم من تشجيع عائلتي

اصبح سفري الى الخارج يقينا بعد الحجز، بدأت وبمساعدة والدتي واخواتي تجهيز حقيبة السفر(هي نفس الحقيبة التي حملنا فيها ملابسنا يوم التسفير في بغداد ولونها احمر). كان صعب علينا اختيار الاشياء التي ممكن ان احتاجها في سفري، ولكني اخذت معي بعض الملابس الشتوية لان الدول الاوروبية باردة المناخ، فتشت حينها على وثائقي العراقية التي اخذتها معي يوم التهجير وهي جنسيتي العراقية ووثائق اخرى تثبت دراستي في الثانوية وكلية الطب البيطري بجامعة بغداد وهوية الطلبة وللأسف لم اجدها رغم مساعدة العائلة بأكملها في البحث عنها (بعد مرور سنتين او اكثر وجدتها والدتي في احد جيوب الحقيبة الزرقاء ذات الجيوب الكثيرة التي اشتراها اخي من قرية خسروي للحدودية، طبعا الحقيبة زارت بيوت ومدن كثيرة ووثائقي في داخلها في كيس ازرق).

ليلة الرحيل كان الخوف من لوعة الفراق الذي بدأت احسه وانا وسط عائلتي يكبر، كنت قلقة متوترة وحزينة اودع وجوه عائلتي واحدا تلو الاخر، كنت اراهم جميعا في وجه امي، هل سأتحمل فراق وجهها الذي يضيئ ايامي؟.

تلك الليلة كانت الرهبة والخوف يكبر في داخلي وسؤال ملح هل سأنجح في تجربتي؟ هل سأستطيع تحمل ألم الفراق ومآسي الغربة والبعد عن عائلتي. ودعت قبل عام، احبتي ووطني مجبرة، والان التاريخ يعيد نفسه وهذه المرة اخترت طريق الفراق بنفسي وهو ايضا نوع من الاجبار. طلبت من والدتي ان انام الى جانبها تلك الليلة ووافقت. اطفُئت انوار البيت للذهاب الى النوم وكان النوم تلك الليلة صعب جدا كنت احتضن والدتي كطفلة تخاف الظلام، اشمها واحس بدفء قلبها وتمنيت لو يتوقف الزمن تلك اللحظة في احضان الامان في حضن امي الغالية، كنت ابكي بصمت وشعرت بيد امي تمسح رأسي وتسالني عن بكائي؟ فقلت لها كيف سأكون وحدي بدونك؟ فقالت لي بصوتها الحنون سيكون الله معك وبقلبي سأدعو لك بالسلامة، بهذه الكلمات التي هدأتني وادخلت السكينة الى قلبي استسلمت للنوم على حلم دافئ في رعاية الله ودعاء امي.

يوم الاثنين المصادف 11/ 05/ 1981 كان موعد سفري على الخطوط الجوية الايرانية «هما»، في هذا اليوم لم يذهب اخواتي واخوتي الى العمل من اجل توديعي في المطار، ومن ناحية عملي فقد مددت اجازتي لمدة عشرة ايام اخرى كي لا افقد عملي في حالة الفشل. احضر اخوتي سيارتي اجرة الى بيتنا وذهبنا جميعنا الى المطار وقبل موعد الطيران بأربع ساعات، شحنت حقيبتي وتم كل شيء بشكل سلس ولم يكن اي اعتراض او عرقلة من موظفي المطار. ودعت عائلتي بين البكاء والدعاء وكان وداعا مؤلما جدا، بقيت عائلتي في المطار بعد توديعي تأهبا وخوفا من منعي من السفر. دخلت الى صالة المسافرين وشعرت بالغربة، قضيت الوقت بقلق حتى اطلق النداء الاخير للمسافرين للتوجه الى بوابة الطائرة والاستعداد للركوب على متن الطائرة المتوجهة الى مطار استكولهوم، وكانت هذه الخطوة هي اخر العقبات التي كان عليّ اجتيازها، وتمت ايضا بنجاح فتنفست الصعداء وقلت حدة التوتر والخوف لأني نجحت في ركوب الطائرة.

كان هناك ازدحام كبير لكثرة الركاب والكل يبحث عن مقعده، جلست في مقعدي المحدد وبعد مضي وقت قصير جلس جميع الركاب في اماكنهم وساد الهدوء نوعا ما اثناء تلقّي المعلومات من المضيفة، بدأ صوت محركات الطائرة الكبيرة في الدوران وبعد قليل شرعت الطائرة في الصعود في الفضاء معلنة بدأ الرحلة.

كنت ارى من خلال النافذة مدينة طهران الكبيرة فدمعت عيني لفراق الاحبة، بعد صعود الطائرة بمستوى معين، فتح الناس حزام الامان وبدأت حركة المسافرين وشاهدت من ضمن المسافرين عوائل مع اطفالهم وشباب بمختلف الاعمار ومن حديثهم فهمت انهم من المهجرين العراقيين واغلبهم اكراد فيلية مقصدهم السويد والبعض الاخر الى المانيا. تعرفت على عائلة كردية ومعهم 4 أطفال وقضيت معهم بعض الوقت.

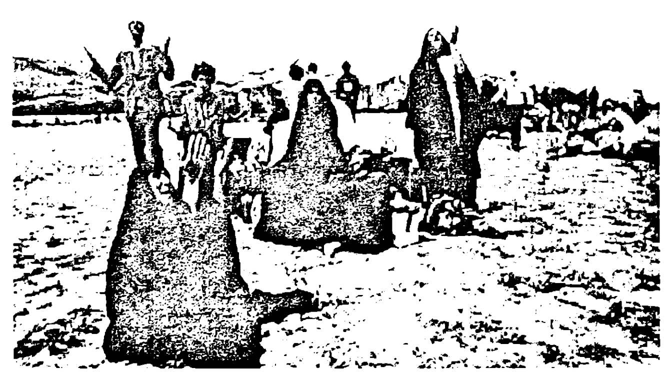
بعد مرور اكثر من خمس ساعات وصلنا الى مطار فرانكفورت في المانيا، اتجهت مع بعض المسافرين الى صالة الترانزيت من اجل انتظار الرحلة المتجهة الى السويد. وأعلن حينها بان الرحلة المتجهة الى مدينة ستوكهولم قد الغيت لأسباب اجهلها وعلينا الانتظار الى العاشرة صباح اليوم التالي. انتهزت الفرصة وكلمت عمي ابو سمير الذي فرح بسماع صوتي ووعدني بالمجيء الى المطار. وفعلا التقيت بعمي ابو سمير وعائلته واخبرته عن وضع العائلة وقصة سفري فدعا لي بالموفقية ومن ثم رجع الى بيته بعد انتهاء المقابلة. قضيت تلك الليلة المتعبة بدون نوم في المطار مع من معي، وفي الصباح جاء نداء التوجه للمسافرين الى مدخل الطائرة الى استكهولم. توجهنا جميعنا الى مدخل الطائرة وكان معي العائلة ذات الاربعة اطفال وعائلتان كرديتان وشباب عراقيون، سمح لي بالدخول بعد رؤية بطاقة السفر، اخذت مقعدي المحدد وبعد دقائق من جلوسي جاءت المضيفة مع احد موظفي المطار وطالبوا بتفتيش جوازتنا، اطلعوا على اوراق العبور وانزلونا جميعا من الطائرة لعدم حيازتنا على جوازات سفر رسمية. المهم رجعت ومن معي الى صالة الترانزيت ثانية، وقررت ان اقدم طلب اللجوء في المانيا وهذا فعلا ما حصل وقدم الجميع مثلي طلب اللجوء وكنت مترجمة للبعض باللغة الانكليزية، تم التحقيق معنا في المطار ومن ثم نقلنا الى معسكر اللجوء في قرية شونيك في مدينة فرانكفورت.

استقرت حياتي في المانيا رغم مواجهتي لاحباطات ومصاعب كثيرة اهمها الغربة والبعد عن الاهل والوطن. المانيا منحتني مشكورة هوية الانتماء التي حرمت منها في بلدي، والهوية انتشلتني من حالة الضياع والتشرد، كما اعطتني دولة المانيا الفرصة لبناء مستقبلي وتمكنت بعد اتقاني للغة الالمانية اعادة دراستي الجامعية في الطب البيطري في مدينة هانوفر وحصلت بذلك على وثائق المانية.

كان اصراري كبيرا في ان اكون عنصرا فعالا في البناء الحضاري الانساني للمجتمع، مرت سنوات عجاف صعبة تعلمت فيها الكثير واهمها الاعتماد على النفس واستغلال الفرص المتاحة وبهذا حققت جزءا من ذاتي وعملت بشهادتي الجامعية في هولندا التي منحتي بدورها الكثير. بعد مغادرتي ايران بدأ اخوتي واخواتي بالنزوح واحد تلو الاخر بطرق مختلفة وصعبة واحيانا خطرة الى بلدان اعطتهم شرف الانتماء وتم ذلك خلال العشر سنوات الاولى من التهجير ولم يكن ذلك يسيرا على والديّ، وكذلك جميع اخوتي واخواتي اعادوا دراستهم وعملوا جميعا. لم تكن الفرصة متاحة لجميع المهجرين العراقيين بالسفر لعدم توفر الهوية وكذلك عسر الحالة الاقتصادية وتشدد قوانين اللجوء، لذلك كنت وعائلتي ومن استطاع للهجرة سبيلا فئة قليلة من المهجرين العراقيين المحظوظين. هذه هي حكايتي بعد التهجير القسري من وطني الذي لا زال مع الاسف يفتقد الامان والحرية ولا زالت اثار الخراب وأرث النظام الدكتاتوري في التهجير وزرع الفتن والفتك في ارواح الناس تارة باسم الدين وتارة لأسباب قومية وعرقية قائمة حتى يومنا هذا، ولا زلت احلم ان يتجمع شتات شعبي تحت راية واحدة لبناء الوطن ويعود وطني وشعبي كما ألفته قبل التهجير محبا وآمنا.

ملحق صور

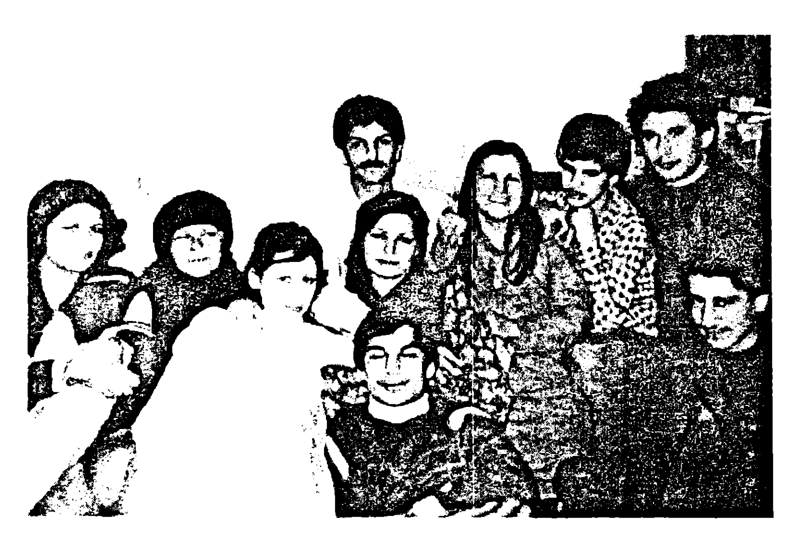




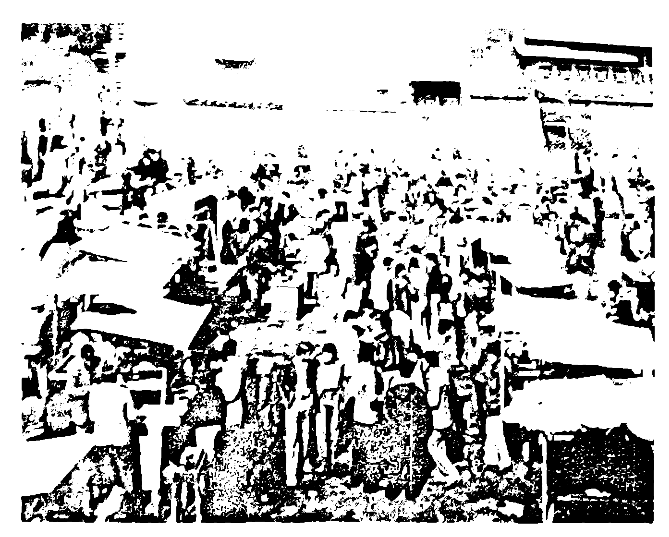
صورتان تكشفان جانبا من معاناة المبعدين قسرا: الأولى لعوائل محتجزة في مراكز الأمن قبيل التسفير والثانية وهي تنويع على صورة الغلاف، حيث تتجمع عوائل عراقية مبعدة على الجانب الإيراني من الحدود.



عائلة المؤلفة مجتمعة بطهران في عيد نوروز 1981



العائلة في طهران بعد عامين من التهجير



سوق كوجة مروي بطهران الذي صار محطة للعراقيين المبعدين عن وطنهم بعد وقت من تسفيرهم. وفي الكتاب يحضر السوق ضمن أكثر من حدث



أحمد، شقيق المؤلفة وهو يقف أمام ما تبقى من بيت العائلة بمدينة الحرية في بغداد العام 2014

كلمة الختام

ما كتبته في هذه الذكريات، هو غيض من فيض مما حدث، وهذه الذكريات معتمدة على واقع مرير عاشه العراقيون وعلى توثيق تاريخي. هدفي من الكتابة هو مناشدة وجدانية لكل عراقي محب للوطن ان نضع نصب أعيننا بناء الوطن والانسان والتسامح ونبذ الطائفية وان نتحد وننشر المحبة والسلام ونعمق الانتماء الى الوطن ونحبه حبنا لله. وفق الباري جميع الخيرين في جهودهم من أجل عراق حر يعم فيه السلام.

د. هناء سلمان

الفهرس



د. هناء سلمان

بلا رحمة

بيت عراقي مختوم بالشمع الأحمر 1980

تحتل هذه الشهادة التاريخية عن "اصوات منسية" الترتيب الثالث في سلسلة (من إبادة الارمن الى إبادة الايزيديين - مائة عام من الإبادة الجماعية)، في سياق يوثق الفظائع التي واجهت المجتمع العراقي بكافة أطيافه ومواطنيه. يقدم الكتاب شهادة مؤثرة عن حقبة تغول الدولة القومية في العراق، وفي توثيقه لقصة التهجير القسري والإقتلاع المرعب للمواطنين الإفراد بوصفهم ينتمون الى جماعة متخيلة، بناء على تصور سلطوي بيورتياني للهوية، يسلط الضوء على الإجتثاث المنهجي الرسمي لعشرات ألالآف من العراقيين الذين غيبت مأساتهم من ذاكرتنا الجمعية، ويدعونا للتساؤل عن مصيرهم، بعد أن ضاعت في ضجيج الحـــروب والنزاعات المتعاقبة أصواتهم المستغيثة. و تهدف الاجزاء المتعاقبة من السلسلة، إلى إثارة الانتباه الى سلسلة الإبادات والتهجيرات القسرية والتطهير الإثني التي حاقت ببلاد ما بين الحربين، بغية عدم تكرارها. لذا، نطمح الى ان يكون المشروع مناسبة لحراك ثقافي وفكري من اجل فهم كيفية تفجر نوبات التطهير العرقي والقتل الجماعي والتهجير القسري الملازم لنمط محدد من أدارة الدولة للتنوع، يقوم على "هوية مثلية" طاردة للاختلاف، وبالتالي قد نكون قادرين على منع وقوع نتائجها الكارثية في المستقبل. وسيتطلب منا ذلك، مراجعات واصلاحات في طرق تفكيرنا، كما في اصلاح مناهجنا التعليمية، وفي تصميم سياسات حكوماتنا في إدارة التنوع والأختلاف.